١

كانت الحرب مشتعلة الأوار بين الرومان والفرس . وكانت كل من الإمبراطوريتين تحاول أن تبسط نفوذها على الدنيا بأسرها . وقد امتد الصراع بينهما إلى جزيرة العرب ، فبعد أن اعتنقت الحبشة الدين المسيحى دين الدولة الرومانية وإن اختلفت المذاهب ، حاول أباطرة القسطنطينية أن يستغلوا الحبشة فى تنفيذ أطماعهم التوسعية تحت ستار الدين ، فغزت الحبشة اليمن واستولت عليها ، وحاول أبرهة القائد الحبشى أن يخضع القبائل العربية وأن يقوض الكعبة بيت الله الحرام الذى يقدسه العرب جميعا ، ليتصل نصارى الجنوب بنصارى الشمال ، ولتكوين جبهة موحدة فى وجه الفرس . ولكن الله جعل كيد أصحاب الفيل فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

ولم تقف الفرس مكتوفة اليدين أمام محاولات الرومان ، فقد ساندت سيف بن ذى يزن ليحرر اليمن من الأحباش حلفاء الروم ، ونجح ابن ذى يزن فى تحرير بلاده ، وتقطيع أواصر الصلة التى حاول نصارى الحبشة ونصارى الشام أن يوطدوها ، وتحطيم الجسر الذى كان حلم إمبراطور القسطنطينية ، فيا طالما منى النفس بأن يصبح انتقال المواطن الرومانى من روما إلى القسطنطينية إلى الشام إلى قلب الجزيرة العربية إلى أكسنوم عاصمة الحبشة أمرا واقعا يوطد أركان الإمبراطورية ، ويقيم جبهة متماسكة قوية فى وجه الزحف الفارسى .

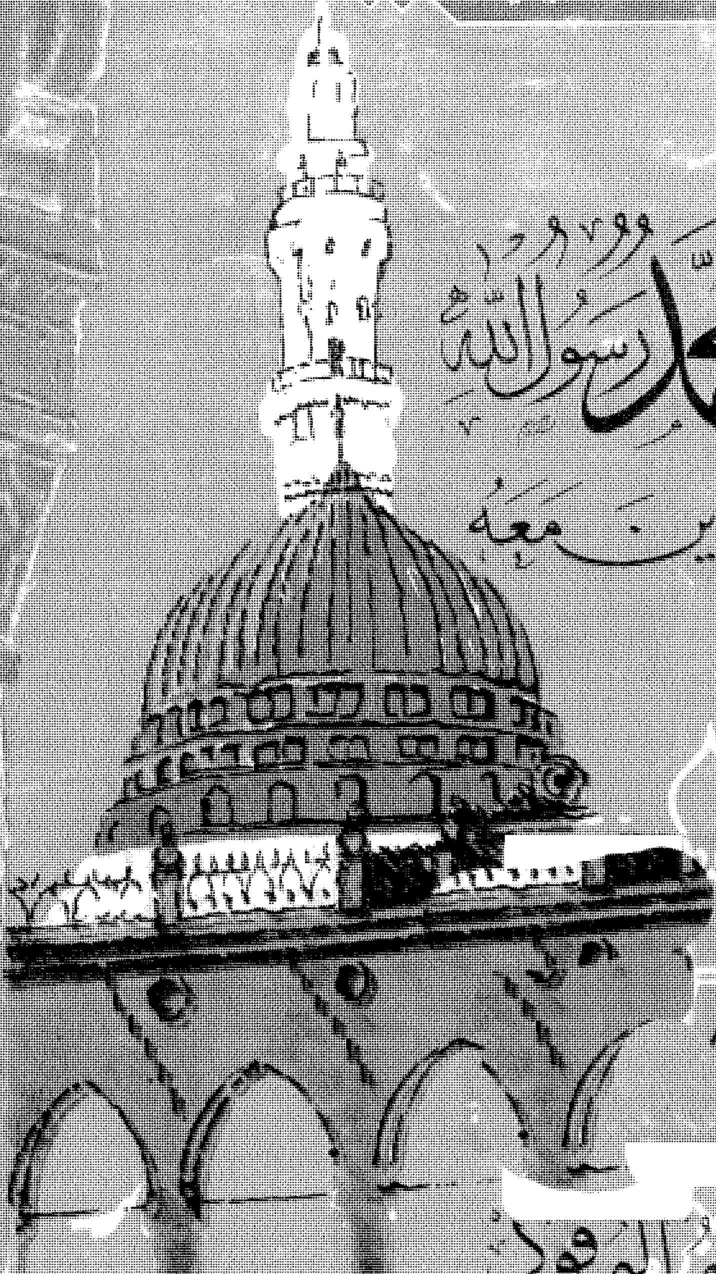
وكانت نجران من مخاليف اليمن اعتنق أهلها النصرانية فكان هواهم مع

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

٨

عام الوفود



عبد الحميد جودة السحار

السيرة النبوية

محمد رسول الله ﷺ والذين معه

عام الوفود

عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ .

(قرآن كريم)

الرومان ، وكانت أمنية اتصال نصارى الجنوب بنصارى الشمال أشد أمانيهم . فلما بعث الله محمدا — ﷺ — لهداية البشر وبلغت أنباء رسالته نجران ، شد بعض رهبانها الذين يبغون وجه الله الرحال إلى مكة وآمنوا بالنبى الأمى الذى بشرت به الأنبياء ، واستكبر الذين يريدون الدنيا وزينتها فوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وأعرضوا عن الحق المبين .

وهاجر المسلمون إلى يثرب ، وعلا شأن الإسلام فى مدينة الرسول وتوالت انتصاراته حتى أشرق نوره على مكة وعاد البيت العتيق ليكون مرة ثانية منارة التوحيد ، فخشى رهبان نجران أن يبهر نوره أهل اليمن وأن يجتث سلطانهم من القلوب ، فخرج وفد نصارى نجران — ستون راكبا — فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، فى الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم : العاقب أمير وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح ، والسيد الذى يقصدون إليه ويقوم بأمورهم ومشورتهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم .

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم .

وانساب الركب فى الكون وأبو حارثة يفكر فى أمره : إنه فريسة لذلك الصراع الذى نشب بين جنبيه فهو لا يدرى ماذا يفعل لو أن الحقيقة قد انبلجت لعين بصيرته وثبت له أن محمد بن عبد الله هو النبى الذى كانوا ينتظرونه ، الفراقليط الذى بشر به عيسى عليه السلام . أيدخل فى دين

الإسلام ويتنكر لما فعل له أباطرة الروم من تشريف ويقطع سيل المال الذى يتدفق عليه من الشام ومن القسطنطينية ويعرض عن جاه الدنيا وعن السلطان ؟!

وقام فى نفوس القوم حوار كان كل منهم يناجى نفسه يتخيل أنه أمام رسول الله — ﷺ — يحاوره يلقى السؤال ثم يتلقى ما يمده به عقله من جواب ليبنى عليه سؤالا آخر . واستمر القلق يساور الركب حتى لاحت مدينة الرسول لأعين الذين جاءوا للمناظرة فخفقت أفئدتهم رهبة فى صدورهم فقد أحسوا ثقل ما أقدموا عليه ، فإن هى إلا مرحلة حتى يصبحوا أمام الرجل الذى سحر ببيانه الأوس والخزرج ففتحوا له أبواب مدينتهم طائعين .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالعصر ، فألقوا إليه السمع فإذا بالصوت الأخاذ يهز المشاعر ويربط الأرض بالسماء ، وخشوا أن يعبث النداء بأوتار قلوبهم فراحوا يتناجون ويرفعون الأصوات ليشغلوا أنفسهم عن الحق المبين ، فما جاءوا للتصديق بل جاءوا ليحادوا الله ورسوله « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . »(١) .

ودخلوا على رسول الله — ﷺ — مسجده حين صلى العصر . عليهم ثياب الحِبَرات جبب وأردية ، عليهم مهابة وجلال وفى وجوههم جمال يأخذ بالألباب ، وألقوا على المسلمين نظرة استعلاء وودوا أن يعلنوا على الملأ أن لهم صلاتهم ، فقاموا فى مسجد رسول الله — ﷺ — يصلون ، فإذا بأصوات استنكار تنبعث من بعض المسلمين فقال رسول الله — ﷺ — :

— دعوهم .

---

(١) سورة المجادلة الآية (٢٠) .

فصلوا إلى المشرق والناس ينظرون ، وأعطى رسول الإسلام صورة حية لسماحة الإسلام ورحابة أفق الدين الجديد .

ثم أتوا النبى — صلى الله عليه وسلم — فأعرض عنهم و لم يكلمهم ، فقال لهم عثمان :

— ذلك من أجل زيكم هذا .

فانصرفوا يومهم ذلك ثم غدوا عليه بزى الرهبان ، فسلموا عليه فرد عليهم ، فتكلم منهم : أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد وكانوا يدينون بالنصرانية وإن كان لكل منهم مذهب ، فمنهم من يعتقد أن المسيح هو الله ، ومنهم من يقول ولد الله . ومنهم من يؤمن أنه ثالث ثلاثة .

كان حجة القائلين بأنه الله أنه كان يحيى الموتى ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا . وحجة القائلين بأنه ولد الله أنه لم يكن له أب يعلم وقد تكلم فى المهد وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله . وحجة القائلين بأنه ثالث ثلاثة قول الله تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا . فلو كان واحدا ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم .

لو كانوا وحدهم لتنازعوا ولظهرت الفروق بين المعتقدين بوحدة الطبيعة والمعتقدين بوحدة الإرادة والقائلين باللاهوت والناسوت ، ولكنهم كانوا أمام خصم قوى الحجة واضح البيان فكتموا ما بينهم إلى حين .

كان أبو حارثة بن علقمة أكثر وفد نجران قلقا . إنه يعلم أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — هو النبى الذى ينتظرونه ، ولكنه كان يخشى أن يعلن إسلامه حتى لا ينزع منه قيصر ما شرفه به وما أمده من مال فآثر أن يصمت . وتكلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

— أسلما .

— قد أسلمنا قبلك .

— كذبتما . منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير .

— إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه ؟

وخاصموه جميعا فى عيسى ، فقال لهما النبى — ﷺ :

— ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه ؟

— بلى .

— ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء ؟

— بلى .

— ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يحفظه ويرزقه ؟

— بلى .

— فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟

— لا .

— فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء ، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ؟

— بلى .

— ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث ؟

— بلى .

— فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

— إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه ؟

فأنزل الله تعالى : « الم . الله لا إلـٰه إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب

بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان.إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إلـٰه إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد . إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب . قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار . شهد الله أنه لا إلـٰه إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إلـٰه إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا

الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعَن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد . إن الذينَ يكفرون بآيات الله ويقتلونَ النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب إليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون . فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلَمون . قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب . لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما علمت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد . قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين . إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت

السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرحيم . فتقبلها ربُّها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار . وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمُه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكن من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوارة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى

منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إلـه إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين . قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولَى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين . ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يأهل الكتاب لم تلبسون الحق

بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون . »(١) .

وصمت رسول الله — ﷺ — فإذا بوفد نجران يرنون إليه مذهولين ، إنه ألزمهم الحجة فخلق آدم من تراب أعجب من خلق عيسى من غير ذكر . إنه قص عليهم من أنباء الغيب أشياء غابت عن علمهم فتقاصرت أنفسهم ، إنه دعاهم إلى الملاعنة فوجلت قلوبهم وقالوا :

— يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١ — ٨٠) .

إليه .

فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب صاحب رأيهم فقالوا :

ـــ يا عبد المسيح ما ترى ؟

ـــ والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبى مرسل ، لقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

جاءوا ليناظروا رسول الله ـــ ﷺ ـــ وليقولوا له إنهم قد أسلموا قبله ، فلما ألقوا السمع إلى آيات الله البينات تزعزعت عقيدتهم ، ولولا أنه من الصعب أن يفارقوا دينهم بين عشية وضحاها لاتبعوا النور المبين « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . »[١] .

وأتوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقالوا :

ـــ يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، فاحكم علينا بما أحببت نُعطك ونصالحك .

فصالحهم على ألفى حلة : ألف فى شهر رجب وألف فى صفر أو قيمة كل حلة من الأوانى ، وعلى عارية ثلاثين درعا وثلاثين رمحا وثلاثين بعيرا وثلاثين فرسا إن كان باليمن كيد ، ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملّتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم ، لا يغير أسقف من سقيفاه ولا راهب من رهبانيته ولا واقف[٢] من

---

(١) النور ٤٠

(٢) واقف : خادم البيعة .

وقفانيته .

وأشهد على ذلك شهودا منهم أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس والمغيرة بن شعبة . وخرجوا إلى بلادهم وجلس أبو حارثة على بغلة له وإلى جنبه أخ له يقال له كوز بن علقمة ، فعثرت بغلة أبى حارثة فقال كوز :

— تعس الأبعد !

يريد رسول الله — ﷺ ، فقال له أبو حارثة :

— بل أنت تَعَسْت !

— ولم يا أخى ؟

— والله إنه للنبى الذى كنا ننتظره .

— ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟

— ما صنع بنا هؤلاء القوم . شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .

وعلم كوز أن أخاه يؤثر رضى قيصر على رضى الله فلوى عنق ناقته وانطلق إلى مدينة الرسول ليؤمن بالله ورسوله والنور الذى أنزله الله هدى للناس ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

٢

أنفاس المدينة تسبيح وخفق فؤادها ابتهالات لرب العالمين ، والليل ساج بهيم غير أن قلوب المؤمنين قد استنارت بأنوار اليقين ، والسكون موحش ولكن عباد الرحمن قد أطمأنت نفوسهم بالأنس بالله الرحيم . وشرح صدورهم للإسلام فهم على نور من ربهم ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين .

وعلا بلال مسجد الرسول وراح يرصد الأفق الشرقى ولسانه رطب بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . حتى إذا ما تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ارتفع صوته بالأذان فخرج الناس إلى المسجد يرن فى ضمائرهم قول رسول الله ــ ﷺ : « بشر المشائين فى الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء . أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة . يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة . قد طهروا ظاهرهم عن الأخباث والأحداث وطهروا سرائرهم عما سوى الله ، فالطهور مفتاح الصلاة والله يحب المتطهرين .

وقام المسلمون للصلاة خلف رسول الله ــ ﷺ ــ فراحوا يناجون الله خاشعين غير غافلين . متضرعين يلتمسون منه أن يهديهم الصراط المستقيم ، يعظمونه غاية التعظيم ، يحبونه ويخشونه قد نزلت بأفئدتهم هيبة من إجلاله وجلاله ، يرجون مثوبته وغفرانه ، قد طأطئوا الرءوس حياء منه فقد عرفوا سر الصلاة .

وقضيت الصلاة فجلس رسول الله — ﷺ — فالتفوا حوله وألقوا إليه سمعهم لينهلوا من ينابيع الحكمة وليهتدوا بمصابيح الهدى ، فقد عرفوا شرف العلم وفضله ونبله بعد أن قرءوا فى القرآن المجيد : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(١) . بعد أن سمعوا قول رسول الله — ﷺ : « إذا أتى علىَّ يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عزَّ وجل فلا بورك فى طلوع شمس ذلك اليوم » .

علموا أن الناس العلماء ، وأن الزهاد هم الملوك . وأن السفلة هم الذين يأكلون الدنيا بالدين ، وأن الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء ، فعكفوا على تحصيل العلم ، وعلى اقتناء الأشياء التى إذا غرقت سفينتهم سبحت معهم ، فطهرت نفوسهم عن رذائل الأخلاق ، إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وعمارة الفؤاد .

وسمعوا من رسول الله — ﷺ — أن طلب العلم فريضة على كل مسلم فهرعوا إلى حلقات الدرس ، فالغدو إلى طلب العلم جهاد ، فلم يسكت الجاهل على جهله بعد أن عرفه أن بابا من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها .

وجعل رسول الله — ﷺ — يفقههم فى أمر دينهم . إنه يسلك بهم طريق الرحمة ويرشدهم إلى سبل الرشاد ، فهو لهم مثل الوالد لولده بل هو أرأف بهم من آبائهم ، فالآباء يبعدون الأبناء عن نار الدنيا وهو يجاهد لينقذ الآباء والأبناء من نار الآخرة : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا

---

(١) سورة الزمر الآية (٩) .

إلا متاع الغرور . »(١).

وصمت عليه السلام لحظة ثم قال :

— والعلم خزائن مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا .

وتدفقت الأسئلة ورسول الله — ﷺ — يجيب السائلين فى رفق ويلجأ أحيانا إلى التلميح لا التصريح ، فالتصريح يهتك حجاب الهيبة ، ولو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شىء . واستمر الحوار بين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وبين أصحابه ثم قال :

— إن لهذا العلم ثمنا .

— وما هو ؟

— أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه .

كان أصحابه يسألونه فى المسجد وفى السوق وفى السفر وفى الحضر ، سألوه :

— ما الإسلام ؟

فقال عليه السلام :

— أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك .

— فأى الإسلام أفضل ؟

— الإيمان .

وجاء رجل فقعد بين يديه — ﷺ — فقال :

— إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٨٥) .

فقال — ﷺ :

— إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان بقدر ذنوبهم اقتص لهم منك للفضل .

فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكى ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— أما تقرأ قول الله : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين . »(١) .

— يا رسول الله ما أجد لى ولهؤلاء خيرا من مفارقتهم . أشهدك أنهم كلهم أحرار .

وكانت نساؤه يسألنه فى أمور الدنيا والدين . سألته عائشة ذات يوم :

— بم يا رسول الله يتفاضل الناس فى الدنيا ؟

— بالعقل .

— وفى الآخرة ؟

— بالعقل .

— أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟

— يا عائشة ، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل ؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون .

كان عليه السلام يحترم العقل آية الله فى خلقه ، وكان يقول :

— ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى الهدى ويرده عن الردى .

وكان يقول :

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٤٧) .

ـ نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم .

العقل هو صرح الدين ، وهو منارة المؤمن والأمانة التى حملها الإنسان ، لكل شىء آلة وعدة ، وإن آلة المؤمن العقل . ولكل شىء مطية ، ومطية المرء العقل ، ولكل شىء دعامة ، ودعامة الدين العقل ، ولكل قوم غاية ، وغاية العباد العقل . ولكل قوم داع ، وداعى العابدين العقل . ولكل تاجر بضاعة ، وبضاعة المجتهدين العقل . ولكل أهل بيت قيم ، وقيم بيوت الصديقين العقل ، ولكل خراب عمارة ، وعمارة الآخرة العقل . ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به ، وعقب الصديقين الذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل . ولكل سفر فسطاط ، وفسطاط المؤمنين العقل .

وقال عليه السلام لأبى الدرداء :

ـ ازدد عقلا تزدد من ربك قربا .

ـ بأبى أنت وأمى وكيف لى بذلك ؟

ـ اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا ، واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل فى آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز .

ودخل عمر وأبىّ بن كعب وأبو هريرة عليه ـ ﷺ ـ فقالوا :

ـ يا رسول الله من أعلم الناس ؟

ـ العاقل .

ـ فمن أعبد الناس ؟

ـ العاقل .

ـ فمن أفضل الناس ؟

ـ العاقل .

ـــ أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته ؟

ـــ وإن كل ذلك لمن متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين . إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسا ذليلا .

كانوا قبل مبعثه عليه السلام يعبدون الأصنام ، وقد أنكر بعضهم الخالق والبعث والإعادة وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، ولم ينطروا فى ملكوت السموات والأرض . وأقر بعضهم بالخالق وأنكروا البعث والإعادة ، وأقر بعضهم بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا .

ومنهم من كان يعتقد التناسخ فيقول إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيرا « هامة » فيرجع إلى رأس القمر كل مائة سنة . ومنهم من أنكر بعث الرسل فى الصورة البشرية ، فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتى ملك من السماء ، ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة لنا إلى الله تعالى هم الأصنام ، فعبدت كلب ودا بدومة الجندل ، وعبدت هذيل سواعا كانو يحجون إليه وينحرون له ، وعبدت مذحج وبعض قبائل اليمن يغوث ، وكان يعوق لهمدان ، ونسر لذى الكلاع بأرض حمير ، واللات لثقيف بالطائف ، والعزى لقريش وجميع بنى كنانة وقوم من بنى سُليم ، ومناة للأوس والخزرج وغسان ، وهبل أعظم الأصنام عندهم وكان على ظهر الكعبة .

ومن العرب من كان يميل إلى اليهودية ومنهم من كان يميل إلى النصرانية

ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنواء اعتقاد المنجمين فى السيارات ، حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء . ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل كانوا يعبدون الجن ويعتقدون أنهم بنات الله .

كانت قلوبهم شتى قد تعلقت بأوهام وما كانت عندهم فكرة صائبة عن ذات الله ، فلما جاء — صلوات الله وسلامه عليه — بالإسلام وألقى الله فى صدور المسلمين الإيمان . إذا برعاة الإبل قد أوتوا العلم وعملوا به وأصبحوا عظماء فى ملكوت الله .

علموا فى بضع سنين « أن الله ذو الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ، وأنه المنفرد بالخلق ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى فى الأرض والسماوات ، لا يعزب عن عمله مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذرات فى الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال .

وأنه تعالى مريد للكائنات ، مدبر للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، إلا بقضائه وقدره ، وحكمته ومشيئته . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدئ المعيد ، الفعال لما

يريد ، لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته . فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك ، وإن إرادته قائمة بذاته ، فى جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بها مريدا فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها ، فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن .

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق ، ولا يحجبُ سمعه بُعد ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان . كما يعلم من غير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

وأنه تعالى متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع باطباق شفة أو تحريك لسان . وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق . وأن موسى ــ صلى الله عليه وسلم ــ سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر وعرض .

وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم فى أفعاله، عادل فى أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى ، فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما. فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان ، وسماء وأرض وحيوان ونبات ، وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس، حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا ، وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا ، إذ كان فى الأزل موجودا وحده و لم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته ، وتحقيقا لما سبق من إرادته ، ولما حق فى الأزل من كلمته ، لا لافتقاره إليه وحاجته ، وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطوع بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان ، والنعمة والامتنان ، أن كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب . ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ، و لم يكن منه قبيحا ولا ظلما ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق واللزوم له ، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق . وإن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل . ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به »(١) .

وبزغت الشمس فى الأفق ورسول الله — ﷺ — يبنى نفوس أصحابه

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى .

ويغرس فيهم وحدة الأمة « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »(١) . والمساواة بين الناس « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٢) . ووحدة الدين « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »(٣) . ووحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فى الحقوق المدنية والتأديبية وبالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والغنى والفقير ، والحاكم والمحكوم « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(٤) . « ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى »(٥) . « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . »(٦) .

وكان — ﷺ — يقول لأبى هريرة : عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها ، ويا أبا هريرة جور ساعة فى حكم أشد وأعظم عند الله عز وجل من معاصى ستين سنة .

وكان فى أصحابه عليه السلام الحبشى والفارسى والرومى ، فراح يؤكد أنهم عرب ما دام اللسان عربيا ، ويؤكد الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين فى أخوته الروحية . « يأيها الناس إن الرب واحد والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » .

كان يؤدبهم ويقوى نفوسهم ليعدهم لحمل رسالة الله إلى أقصى الأرض ، فكان يعلمهم أن لا سيطرة على روح الإنسان وعقله وضميره لأحد من خلق

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٩٢) .
(٢) سورة الحجرات الآية (١٣) .
(٣) الأعراف الآية (١٥٨) .
(٤) سورة النساء الآية (٥٨) .
(٥) سورة المائدة الآية (٨) .
(٦) سورة النساء الآية (١٢٥) .

الله : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »[١] . وأن يستجيبوا للحجة والبرهان : « ومن يدع مع الله إلـٰها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون . »[٢] . « ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون . »[٣] .

وارتفعت الشمس فقام المسلمون لينتشروا فى الأرض وليبتغوا من فضل الله ، فقد علمهم الإسلام أن العمل عبادة وأن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن الساعة إذا قامت وفى يد أحدكم عمل فليتمه وله بذلك أجر . وأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ، وأن العلم وحده لا ثمرة له إلا بالعمل ، وأن العمل لا يزهو إلا بالإخلاص : « الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون » .

إنهم فى الأسواق يستقبلون الناس بوجه طلق ، فقد غرس فى وجدانهم أن لقاء الناس بالابتسام صدقة ، وأن المعروف مهما قل زينة للمؤمن ، فكانوا حريصين على بذل المعروف ، فرسول الله ـــ ﷺ ـــ معلمهم الأكبر يقول : « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » ، ويقول : « أيها الناس مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم ، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم . إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يدفع رزقا ولا يقرب أجلا ، وإن الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ثم عموا بالبلاء » .

ولقد أرهفت ضمائرهم حتى إنهم كانوا يخشون أن يخلطوا عملا صالحا بعمل غير صالح فكانوا يتركون ما فيه شبهة طلبا للنجاة ، فإذا كان فى السلعة

---

(١) سورة الروم الآية (٣٠) . (٢) سورة المؤمنون الآية (١١٧) .
(٣) سورة القصص الآية (٧٥) .

عيب أظهروه خوفا أن يأكلوا أموال الناس بالباطل ، وكانوا يعرضون عن الغش فرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يقول : « من غش أمتى فليس منى » . ويقول : البيّعان بالخيار ما لم يفترقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

ولم يحاول أحدهم أن يحتكر أقوات الناس ليجنى الربح الوفير ، فالدين الذى اعتنقه يحرم الاحتكار . فالمعلم الأكبر عليه الصلاة والسلام يقول : « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه » ويقول : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » . ويقول « بئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح». ورفرفت الأمانة على المجتمع فقد كانوا مؤمنين حقا ، فالمؤمن من أمنه المسلمون على دمائهم وأموالهم ، وعلموا أن الأعمال بالنيات فقد قال لهم ذات يوم رسول الله — ﷺ : « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق ، لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون : .. تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغنى . فأُتى(١) فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله . أما صدقتك فقد تقبلت » .

---

(١) أتاه آت فى المنام .

كانوا فى أعماق نفوسهم يطلبون الحلال فطلب الحلال فريضة على كل مسلم ، وكانوا يسعون على عيالهم يطلبون الدنيا حلالا فى عفاف فقد لقنوا أن خير دينهم الورع وأن ورع المتقين أن يدع المرء ما لا بأس به مخافة ما به بأس . فكانوا يدعون تسعة أعشار الحلال مخافة أن يقعوا فى الحرام ، فإن من تمام التقوى أن يتقى المرء فى مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما . فالمعلم الأكبر عليه السلام يقول لهم : « الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه . ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

وكانوا غلاظ الأكباد قبل أن ينير الله قلوبهم بأنوار اليقين ، فلما شرح الله صدورهم للإسلام وزينهم بحسن الخلق تحابوا فى الله وأتلفوا ، فقد سمعوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق . وقالوا له : يا رسول الله ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فقال : خلق حسن .

إنه صلوات الله وسلامه عليه لا يفتأ يذكر حسن الخلق ، فقال عليه السلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وقال لأبى هريرة : « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق . قال أبو هريرة : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك » .

كانت الرابطة بينهم هى التقوى والدين وحب الله ، فحسنت الألفة وانقطعت الوحشة . فالمؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف . وكان عليه السلام يرغبهم فى الحب فى الله فقال : « ما تحاب اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه » . فكانوا يتحابون فى الله ويبغضون فى الله ، وهذا أوثق عرى الإيمان .

عرفوا حقوق الأخوة والصحبة حتى إن أحدهم كان يشق إزاره بينه وبين أخيه ، وقد جاء إلى أبى هريرة وقال :

ـــ إنى أريد أن أؤاخيك فى الله .

ـــ أتدرى ما حق الإخاء ؟

ـــ عرفنى .

ـــ أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك منى .

ـــ لم أبلغ هذه المنزلة بعد .

وخرج رسول الله ذات يوم إلى بئر يغتسل عندها فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل فتناول رسول الله ـــ ﷺ ـــ الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال :

ـــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله لا تفعل .

فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل ، وقال ـــ ﷺ :

ـــ ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه .

وكان لهم فى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أسوة حسنة ، فهو يسلم على من يلقاه ويجيب من دعاه ويعود المريض ويشهد الجنازات ويحب للناس ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه ، ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر » .

وقال أبو هريرة لرسول الله ـــ ﷺ :

ـــ علمنى شيئا أنتفع به .

ـــ اعزل الأذى عن طريق المسلمين .

كان عليه الصلاة والسلام يعمل على إرهاف حس المسلمين الدينى ، ففى

ذلك الإرهاف السعادة والأمن والطمأنينة والأنشراح ، وقد بلغ فى ذلك الغاية التى ما بعدها غاية ، إنه يقول لهم :

ـــ إنه لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه .

ويقول :

ـــ لا يحل لمسلم أن يروع مسلما .

ويقول :

ـــ إن الله يكره أذى المؤمنين .

وكان عليه السلام يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ، فكانت شيمة أصحابه التواضع فالله لا يحب كل مختال فخور . وكانوا يصنعون المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن أصابوا أهله فهم أهله وإن لم يصيبوا أهله فهم من أهله ، فرأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر .

كانوا متواضعين ينفقون مما رزقهم الله فى غير معصية ، قد طهروا سرائرهم وزكوا علانيتهم استجابة لتعاليم نبيهم قدوتهم وأسوتهم وإمامهم ، فقد قال لهم : « طوبى لمن تواضع فى غير منقصة ، وذل فى نفسه من غير مسألة ، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة . طوبى لمن طاب كسبه ، طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله » .

إن عبد الله بن سلام يمر فى السوق وعليه حزمة من حطب ، فقيل له :

ـــ ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا ؟

ـــ أردت أن أدفع الكبر . سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول : « لا يدخل الجنة من فى قلبه خردلة من كبر » .

كانوا يعملون ويتقنون أعمالهم ، ولكنهم ما كانوا يتعجلون الرزق ولا يطلبونه بمعاصى الله ، فقد علمهم معلمهم الأكبر ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ أن أرزاقهم مقدرة ، يصيبهم ما قدر لهم ويفوتهم ما لم يقدر لهم ، وقد قال لهم : ليس من شيء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا قد أمرتكم به ، وليس شيء يقربكم إلى النار ويباعدكم عن الجنة إلا نهيتكم عنه . وإن الروح الأمين نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ، ألا فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصى الله ، فإنه لا يدرك ما عنده إلا بطاعته » .

كانوا يعملون ابتغاء مرضاة الله فالعمل فريضة على كل مسلم . وقد علمهم معلمهم الأكبر عليه السلام الزهادة فى الدنيا فقال : « الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك أوثق بما فى يدى الله ، وأن تكون فى ثواب المعصية إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك » .

وقال ـــ ﷺ : « إياكم والطمع فإنه هو الفقر الحاضر » .

وأصبحت قلوب أصحابه تفيض رحمة على الصبيان ، فهم يرون معلمهم الأكبر ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ يسبغ عطفه عليهم ويغمرهم بحنانه ويتلطف بهم . فمن عادته عليه السلام عندما يقدم من السفر أن يتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه ، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض :

ـــ حملنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بين يديه وحملك أنت وراءه .

وكان يؤتى بالصبى الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه فى

حجره ، فربما بال الصبى فيصيح به بعض من يراه فيقول :

— لا تزرموا الصبى بوله .

فيدعه حتى يقضى بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ، ويبلغ مسرور أهله فيه لئلا يروا أنه تأذى ببوله ، فإذا انصرفوا غسل ثوبة بعده .

وكان عليه السلام يحذر أتباعه الغيبة والتجسس وتتبع عورات المسلمين فيقول :

— يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان فى قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته .

وكان يحببهم فى إصلاح ذات البين بين الناس حتى إنه ذهب إلى تحسين الكذب إذا كان فيه الإصلاح بين الناس . فعليه الصلاة والسلام يقول :

— كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فإن الحرب خدعة ، أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما ، أو يكذب لامرأته ليرضيها .

ويقول عليه السلام :

— ليس بكذاب من أصلح بين اثنين .

وقد وعى أبو بكر الصديق الدرس فقال :

— لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ، ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله .

وكان ينهاهم عن النميمة والتفريق بين الأحبة وأكل لحم الناس وإيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فكان يقول لهم :

— ألا أنبئكم بشراركم ؟

— بلى إن شئت يا رسول الله .

— الذى ينزل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده[١] ، أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟

— بلى إن شئت يا رسول الله .

— من يبغض الناس ويبغضونه . أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟

— بلى يا رسول الله .

— الذين لا يقيلون عثرة ، ولا يقبلون معذرة ، ولا يغفرون ذنبا . أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟

— بلى يا رسول الله .

— الذى لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره .

وكان — عليه صلوات الله وسلامه — يجاهد لتكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتعاونون على البر والتقوى . وكان لهم فيه أسوة حسنة قد أدبه ربه بالقرآن بمثل قوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[٢] . وقوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى[٣] » . وقوله : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور .[٤] » . وقوله : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور .[٥] » . وقوله : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين .[٦] » . وقوله : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم .[٧] » . وقوله : « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى

---

(١) المدد .
(٢) الأعراف ١٩٩ .
(٣) النحل ٩٠ .
(٤) لقمان ١٧ .
(٥) الشورى ٤٣ .
(٦) المائدة ١٣ .
(٧) النور ٢٢

بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم .[١] » . وقوله : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين .[٢] » . وقوله : « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا[٣] » . ثم منه أشرق النور على العالمين .

إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، فكان كنه المسلمين حسن المعاشرة وكرم الصنيعة . ولين الجانب وبذل المعروف ، وإطعام الطعام وإفشاء السلام ، وحسن الجوار والعفو والإصلاح بين الناس ، والجود والكرم والسماحة ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس . واتقاء الله وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ، وحفظ الجار ورحمة اليتيم ، وحسن العمل وقصر الأمل .

كانوا فى الأسواق يتاجرون فقد أحل الله التجارة . وقال — ﷺ : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » . فكان يشغلهم صفق فى الأسواق يتبايعون ويتجرون ، ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله . وكانوا ينفقون من طيبات ما كسبوا ويصلون أرحامهم ابتغاء مرضاة الله .

وكانت السهولة طابعهم إذا باعوا وإذا اشتروا وإذا اقتضوا ، وكانوا يتجاوزون عن المعسرين لعل الله يتجاوز عنهم . وما كانوا يبيعون سلعة بها داء إلا أخبروا عن العيب ، وما كانوا يحاولون ستره فقد وقر فى وجدانهم أن ربهم يعلم السر وأخفى . وقد قال لهم معلمهم الأكبر — صلوات الله وسلامه

---

(١) فصلت ٣٤ .
(٢) آل عمران ١٣٤ .
(٣) سورة الحجرات ١٢ .

عليه : « البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

وكانوا لا يروجون سلعهم بالحلف بالله خشية أن يقعوا فى مكروه ، فالله تعالى يقول : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .(١) » .

وكانوا يتلقون القوافل القادمة فيشترون منهم قبل أن يصلوا إلى السوق ، بينا كان هناك إخوان لهم ينتظرون فى السوق وصول الطعام فكان ذلك الفعل يفوت عليهم حصولهم على أقواتهم . فنهى النبى — ﷺ — عن لقاء السلع حتى يُهبط بها فى الأسواق ، ونهى عن بيع الطعام حتى يبلغ به سوق الطعام ؛ فقد كان — صلوات الله وسلامه عليه — رءوفا بالمسلمين يحب أن يسوى بين القادرين والعاجزين ، وأن يضمن عدالة التوزيع وتكافؤ الفرص للجميع .

كانوا قد لقنوا أن المال مال الله يعطيه لمن يشاء بحقه ، وحق المال زكاته . فكانوا يجمعون الذهب والفضة ولا يكنزونها بل ينفقونها فى سبيل الله . وقد أتى رجل من بنى تميم رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل وحاضرة . فأُخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق .

— تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والسائل .

وعرفوا أن المال الذى أخرج منه الزكاة لا يعد كنزا وإن كان كثيرا ، إنما

---

(١) آل عمران ٧٧ .

الكنز ما لم تخرج منه الزكاة . فرسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يقول : « كل مال وإن كان تحت سبع أرضين تؤدى زكاته فليس بكنز ، وكل مال لا تؤدى زكاته وإن كان ظاهرا فهو كنز » .

ولم يقف جودهم عند الزكاة بل كانوا ينفقون على الفقراء والمحتاجين مما رزقهم الله . فالله تعالى يقول : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .(١) » . وقد بلغ ببعضهم أن نزلوا عن جميع أموالهم لكيلا يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة(٢) » .

ونجح الإسلام بفرض الزكاة على القادرين فى أن يحبب الأغنياء فى الفقراء وأن يحبب الفقراء فى الأغنياء ، فلا حقد ولا كراهية ولا صراع ولا حمامات من الدماء بل إخوة متحابون ، فالله تعالى يأمر الأغنياء بأن يأتوا إخوانهم الفقراء من ماله : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم(٣) » . وجعل الله للسائل والمحروم حقا فى أموال الأغنياء : « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم(٤) » . وجعل إنفاق المال على الفقراء قربى إليه : وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين(٥) » . وحبب فى إعطاء الصدقة سرا : « وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم(٦) . ونهى عن المن والأذى : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس(٧) » .

الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال ، فالإسلام لا يرفع المال فوق قدرة

---

(١) الحشر ٩ .
(٢) التوبة ١١١ .
(٣) النور ٣٣ .
(٤) المعارج ٢٤ ، ٢٥ .
(٥) البقرة ١٧٧ .
(٦) البقرة ٢٧١ .
(٧) البقرة ٢٦٤ .

فهو وسيلة لتحقيق خير الناس جميعا ، حرام كنزه وتعطيله عن تأدية وظيفته حلال إنفاقه فى سبيل الله : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لم يشاء والله واسع عليم .[١] » .

والمال فتنة واختبار ، فقد يزيد صاحبه فضلا وقد يزيده خسارة وهو لا يغنى عنه إذا تردى : « أيحسبون أنما نمدهم به مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون[٢] » .

ويسخر الإسلام تجارة الدنيا لتجارة الآخرة فينبغى أن يراد بكل الأعمال وجه الله : السعى والكسب والإنفاق ، ولا ينبغى شراء الحياة الدنيا بالآخرة ، ولا الرضا ولا الاطمئنان ولا الفرح بها : « واعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى لآخرة عذاب شديد ومغفرة ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .[٣] » .

والأموال وحدها لا تقرب إلى الله زلفى : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف

---

(١) البقرة ٢٦١ .

(٢) المؤمنون ٥٥ — ٦١ .

(٣) الحديد ٢٠ .

بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون .(١) » . فلا ينبغى أن تشغل الأموال المسلمين عن صالح الأعمال ، بل عليهم ألا يكون كل همهم عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، و « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا(٢) ». « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم .(٣) » .

و لم يعد للأموال فى الإسلام وظيفة اقتصادية فحسب بل أصبح لها وظيفة اجتماعية فى المقام الأول . لذلك اهتم الإسلام بإعادة توزيع الأموال حتى لا تتكدس فى أيدى فئة قليلة فتنحرف عن طريق استخدامها الصحيح : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب(٤) » .

كان عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد والعباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وكبار المهاجرين والأنصار مشغولين بالصفق فى الأسواق . فالله تعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا .(٥) » .

وقال ـــ صلوات الله وسلامه عليه : « أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » .

---

(١) سبأ ٣٧ .
(٢) آل عمران ١١٦ .
(٣) الشعراء ٨٨ ، ٨٩ .
(٤) الحشر ٧ .
(٥) النساء ٢٩ ، ٣٠ .

كانوا يعلمون أن طلب الحلال واجب على كل مسلم وأن التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء ، فكانوا يجتهدون فى العمل ويخشون أن يكون فيما يحصلون عليه من أموال ما لم يبحه الشرع ، فكانوا يتحررون من شبهة الحرام ويخشون أن يكونوا ممن قال فيهم معلمهم الأمين — ﷺ : « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام ، لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه » .

وكانوا يعلمون أنهم محاسبون ، وأن كل امرئ سيسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه . وقد غرس فى وجدانهم أن من اكتسب مالا من غير حله وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان ، وأن الناس غاديان يسعيان فغاد فى فكاك نفسه فمعتقها وغاد مهلكها ، وإنه لا يدخل الجنة جسد غذى بحرام .

وكانوا يؤدون الأمانات إلى أهلها فلا يطففون فى المكيال فالكيل أمانة ، ولا فى الميزان فالوزن أمانة . ولا يشدون أيديهم فى الذرع وقت البيع ولا يرخونها وقت الشراء . ولا يغشون ، فقد مر رسول الله — ﷺ على صبرة طعام (كومة طعام) فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال :

— ما هذا يا صاحب الطعام ؟

— أصابته السماء يا رسول الله .

— أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟! من غشنا فليس منا .

وكانوا لا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فالحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

* * *

وغابت الشمس فى الأفق الغربى فغدا المسلمون من الأسواق ومن الحقول

إلى دورهم لا يلقون أحدا إلا ألقوا عليه السلام ، فقد قال لهم — صلوات الله وسلامه عليه : « أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

وساروا وقد تسربلوا بالتواضع وتزينوا بمكارم الأخلاق وقد وقر فى ضمائرهم ذلك الحوار الذى دار بين عبد الله بن مسعود ورسول الله عليه الصلاة والسلام :

— إن الله عز وجل قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لا يُسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه .

— يا رسول الله وما بوائقه ؟

— غشه وظلمه ، ولا يكسب مالا من حرام فينفق منه فيبارك فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن .

وقال — ﷺ :

— والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن .

قيل :

— من يا رسول الله ؟

قال :

— الذى لا يأمن جاره بوائقه .

وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا

أو ليصمت » .

كانوا إن استعان بهم جيرانهم أعانوهم ، وإن استنصروهم نصروهم ، وإن استقرضوهم أقرضوهم ، وإن مرضوا زاروهم وإن أصابهم خير هنئوهم ، وإن أصابتهم مصيبة عزوهم ، وإن اشتروا فاكهة أهدوا لهم وإن لم يفعلوا أدخلوها سرا . ولا يؤذونهم بروائح قدورهم إلا أن يغرفوا لهم منها ، ويصفحون عن زلاتهم ، ولا يتطلعون إلى عوراتهم ، ويغضون أبصارهم عن حرماتهم .

وقال — ﷺ — لأصحابه :

— ما تقولون فى الزنا ؟

— حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة .

— لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره ... ما تقولون فى السرقة ؟

— حرمها الله ورسوله فهى حرام .

— لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره .

وأتى النبى — ﷺ — رجل فقال :

— يا رسول الله إنى نزلت بمحلة بنى فلان ، وإن أشدهم إلىّ أذى أقربهم لى جوارا .

فبعث رسول الله — ﷺ — أبا بكر وعمر وعليا يأتون المسجد فيقومون على بابه فيصيحون :

— ألا إن أربعين دارا جار ، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه .

وقال عليه السلام :

— من آذى جاره فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن حارب جاره

فقد حاربنى ومن حاربنى فقد حارب الله .

وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره ، فقال له النبى — ﷺ :

— اصبر .

ثم جاء إليه يشكو جاره فقال له :

— اصبر .

ثم جاء إليه يشكو جاره فقال له عليه السلام :

— اطرح متاعك فى الطريق .

فجعل الناس يمرون به ويقولون :

— مالك ؟

فيقال :

— آذاه جاره .

فجعلوا يقولون :

— لعنه الله .

فجاء الجار إلى النبى — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ما لقيت من الناس ؟

— وما لقيت منهم ؟

— يلعنوننى .

— قد لعنك الله قبل الناس .

— إنى لا أعود .

فجاء الذى شكاه إلى النبى — ﷺ — فقال له النبى :

— ارفع متاعك فقد كفيت .

وثبت فى القلوب أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام ،

فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة ؛ إذ قال ـــ صلوات الله وسلامه عليه : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق » فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ؛ وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ؛ وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك ، وإنها لسماحة ما بعدها سماحة أن يكون للمشرك حق الجوار .

وجاء رجل إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله اكسنى .

فأعرض عنه فقال :

ـــ يا رسول الله اكسنى .

ـــ أما لك جار له فضل ثوبين ؟

ـــ بلى غير واحد .

ـــ فلا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة .

وقالت عائشة رضى الله عنها :

ـــ يا رسول الله إن لى جارين ، إلى أيهما أهدى ؟

ـــ إلى أقربهما بابا منك .

وكان عليه السلام فى جمع من أصحابه فقال :

ـــ من يأخذ عنى هذه الكلمات فيعمل بهن أو يعلمّ من يعمل بهن ؟

فقال أبو هريرة :

ـــ أنا يا رسول الله .

فأخذ بيده وعد خمسا فقال :

ـــ اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ،

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

وليس حق الجوار كف الأذى فقط ، بل احتمال الأذى ، ولا يكفى احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف ، فلا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله . وقد قال — ﷺ :

— أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما .

وقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

وقال ﷺ :

— ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم .

وقال عليه السلام :

— ثلاثة من الفواقر : إمام إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر . وجار سوء إن رأى خيرا دفنه وإن رأى شرا أذاعه ، وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت عنها خانتك .

وقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه . وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره .

ودخلوا على نسائهم يتلطفون بهن ويحسنون إليهن فقد قال لهم معلمهم الأكبر عليه أزكى السلام :

— إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله .

وكانوا يرفقون بهن ولا يظلمونهن فرسول الله — ﷺ — قد أوصاهم بهن خيرا : « عليكم باللطف والرفق بنسائكم لا تظلموهن ولا تضيقوا عليهن ،

فإن الله عز وجل يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم » . « اتقوا الله فى النساء فإنهن أسرى فى أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، أوسعوا عليهن الكسوة والنفقة يوسع الله عليكم فى الرزق ويفسح لكم فى الأعمار ، كما تكونون يكون الله عليكم » .

وجاء معاوية بن حيدة إلى النبى — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟

— تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت .

وصارت النساء شقائق الرجال كما قال نبى الإسلام عليه السلام ، فقد قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة ، فأصبح لها حق الاحتفاظ بما تملك أو بيعه إن شاءت : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن(١) » . وأصبح لها حق الإرث : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون(٢) » .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى الرجال بإمساك النساء بمعروف أو تسريحهن بإحسان ، وأوجب على كل من الزوجين أن يؤدى إلى الآخر حقوقه بطيب نفس وانشراح صدر ، فإن للمرأة على الرجل حقا فى ماله وهو الصداق والنفقة بالمعروف . وقد قال — ﷺ : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها خدعها ، فمات و لم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان » . وحقا فى بدنه وهو العشرة والمتعة بحيث لو أقسم ألا يقربها استحقت الفرقة . فوطؤها واجب فقد قال النبى — ﷺ — لعبد الله بن عمرو لما رآه يكثر الصوم والصلاة :

— إن لزوجك عليك حقا .

تساوت المرأة مع الرجل فى الحرية المطلقة فى الكسب والاتجار وحيازة المال أو إهدائه لمن تشاء : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا[١] » . وتساوت معه فى الحقوق الدينية : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض[٢] » . وأصبحت أليفته ونده وسكنه فرفرفت السعادة الحقة على بيوت المسلمين .

وكانوا يصلون أرحامهم ، فالله سبحانه وتعالى يقول : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام [٣] » . وقال — ﷺ : « من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه » . فكانوا يحسنون إلى ذوى القربى لكيلا يلعنهم الله : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم [٤] » . وكانوا يتصدقون عليهم لقول رسول الله — ﷺ : « الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذوى الرحم اثنتان : صدقة وصلة » . وقال : « يا أمة محمد : والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم ، والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

وقال عبد الله بن أبى أوفى :

كنا جلوسا عند النبى — ﷺ — فقال : لا يجالسنا اليوم قاطع رحم . فقام فتى من الحلقة فأتى خالة له قد كان بينهما بعض الشىء فاستغفر لها

(١) سورة النساء الآية ٤

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٥

(٣) سورة النساء الآية ١

(٤) سورة محمد الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

واستغفرت له ثم عاد إلى المجلس : فقال النبى — ﷺ : إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم .

وكانوا يحسنون على الأرامل واليتامى ، فرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه يقول : « الساعى على الأرملة والمسكينة كالمجاهد فى سبيل الله » . ويقول : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » . وقال : « من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنات ، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين » . وفرج بين إصبعيه : السبابة والوسطى .

وقال — ﷺ : « والذى بعثنى بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له فى الكلام ورحم يتمه وضعفه ، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله » .

كانت الوفود تشد الرحال إلى المدينة ، وكان الرجال يلقون أسماعهم إلى رسول الله — ﷺ — فيأخذ بألبابهم سحر بيانه ، فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وأصبحت مكارم أخلاقه تمس شغاف قلوبهم وتأسر نفوسهم فهو على خلق عظيم ، بل أحسن الناس خلقا ، بالمؤمنين رءوف رحيم . وكانوا يقلبون وجوههم فى المجتمع الجديد الذى صاغه الإسلام وهم يعجبون ، فالأوس والخزرج الذين كانوا بالأمس ألد الخصام أصبحوا بنعمة الله إخوانا . والمهاجرون قد اندمجوا فى الأنصار وقد أصبحوا شعبا واحدا يعبدون إلـٰها واحدا ، أكرمهم عند الله أتقاهم . « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله[١] » .

إنهم يقرئون السلام من عرفوا ومن لم يعرفوا . ويوسعون لإخوانهم فى المجالس ويدعونهم بأحب أسمائهم إليهم ، ويطعمون الطعام ويصلون بالليل والناس نيام ، لا يسب بعضهم بعضا فسباب المسلم فسوق ، ولا يقاتل بعضهم بعضا فقتال المسلم كفر ، يكرمون الجلساء فيبتسمون فى وجوههم ويصغون إليهم ، فقد قال لهم نبيهم ـ صلوات الله وسلامه عليه : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة » .

إنهم متواضعون لله لا يمشون فى الأرض مرحا . إذا ظلموا صبروا وإذا أسيء إليهم عفوا وإذا غضبوا غضبوا لله وما كانوا يغضبون لأنفسهم ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ينفقون مما رزقهم الله ، لا يقربون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا يقربون مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، يوقرون والديهم ، لا يجدون فى أنفسهم غشا ولا يحسدون أحدا على خير أعطاه الله إياه ، ولا يمشون بالنميمة ، يكفون ألسنتهم عن الشر يقولون خيرا أو يصمتون ، يحمدون الله على السراء والضراء ، قد وقر فى سرائرهم ما أنزل الله على رسوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [٢] » . فأرهف حسهم الدينى فأصبحوا لا يتكلمون فيما لا يعنيهم خشية الإثم ، ولا يتكلمون فيما يعنيهم إلا فيما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، لا يقولون إلا قولا سديدا ، يجادلون الناس بالتى هى أحسن ، إذا حكموا بين

---

(١) سورة التوبة الآية ٧١ (٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨

الناس يحكمون بالعدل ، يقابلون الخير بأحسن منه والشر بالعفو عنه ، إنهم للصغار آباء وللكبار أبناء وبنعمة الله إخوان ، يتقون الله حق تقاته وعلى ربهم يتوكلون .

وكانت المحبة ترفرف على المجتمع الجديد ، وكانت الحرية شرايينه ، حرية الرأى مكفولة للجميع ، وحرية العقيدة مكفولة ، « لا إكراه فى الدين فقد تبين الرشد من الغى(١) » . ولا عبودية إلا لله وحده ، وحرية الإرادة مكفولة : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى(٢) » .

كانت البشرية تنصهر فى بوتقة واحدة لا أجناس ولا ألوان ولا لغات ولا حدود جغرافية ، بل إلٰه واحد ودين واحد وعالم واحد : إخاء ومساواة ووحدة إنسانية ورفعة فوق الخبز وحاجات الجسد ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . ومشيئة السماء على الأرض فشريعة الله للناس أجمعين ، للحكام والمحكومين للأغنياء والفقراء للبيض والسود للأقوياء والضعفاء ، ورب ليس بظلام للعبيد .

كان رجال الوفود يؤمون المدينة فما يلبث الإعجاب أن يملأ جوانحهم ، فالمدينة الفاضلة التى داعبت عقول الفلاسفة والمفكرين أصبحت حقيقة واقعة فى أرض العرب . إن أفلاطون قد أسهب فى وصف جمهوريته فلما أعطى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة النجم الآيات ٣٩ — ٤٢ .

جزيرة من جزر اليونان ليحقق حلمه أخفق عند التطبيق . أما محمد بن عبد الله رسول رب العالمين فقد نجح فى أن يقيم خير أمة أخرجت للناس . وقد قال الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون[٣] .

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

٣

رسول الله ـــ ﷺ ـــ ينطلق إلى المدينة وعليه برد غليظ الحاشية ـــ ومعه أنس بن مالك ـــ يسلم على الناس فيردون تحيته بأحسن منها ، والغلمان يهرعون إليه يصافحونه فرحين فيداعبهم ويمسح بيده على رءوسهم ويدعو لهم بالخير ، فهو أب رحيم للجميع .

وجاء أعرابى فجبذ رسول الله ـــ ﷺ ـــ بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عاتقه ، ثم قال :

ـــ يا محمد احمل لى على بعيرىّ هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك .

فسكت النبى ـــ ﷺ ـــ ثم قال :

ـــ المال مال الله وأنا عبده .

وساد برهة صمت ثم قال ـــ صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ ويقاد[1] منك يا أعرابى ما فعلت بى ؟

ـــ لا .

ـــ لِمَ ؟

ـــ لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة .

فضحك النبى ـــ ﷺ ـــ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر

---

(١) يقاد منك : يقتص منك .

تمر .

كان عليه السلام دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما يشتهى ولا يؤيس منه ، خدمه أنس نحوا من عشر سنين ما صحبه فى سفر ولا حضر ليخدمه إلا وكانت خدمة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لأنس أكثر من خدمة أنس له . وما قال له أف قط ، وما قال لشىء فعله لِمَ فعلت كذا ، ولا لشىء لم يفعله ألا فعلت كذا .

وكان — ﷺ — فى بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة فقال رجل :

— يا رسول الله علىّ ذبحها .

وقال آخر :

— علىّ سلخها .

وقال آخر :

— علىّ طبخها .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— وعلىّ جمع الحطب .

— يا رسول الله نحن نكفيك .

— علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم . فإن الله يكره من عبده أن يراه مميزا بين أصحابه .

وقام فجمع الحطب فما كان أحد أحسن خلقا منه ، فهو فى بيته فى مهنة أهله يحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ، ويكنس البيت ، ويعقل البعير ويعلف ناضحه(١) ، ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل

---

(١) ناضحه : الجمل الذى يحمل عليه الماء .

بضاعته من السوق .

قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء والإكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولهم . يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق ويقول : « إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه » . ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام .

وكان سكوته على أربع : على الحلم والحذر والتقدير والتفكر . فأما حلمه فإنه لا يغضبه شيء يستفزه . وأما حذره ففى أخذه بالحسن ليُقتدى به وتركه للقبيح ليُنتهى عنه واجتهاد الرأى بما أصلح أمته والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة . وأما تقديره ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره ففيما يبقى ويغنى .

وما اجتمع فى بطنه — ﷺ — طعامان فى يوم قط ، إن أكل لحما لم يزد عليه وإن أكل تمرا لم يزد عليه وإن أكل خبزا لم يزد عليه . وكان يأتى على آل محمد شهر ما يختبزون خبزا ولا يطبخون قدرا ، وما أكل صلوات الله وسلامه عليه الشعير منخولا ، وكان يجوع لكثرة من يغشاه وأضيافه وقوم يلزمونه لذلك ، فلا يأكل طعاما أبدا إلا ومعه أصحابه وأهل الحاجة يتتابعون من المسجد .

واضطجع — صلوات الله وسلامه عليه — ذات يوم على حصير فأثر الحصير بجلده ، فلما استيقظ جعل عبد الله ابن مسعود يمسح عنه ويقول :

ــ يا رسول الله آذنتنا نبسط لك على هذا الحصير شيئا يقيك منه ؟

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ ما لى وللدنيا وما أنا والدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

وعاد رسول الله ﷺ ــ إلى المسجد ومعه أنس بن مالك فخف إليه أصحابه ، فهو أكرم الناس عِشرة وأكثرهم أدبا ، وألقوا إليه أسماعهم لينهلوا من معين علمه الذى لا ينضب . وكان فيهم عمر بن الخطاب وأبو جهم بن حذيفة ، فوقعت عينا عمر على أبى جهم فإذا به يتذكر الليلة التى تواعدا فيها على قتل رسول الله ــ ﷺ ــ إنهما انطلقا إلى منزله فى مكة تحت جنح الظلام فسمعا له فافتتح وقال :

ــ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟[1] » .

فضرب أبو جهم على عضده وقال :

ــ انج .

وفرا هاربين . ان عمر ليذكر ذلك الهلع الذى نزل به وانه ليذكر أثر تلك الآيات البينات فى وجدانه . انها كانت تدوى فى عين ذاته فتهزه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ولولا أن أخذته العزة بالإثم لا نطلق إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وأعلن إسلامه .

---

(١) سورة الحاقة الآيات ١ ــ ٨

أراد أن يفر من رنين الآيات التى حفرت فى أعماق أعماقه ، أن يصم أذنى ضميره عنها وأن يغلق نفسه دونها ، فخرج ليقتل رسول الله ــ ﷺ ــ فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له :

ــ أين تريد يا عمر ؟

ــ أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله .

ــ والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

ــ وأى أهل بيتى ؟؟

ــ خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما .

إنه ليسمع صوت خباب بن الأرت وهو يقرأ القرآن ، وإنه ليرى نفسه وهو ينطلق غاضبا إلى بيت أخته وإذا بالحوار الذى دار بينه وبينها فى ذلك اليوم ينبعث من أغوار الماضى :

ــ ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

ــ ما سمعت شيئا .

ــ بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .

ورأى نفسه وهو يبطش بختنه سعيد بن زيد فتقاصرت نفسه ، ليت ذلك ما كان ! إن أخته قد قامت إليه لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ورأى دمها يسيل على وجهها بعين بصيرته فى وضوح ، فأغمض عينيه لعله يطرد من ذهنه تلك الذكريات ولكن الأحداث والأصوات راحت تزداد وضوحا على

مسرح خياله :

ـــ نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

كان إيمانهما أقوى من غضبه . وعادت آيات الحاقة تدوى فى وجدانه لكأنما كان الكون كله يرتلها فزعزعت كيانه ، فقال لأخته وقد حاقت به الهزيمة :

ـــ أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد .

ـــ إنا نخشاك عليها .

ـــ لا تخافى . واللات والعزى لأردنها إذا قرأتها إليك .

ـــ يا أخى إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا المطهرون .

وذهب مسلوب الإرادة واغتسل فأعطته الصحيفة ، فلما قرأها أحس كأن أنوارا قد ألقيت فى فؤاده . وعادت إلى ذاكرته تلك الآيات التى هزت كيانه : آيات الحاقة التى هدت كبرياءه فقال :

ـــ ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

وهداه الله إلى الصراط المستقيم وأخرجه من الظلمات إلى النور ، والتقت عيناه بعينى أبى جهم بن حذيفة فعجب كيف تأخر إسلامه إلى عام الفتح ، وسرعان ما رن فى جوفه قول الله تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين .(١) فأطرق عمر حياء وقال فى إيمان عميق :

ـــ صدق الله العظيم .

---

(١) سورة القصص الآية ٥٦ .

٤

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى المسجد ، وكان الزبير بن العوام يصغى إليه وهو يقول :

ـــ يا زبير إنى رسول الله إلى الناس عامة وإليك خاصة . أتدرى ماذا قال ربكم حين استوى على عرشه ونظر إلى خلقه ؟ قال : عبدى أنفق أنفق عليك ووسع أوسع عليك ولا تضيق فأضيق عليك . إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات متواصل إلى العرش لا يغلق لا فى ليل ولا فى نهار ، ينزل الله من الرزق على كل امرئ بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته . من أكثر أكثر الله له . ومن أقل أقل الله له .

يا زبير إن الله يحب الإنفاق ويبغض الإقتار . وإن السخاء من اليقين والبخل من الشك ، ولا يدخل النار من أيقن ولا يدخل الجنة من شك .

يا زبير إن الله يحب السخاء ولو بفلق تمرة ، ويحب الشجاعة ولو بقتل حية أو عقرب .

وارتفعت أصوات فى الخارج تصيح :

ـــ وفد فزارة .. وفد فزارة .

ودخل من يستأذن رسول الله ـــ ﷺ ـــ للوفد فأذن لهم ، فدخل بضعة عشر رجلا فيهم خارجة بن حصن والحر بن قيس بن حصن وهو أصغرهم ، وحيوا رسول الله عليه السلام بتحية الإسلام فرد تحيتهم بأفضل منها . فقد جاءوا مقرين بالإسلام .

كانت العداوة مشبوبة بين بنى فزارة وعبس منذ أن نشبت بينهما حرب داحس، وكان داحس فرسا لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس أجراه مع فرس لحذيفة بن بدر بن عمرو ابن زيد بن جؤية بن لوذان بن ثعلبة بن عدى بن فزارة يقال لها الغبراء، فدس حذيفة قوما وأمرهم أن يضربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقا، فجاء داحس سابقا فضربوا وجهه وجاءت الغبراء.

فلما جاء فارس داحس أخبر قيسا الخبر فوثب أخوه مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء، فقام حمَل بن بدر فلطم مالكا. ثم إن أبا الجنيدب العبسى لقى عوف بن حذيفة فقتله، قم لقى رجل من بنى فزارة مالكا فقتله، فوقعت الحرب بين عبس وفزارة فقتل حذيفة بن بدر وأخوه حمَل بن بدر.

وأصبح خارجة بن حصن سيد بنى فزارة فورث فيما ورث عداوة بنى عبس. وخرج ذات يوم فى جمع من بنى فزارة ومن بنى ثعلبة بن سعد وهو يريد غزو بنى عبس، فلقوا جيشا لبنى تميم على ماء يقال له « الكفافة ». فقاتلوهم قتالا شديدا وهزمت تميم وأجفلت. وظلت الثارات ناشبة بين بنى فزارة وبنى عبس وبنى تميم حتى إذا ما انتشر الإسلام وأضاء الأفئدة نور اليقين، جاءوا جميعا إلى رسول السلام عليه السلام مقرين بالإسلام الذى محا الإحن والبغضاء من الصدور وأصبحوا بنعمة الله إخوانا.

جاء وفد فزارة على ركاب عجاف، فسألهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن بلادهم فقالوا:

ــ أسنتت[١] بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وغرث[٢] عيالنا

---

(١) أسنتت: أجدبت لقلة المطر. (٢) غرث: جاع.

فادع لنا ربك .

فصعد رسول الله — ﷺ — المنبر ودعا فقال :

— اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك فأحى بلدك الميت . اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، مريئا مريعا (مخصبا) ، مطبقا واسعا ، عاجلا غير آجل ، نافعا غير ضار .

اللهم اسقنا سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق . اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء .

فمطرت فما رأوا السماء ستة أيام ، السحب كأنها أمواج والغيث يهطل من السماء ، فصعد رسول الله — ﷺ — فدعا فقال :

— اللهم حوالينا ولا علينا ، على الآكام والظِّراب وبطون الأودية ومنابت الشجر .

فانجابت السماء على المدينة انجياب الثور .

وجاء وفد مرة فأشرقت وجوه المسلمين بالبشر . كانوا ثلاثة عشر رجلا رأسهم الحارث بن عوف بن أبى حارثة المُرى ، من خرج يوم الخندق مع قريش وغطفان لاستئصال شأفة المسلمين ومن بعث إليه وإلى عيينة بن حصن ابن حذيفة بن بدر رسول الله — ﷺ — لما اشتد على الناس البلاء يوم الخندق ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب و لم تقع الشهادة وعلى عزيمة الصلح إلا المراوضة فى ذلك . فلما أراد رسول الله — ﷺ — أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له :

— يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل

به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

ـــ بل شيء أصنعه لكم . والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ :

ـــ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

ـــ فأنت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال :

ـــ ليَجهدوا علينا .

ذكريات تدفقت إلى رءوس المسلمين فأين اليوم من الأمس ؟ إن ألد الخصوم قد جاءوا إلى المدينة طائعين ليقروا بالإسلام . وإنها لفرحة ما بعدها فرحة أن شرح الله صدور من حاربوا دين الله للإسلام، وسبحان الله رب العالمين.

ودخل وفد مرة على رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه فقالوا :

ـــ يا رسول الله إنا قومك وعشيرتك ، ونحن قوم من لؤى بن غالب .

فتبسم رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقد ولد للؤى بن غالب أربعة نفر : كعب ابن لؤى وعامر بن لؤى وسامة بن لؤى وعوف بن لؤى . ولقد خرج عوف ابن لؤى فى ركب من قريش حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطئ به . فانطلق من كان معه من قومه . فأتاه ثعلبه بن سعد فحبسه وزوجه وألصقه به وألحقه بنسبه وآخاه ، فشاع نسبه فى بنى ذبيان وصار نسبه

فى غطفان عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريْث بن غطفان وعرف نسل ابنه ببنى مرة ، وما كانوا من ثعلبة بن سعد بل كانوا من لؤى بن غالب ، وكانوا قوم رسول الله — ﷺ — وعشيرته حقا .

والتفت عليه السلام إلى الحارث بن عوف وقال :

— أين تركت أهلك ؟

— بسَلاح(١) وما والاها .

— كيف تركت البلاد ؟

— والله إنا لمسنتون فادع الله لنا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم اسقهم الغيث .

وأمر بلالا أن يجيزهم فأجازهم بعشر أواق ، عشر أواق فضة ، وفضل الحارث بن عوف ، أعطاه ثنتى عشرة أوقية . فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد مطرت فى اليوم الذى دعا فيه رسول الله — ﷺ .

وسار وفد كلاب فى طرقات المدينة وفيهم لبيد بن ربيعة ، فراح الناس يترحمون على عثمان بن مظعون ويتذكرون تلك الأيام التى كان فيها عثمان فى جوار الوليد بن المغيرة . إنه لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله — ﷺ — من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة قال :

— والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى .

---

(١) سلاح : موضع أسفل من خيبر وماء أيضا لبنى كلاب .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له :

— يا أبا عبد شمس وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك .

— لم يابن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي .

— لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره .

— فانطلق إلى المسجد فاردد إلى جواري علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا حتى أتيا الكعبة فقال الوليد :

— هذا عثمان قد جاء يرد على جواري .

— صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ولكني أحببت ألا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان فقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان :

— صدقت .

قال لبيد :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان :

— كذبت نعيم الجنة لا يزول .

قال لبيد بن ربيعة :

— يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم :

— إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا . فلا تجدن في نفسك من

قوله .

فرد عليه عثمان حتى زاد أمرهما وعظم ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :

— أما والله يابن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

— بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

— هلم يا بن أخى إن شئت إلى جوارك .

— لا .

أين اليوم من الأمس ؟ إن لبيد بن ربيعة قد جاء ليعلن على الملأ أن عثمان بن مظعون كان على صواب لما قال : نعيم الجنة لا يزول . ورحم الله عثمان بن مظعون .

وأنزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفد كلاب دار رملة بنت الحارث فقالوا :

— يا رسول الله إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التى أمرته ، وإنه دعانا إلى الله فاستجبنا لله ولرسوله ، وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا .

كان الضحاك بن قيس الكلابى قد أسلم قبيل الفتح وقد شهد فتح مكة وقتال الطائف وغزوة حنين وكان علىَ رأس جيش سُليم وكلاب . وقد قال عباس بن مرداس السلمى فى ذلك اليوم :

عفـا مِجـدل مـن أهلـه فمُتالـع
فمِطـلا أريك قـد خـلا فالمصانـع(١)
ديـار لنـا يـا جُمْـل إذ جـل عيشنـا
رخـيّ وصرف الـدار للحـى جامـع(٢)
حُبيِّـة ألـوَت بها غربـة النَّـوى
لِبين فهـل ماض مـن العـيش راجـع(٣)
فـإن تبتغـى الكفـار غير مَلُومـة
فـإنى وزيـر للنبـى وتابـع
دعانـا إليهم خير وفـد علِمتُهـم
خـزيمة والمرَّار منهم واسع
فجئنـا بألـف مـن سُلَيم عـليهم
لبـوس لهم مـن نسج داود رائـع(٤)
نبايعـه بـالأخشبَين وإنما
يـدَ الله بين الأخشبين نبايـع(٥)

---

(١) عفا : درس وتغير . ومجدل : موضع . وأصل المجدل القصر ، ويقال الحصن . ومتالع : جبل بنجد . والطلاء : أرض سهلة لينة تنبت العضاء . وأريك : موضع . والمصانع : مواضع تصنع للماء مثل الصهاريج .

(٢) جمل : اسم امرأة . وجل العيش : أكثره . وعيش رخى : ناعم . وصرف الدار : الخطب النازل بها .

(٣) ألوت بها : غيرتها . والنوى : البعد والفراق .

(٤) رائـع : معـجب . (٥) الأخشبان : جبلان بمكة .

فجسنـا مـع المهـدى مكـة عَنـوة
بأسيافنـا والنقـع كاب وساطـع(١)
مكافحـةً والخيـل يـغشى مُتـونها
حميـمٌ وآن مـن دم الجوف ناقـع(٢)
ويـوم حـنين حين سارت هـوازن
إلينـا وضاقت بالنفـوس الأضالـع
صبرنـا مـع الضحـاك لا يستفزنـا
قـراع الأعـادى منهم والوقائـع(٣)
أمـام رسول الله يخفـق فوقنـا
لـواء كخـذروف السحابـة لامـع(٤)
عشيـة ضحـاك بـن سفيـان معـتص
بسيـف رسول الله والموت كانـع(٥)
نـذود أخانـا عـن أخينـا ولـو نـرى
مَصالا لكُنَّـا الأقـربين نتابـع(٦)

---

(١) جسنا : وطئنا . المهدى : النبى ﷺ . وعنوة : قهرا . والنقع : الغبار . وكاب : مرتفع . ساطع : متفرق .

(٢) متونها : ظهورها . والحميم (هنا) : العرق . وآن : حار . وناقع : كثير .

(٣)لا يستفزنا : لا يستخفنا .

(٤) خذروف السحابة : طرفها ، وأراد هنا سرعة تحرك هذا اللواء واضطرابه .

(٥)معتص : ضارب . يقال : اعتصوا بالسيوف : إذا ضاربوا بها . وكانع : دان ، يقال : كنع منه الموت إذا دنا .

(٦)نذود : ندفع .

ولكـــن ديـــن الله ديـــن محمـــد
رضينـــا بـــه فيـــه الهدى والشرائـــع
أقـــام بـــه بعـــد الضلالـــة أمرنـــا
ولـــيس الأمـــر حمّـــه الله دافـــع(١)

وخاف الضحاك على قومه . أراد لهم الهداية فانطلق إلى بنى كلاب ودعاهم إلى الله ورسوله فأشرق نور اليقين فى أفئدتهم فجاءوا إلى المدينة وشهدوا شهادة الحق ، وأجازهم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ الوفد كل ذلك من أموال هوازن ، ثم انصرفوا إلى أهليهم وهم على نور من ربهم .

وكان بين بنى رؤاس بن كلاب وبنى عقيل بن كعب ثارات ، وكان قد قدم رجل من بنى رؤاس يقال له عمرو بن مالك بن قيس الرؤاسى على النبى ــ ﷺ ــ فأسلم ، ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام فقالوا :

ــ حتى نصيب من بنى عقيل بن كعب مثلما أصابوا منا .

فخرجوا يريدونهم وخرج معهم عمرو بن مالك ، وارتفعت السيوف وقطعت الرقاب ومزقت القلوب ، ثم خرجوا يسوقون النعم فأدركهم فارس من بنى عقيل يقال له ربيعة بن المنتفق بن عامر بن عقيل وهو يقول :

أقسمت لا أطعـن إلا فـارسا إذا الكمـاةُ لـبسوا القـوانسا

فقال قائل من بنى رؤاس :

ــ نجوتم يا معشر الرُّجالة سائر اليوم .

وراح العقيلى يشن هجومه على الفرسان فأدرك رجلا من بنى عبيد بن رؤاس يقال له المحرش بن عبد الله بن عمرو بن عبيد بن رؤاس ، فطعنه فى

---

(١) حمّه الله : قدره .

عضده فإذا بذراعه لا تتحرك ، فاعتنق المحرش فرسه وقال :

— يا آل رؤاس !

فقال ربيعة فى سخرية :

— رؤاس خيل أو أناس ؟

فعطف على ربيعة عمرو بن مالك فطعنه فقتله ، ووقف عمرو على جثمان القتيل وقد ساوره الندم ، ثم خرج بنو رؤاس يسوقون النعم . وأقبل بنو عقيل فى طلبهم حتى انتهوا إلى وادى تربة على مسافة يومين من مكة فقطع ما بينهم الوادى ، فجعل بنو عقيل ينظرون إلى بنى رؤاس فلا يصلون إلى شىء . فمضى بنو رؤاس وعمرو بن مالك يتلفت فى قلق ، فقد أسقط فى يده وقال فى أسى :

— قتلت رجلا وقد أسلمت وبايعت النبى — ﷺ !

فشد يديه فى غل إلى عنقه ، ثم خرج يريد النبى — ﷺ — وقد بلغه ما فعل عمرو بن مالك ، فقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— لئن أتانى لأضربن ما فوق الغل من يده .

وبلغ عمرو بن مالك مقالة النبى — ﷺ — فأطلق يديه ، ثم أتاه فسلم عليه فأعرض عنه ، فأتاه عن يمينه فأعرض عنه فأتاه عن يساره فأعرض عنه ، فأتاه من قبل وجهه فقال :

— يا رسول الله إن الرب ليترضّى فيرضى ، فارض عنى رضى الله عنك .

— قد رضيت عنك .

وأراد الله أن يؤلف بين قلوب القبائل المتنافرة فدخل بنو رؤاس بن كلاب فى دين الله ، ووفد من بنى عقيل بن كعب على رسول الله — ﷺ — ربيع ابن معاوية بن خفاجة بن عمرو بن عقيل ومطرِّف بن عبد الله وأنس بن قيس

ابن المنتفق فبايعوا وأسلموا ، وبايعوه على من وراءهم من قومهم . فأعطاهم رسول الله ـ ﷺ ـ العقيق عقيق بنى عقيل . وهى أرض فيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتابا فى أديم أحمر : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى محمد رسول الله ربيعا ومطرفا وأنسا ، أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وسمعوا وأطاعوا » . ولم يعطهم حقا لمسلم . وكان الكتاب فى يد مطرِّف .

ووفد عليه أيضا لقيط من عامر بن المنتفق بن عامر بن عقيل ، فأعطاهم ماء يقال له النَّظيم وبايعه على قومه وألف بين قلوبهم : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم »(١) .

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٣) .

٥

كان أحد المسلمين يتلو فى مسجد الرسول : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم[1] » . فإذا بصحابة رسول الله ـــ ﷺ ـــ يتذكرون سبب نزول هذه الآية . كان من عادته عليه الصلاة والسلام إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدمهما إلى المنزل فيهيئ لهما ما يصلح لهما من الطعام والشراب ، فضم سلمان الفارسى إلى رجلين فى بعض أسفاره ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام و لم يهيئ شيئا لهما . فلما قدما قالا له :

ـــ ما صنعت شيئا ؟

ـــ لا ، غلبتنى عيناى فنمت .

ـــ انطلق إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فاطلب لنا منه طعاما .

فجاء سلمان إلى رسول الله ـــ ﷺ : وسأله طعاما ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له إن كان عنده فضل طعام أو أدم فليعطك .

وكان أسامة خازن رسول الله وعلى رحله ، فأتاه فقال :

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٢)

ـــ ما عندى شيء .

فرجع سلمان إليهما فأخبرهما فقالا :

ـــ كان عند أسامة ولكن بخل .

فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا ، فلما رجع قالا :

ـــ لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها .

ثم انطلقا يتجسسان هل كان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ـــ ﷺ

ـــ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ ـــ قال لهما :

ـــ ما لى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما !.

ـــ والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحما .

ـــ ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة .

فأنزل الله هذه الآية ، ولم يتب بعض المسلمين عن تتبع عورات الناس فصعد رسول الله ـــ ﷺ ـــ المنبر فنادى بصوت رفيع ، فعلا صوته حتى أسمع النساء فى البيوت :

ـــ يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من يتتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله .

والتقى خالد بن الوليد وعمار بن ياسر فى مسجد الرسول ، فهرع خالد إلى عمار يصافحه ويبش فى وجهه فهو لا ينسى ما كان بينه وبين عمار يوم أن بعثه رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى سرية إلى حى من أحياء العرب وكان معه عمار ابن ياسر ، فسار حتى إذا دنا من القوم عرّس لكى يصبحهم فأتاهم النذير فهربوا عن رجل قد كان أسلم ، فأمر أهله أن يتأهبوا للسير ، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد ودخل على عمار فقال :

— يا أبا اليقظان إنى منكم وإن قومى لما سمعوا بكم هربوا وأقمت لإسلامى ، أفنافعى ذلك أو أهرب كما هرب قومى ؟

— أقم فإن ذلك نافعك .

وانصرف الرجل إلى أهله وأمرهم بالمقام ، وأصبح خالد فغار على القوم فلم يجد غير ذلك الرجل فأخذه وأخذ ماله ، فأتاه عمار فقال :

— خل سبيل الرجل فإنه أسلم ، وقد كنت أمنته وأمرته بالمقام .

— أنت تجير علىّ وأنا الأمير ؟

— نعم أنا أجير عليك وأنت الأمير .

فكان فى ذلك بينهما كلام فانصرفوا إلى النبى — ﷺ — فأخبروه خبر الرجل ، فأمنه النبى — ﷺ — وأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير إذنه . واستبّ عمار وخالد بين يدى رسول الله — ﷺ — فأغلظ عمار لخالد ، فغضب خالد وقال :

— يا رسول الله أتدع هذا العبد يشتمنى ! فوالله لولا أنت ما شتمنى .

وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا خالد كف عن عمار فإنه من يسب عمارا يسبه الله ، ومن يبغض عمارا يبغضه الله .

فقام عمار فتبعه خالد فأخذ بثوبه ، وسأله أن يرضى عنه فرضى عنه .

كان ياسر والد عمار عربيا قحطانيا من عنس فى مذحج ، إلا أن ابنه عمارا كان مولى لبنى مخزوم ؛ لأن أباه ياسرا قدم مكة مع أخوين له يقال لهما مالك والحارث فى طلب أخ لهم رابع ، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن وأقام ياسر بمكة ، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فزوجه أبو حذيفة أمة يقال لها سُميَّة فأولدها عمارا ، فأعتقه أبو حذيفة فمن ها هنا كان

عمار مولى بنى مخزوم وإن كان أبوه عربيا .

وكان عمار بن ياسر ممن عذب فى الله ، ثم أعطاهم عمار ما أرادوا بلسانه واطمأن الإيمان بقلبه فنزل فيه : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »[١] .

وهاجر إلى أرض الحبشة وصلى إلى القبلتين .

وقال رسول الله — ﷺ — « إن عمارا ملئ إيمانا إلى أخمص قدميه ، فكانت عائشة تقول : ما من أحد من أصحاب رسول الله — ﷺ — أشاء أن أقول فيه إلا قلت ، إلا عمار بن ياسر .

وقدم على رسول الله — ﷺ — أبو حرب بن خويلد بن عامر بن عقيل بعد أن وفد عليه وفد بنى عقيل وبايعوه وأسلموا ، وبايعوا على من وراءهم من قومهم ؛ فجلس أبو حرب بين يدى رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فقرأ رسول الله عليه القرآن وعرض عليه الإسلام .

فقال أبو حرب وهو مأخوذ بروعة القرآن وإن كان قلبه لا يزال غارقا فى ظلمات الجهل :

— أما وايم الله لقد لقيت الله أو لقيت من لقيه ، فإنك تقول قولا لا نحسن مثله ، ولكن سوف أضرب بقداحى هذه على ما تدعونى إليه وعلى دينى الذى أنا عليه .

وضرب القداح فخرج على سهم الكفر ، ثم أعاد فخرج عليه ثلاث مرات ، فقال لرسول الله — ﷺ — :

— أبى هذا إلا ما ترى .

وصبر عليه رسول الله — ﷺ — فهو أعلم بنفوس البشر ، فالكفر لا

---

(١) سورة النحل الآية (١٠٦) .

يزال فى أعماق نفسه وراح يحدثه فى رفق . وأراد أن يؤلفه وأن يحببه فى الإسلام فوعده بأن يقطعه أرضا إن أسلم .

وامتطى أبو حرب راحلته وانطلق إلى أهله وصوت رسول الله — ﷺ — يمس أوتار قلبه والقرآن الكريم يستحوذ على لبه ، فلما رجع إلى خيه عقال بن خويلد قال له :

— هل لك فى محمد بن عبد الله ؟ يدعو إلى دين الإسلام ويقرأ القرآن وقد أعطانى العقيق إن أنا أسلمت .

ففزع عقال . إنه غليظ القلب جامد العقل لا يستطيع أن يتصور أن إنسانا رشيدا يجرؤ على أن يترك ما كان يعبد آباؤه فقال لأخيه :

— أنا والله أخطك أكثر ما يخطك محمد .

ثم ركب فرسه وجر رمحه على أسفل العقيق ليحدد لأخيه الأرض التى سيعطيها إياه لكيلا يدخل فى دين الله .

وأخذ أبو حرب أسفل العقيق وما فيه من عين . ولكنه ظل يذكر رسول الله — ﷺ — وما سمع من قرآن فضايق ذلك عقال بن خويلد ، فشد الرحال إلى المدينة وقد عزم على أن يسخر من ذلك الذى يأتيه الخبر من السماء .

وقدم عقال على رسول الله — ﷺ فقرأ رسول الله عليه القرآن وعرض عليه الإسلام فأحس عقال كأنما النور قد استبان لعين بصيرته ، وخشى أن يضعف وأن يعطى بلسانه ما أقر به فؤاده فراح يجمع شتات أمره وقد بيت النية على أن يرفض ما يعرضه رسول الله — ﷺ — عليه ، بل عزم على أن يستعين بسخريته ليخرج من ذلك الموقف الذى يستشعر فيه أن كيانه قد بدأ يتزعزع ..

وقال له رسول الله — ﷺ — فى هدوء :

ـــ أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

واضطرب عقال ولاح فى وجهه الجهد وهو يقول فى صوت مضطرب :

ـــ أشهد أن هبيرة بن النفاضة نعم الفارس يوم قرنى لبان .

وتنفس عقال الصعداء وحمد لنفسه أنه تذكر فارس قوم هبيرة الذى أحسن النزال يوم التقى بأعدائه بأرض لبان .

وقال رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فى هدوء :

ـــ أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

وتفصد العرق من وجه عقال وراح يقاوم نفسه ثم قال :

ـــ أشهد أن الصريح تحت الرغوة .

إنه مثل حفظه ، فالصريح هو اللبن الخالص والرغوة الزبد ، ومعناه أن الأمر تغطى عليك وسيبدو لك . وثارت فى نفس عقال توجسات : ما الذى أنطقه بهذا المثل ؟ أقاله سخرية بمحمد بن عبد الله أم قاله ليقنع نفسه . وقبل أن يتبين له حقيقة أمره مس صوت رسول الله ـــ ﷺ ـــ أذنيه كأنه البشرى :

ـــ أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

وانسحبت ظلمات نفسه أمام أنوار اليقين . فقال فى صوت كله رقة وإيمان :

ـــ أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

٦

كانت دور المسلمين ينبعث منها دوى كدوى النحل فقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتلون ما تيسر من القرآن . وكان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قائما يصلى فى جوف الليل . إنه يصلى إحدى عشرة ركعة يوتر بواحدة منهن وما قبلها مثنى مثنى وهو يطيل فيهن ، فإنه يستشعر بفرح فياض بالأنس بربه والابتهال إلى نور السماوات والأرض .

كانوا يدعون الله وحده يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فتشرق سرائرهم بالخير وتتطهر نفوسهم من كل شر ويستعدون لصالح الأعمال فقد كانوا يؤمنون بأنهم محاسبون على أعمالهم : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون .(١) » .

سمع بعض الأعراب النبى ــ ﷺ ــ يقرأ : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . »(٢) . فقال :

ــ يا رسول الله أمثقال ذرة ؟

ــ نعم .

ــ واسوأتاه .. واسوأتاه !.

وقام وهو يقول !.

ــ واسوأتاه !.

---

(١) سورة المؤمنون الآية (١١٥) . (٢) سورة الزلزلة الآيتان (٧ ، ٨) .

فقال النبى — ﷺ :

— لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان .

وكانوا يجاهدون النفس حتى لا تتبع هواها ، فقد علمهم القرآن المجيد أن من يتخذ إلـٰهه هواه لا يسمع ولا يعقل فهو كالأنعام أو أضل سبيلا ، وكانوا يلتمسون التقوى فمن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ويجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب .

وانقضى الليل وأنفاس المسلمين تسبيح وألسنتهم رطبة بذكر الله وصدورهم منشرحة بنور الله ، وقد نامت المدينة فى أحضان الأمن والطمأنينة ولا جرم فقد أسلموا وجوههم إلى الله واستمسكوا بالعروة الوثقى .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالفجر ففتحت الدور فى العالية والسافلة ، وخرج المسلمون إلى مسجد الرسول فى عماية الصبح وقد جعل الله لهم نورا يمشون به . ولا غرو فهم يرددون قول نبيهم العظيم استمدادا للنور من ربهم : « اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى لسانى نورا ، وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا وعن يسارى نورا ، ومن فوقى نورا ومن تحتى نورا ، ومن أمامى نورا ومن خلفى نورا ، واجعل لى فى نفسى نورا وأعظم لى نورا » .

وامتلأ المسجد بأصحاب الرسول — ﷺ — تفوح منهم روائح أطيب من المسك ، فقد تطهروا من دنس الجسد ودنس النفس ، اغتسلوا أو توضئوا وطهروا أفئدتهم من الغل والحسد والحقد وسائر أمراض القلب . لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . أحسنوا عبادة ربهم وأطاعوه فى السر . لا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله ، ولا تفتنهم زهرة الدنيا وزينتها عن أن يقرعوا أبواب الملكوت .

وقام رسول الله — ﷺ — واتجه إلى القبلة فاصطف خلفه الأوسى والخزرجي والقرشي والكناني والغطفاني والتميمي والذبياني والتغلبي والشيباني والهلالي والثقفي والعبسي والكلبي والخزاعي والطائي ، أعداء الأمس إخوان اليوم ، وقد انصهروا فى بوتقة الإيمان فأصبحوا خير أمة أخرجت للناس . « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »(١) .

وقضيت الصلاة وانتشر المسلمون فى الأرض ، وجلس رسول الله — ﷺ — فى المسجد لاستقبال الوفود فوفد عليه نفر من بنى قشير فيهم ثور بن عزرة بن عبد الله بن سلمة بن قشير فأسلم . فأقطعه رسول الله — ﷺ — حمام والسد وهما من العقيق وكتب له بالقطيعة كتابا . وفيهم حيدة بن معاوية ابن قشير . وفيهم قرة بن هبيرة بن سلمة الخير بن قشير فأسلم . فأعطاه رسول الله — ﷺ — وكساه بردا وأمره أن يلى صدقة قومه ، فرجع قرة إلى أهله مسرورا وقال :

حباها رسول الله إذ نزلت به
وأمكنها من نائل منفد
فأضحت بروض الخير وهى حثيثة
وقد أنجحت حاجاتها من محمد
عليها فتى لا يردف الذم رحله
تروك لأمر العاجز المتردد

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

ووفد ثلاثة نفر من بنى البكاء على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيهم معاوية بن ثور بن عبادة بن البكاء وهو يومئذ ابن مائة سنة ، ومعه ابن يقال له بشر ، والفحيح بن عبد الله ، ومعهم عبد عمرو البكائى وهو الأصم فسماه رسول الله ـــ ﷺ ـــ عبد الرحمن .

وراح معاوية بن ثور يصغى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى انبهار . إنه ألقى سمعه إلى الشعراء فى سوق عكاظ وسمع حكمة الحكماء فى الحيرة وفى الشام فلم يأخذ ما سمع بلبه مثلما أخذت آيات القرآن ، فآيات الذكر تعرف طريقها إلى القلب فيخشع لها الوجدان . إنه يستشعر أن هذا القرآن مأدبة الله فأقبل عليها بكل كيانه ، إنه ليهتز طربا من إيقاعه وإن الخشية من الرب لتملأ أرجاء نفسه وإن الأمل فى رحمة الله ومغفرته لترفعه حتى ليكاد يستروح عبير جنات النعيم . إنه إعجاز ما بعده إعجاز .

وأحس الشيخ أن حب رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد نزل بسويداء قلبه ، فراح يمس رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فى فرح فياض وهو يقول :

ـــ إنى أتبرك بمسك وقد كبرت ، وابنى هذا برّ بى فامسح وجهه .

فمسح رسول الله ـــ ﷺ ـــ وجه بشر بن معاوية ودعا له بالخير والبركات ، فرفت على شفتى الشيخ بسمة رضا وأضاءت عيناه بالسرور ، فقد كانت تلك اللحظة أروع لحظة فى حياته التى بلغت مائة سنة .

وأقبل الليل فأنزلهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ بمنزل وضيافة . وحاول عبد الرحمن أن ينام ولكن صورة رسول الله ـــ ﷺ قد استولت على خياله وجعل صوته عليه السلام يمس أوتار قلبه فأحس رغبة فى أن ينطلق إليه وأن يأنس برقته وعذب حديثه ، فانسل من منزله وراح يغذ السير فى الظلام إلى مسجد

الرسول .

ووقف بباب المسجد ومد عينيه فرأى رسول الله — ﷺ — وقد جلس حوله أبو هريرة وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى وفقراء المهاجرين من أصحاب الصفة ، فهرع إليهم وجلس يصغى إلى رسول رب العالمين وهو يقول :

— إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأمورهم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كانت أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها .

ومر الوقت وعبد الرحمن البكائى يصغى وهو مأخوذ يحس أن ذاته اكتسبت عمقا وخصبا وثراء ، وأنه يتعرض لنفحات ربه ، وأن أنوار المعارف تنسكب فى أعماق قلبه ، وأن عوالم أوسع من العالم الأرضى تتفتح لعين بصيرته ، فقد سلم من غير الله فؤاده ، إنه سعيد بقربه من ربه قربا بالمعنى والحقيقة والصفة .

إن الحجاب بين قلبه والملكوت بدأ يرتفع ، وإن حقائق الأمور الإلـٰهية أخذت تتلألأ فى عين ذاته ، فلمع فى فؤاده من وراء ستر الغيب شىء من غرائب العلم ، فوطن النفس على ألا يغادر النور وأن يمكث مع أصحاب الصفة لينهل من نبع الحكمة وليكون لله ؛ فى خدمته وفى طاعته .

وقام رسول الله — ﷺ — واتجه إلى دار فاطمة الزهراء ليلقى نظرة على الحسن والحسين قبل أن يدخل داره فهما حبه ، وإن ابنه إبراهيم لم يزحزحهما عن مكانهما من قلبه . وانسحب أصحاب الصفة ليأووا إلى موضعهم المظلل فى المسجد ، فلم يعد عبد الرحمن إلى منزله بل ذهب ليبيت مع أصحاب

الصفة ، فإنها لنعمة كبرى أن يكون على الدوام مع رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لتهب عليه نسائم الألطاف وينكشف له سر الملكوت .

وتأهب معاوية بن ثور بن عبادة وابنه بشر للرحيل ، فأعطى رسول الله — ﷺ — بشر بن معاوية أعنزا خالصة البياض ، وأبى عبد الرحمن البكائى أن يرحل ، فضل أن يعيش مع فقراء المهاجرين فى مسجد الرسول على أن يعود إلى أهله ، فقد اشتعل زيته الذى فى مشكاة قلبه فأصبح نورا على نور .

٧

راح المسلمون يبتغون من فضل الله ، إنهم حلماء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف من ربهم ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون ، إذا زكّى أحد منهم خاف مما يقال له فيقول :

ـــ أنا أعلم بنفسى من غيرى وربى أعلم بى منى بنفسى !

اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون !.

إنهم أهل الفضائل : منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع ، قد غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، لا فرقَ عندهم بين البلاء والرخاء فكل من عند الله ، ولولا الأجل الذى كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب .

عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ؛ أجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة ؛ أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . قد اتقوا الله الذى أسبغ عليهم المعاش فجعل لهم نورا من الظُّلَم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[١] » .

---

(١) سورة الحديد الآية (٣١) .

وغابت شمس آخر يوم من شعبان فهرع الناس إلى مسجد الرسول وجعلوا يرتلون القرآن ترتيلا ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها شوقا وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها بمسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم .

وثبتت الرؤيا فقام رسول الله — ﷺ — يخطب الناس فقال :

— أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك . شهر فيه ليلة خير من ألف شهر . جعل الله صيامه فريضة وقيام ليلة تطوعا . من تقرب فيه خصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه . ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه . وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة . وشهر المواساة وشهر يزاد فى رزق المؤمن فيه .

من فطَّر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبة من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء .

— يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر به الصائم .

— يُعطى الله هذا الثواب من فطَّر صائما على تمرة أو شربة ماء أو مذقة لبن . وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار .

من خفف على مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتين ترضون بها ربكم وخصلتين لا غناء بكم عنهما . فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إلـٰه إلا الله وتستغفرونه ، وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار . ومن سقى صائما سقاه الله من حوضه شربة لا يظمأ حتى يدخل

الجنة .

وانصرف الناس إلى ديارهم ، وجلس رسول الله — ﷺ — مع أصحاب الصفة يحدثهم قال :

— الصيام جُنة ، فلا يرفُث أحدكم ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم مرتين ؟ والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها .

وصام الناس وراح جبريل عليه السلام يلقى رسول الله — ﷺ — كل ليلة يعرض على النبى عليه السلام القرآن ، وكان فى السنوات الخوالى يعرضه عليه مرة حتى ينسلخ الشهر ولكنه فى هذا العام يعرضه عليه مرتين . ترى هل دنا الأجل ؟!

وخرج رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إلى الناس يجود بكل ما عنده ، فهو إذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وبينا الناس جلوس عند رسول الله — ﷺ — إذ جاء رجل فقال :

— هلكت .

— مالك ؟

— وقعت على امرأتى وأنا صائم .

— هل تجد رقبة تعتقها ؟

— لا .

— فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟

— لا .

— فهل تجد إطعام ستين مسكينا ؟

ــ لا .

وأتى النبى بعرق (مكتل) فيه تمر وقال :

ــ أين السائل ؟

ــ أنا .

ــ خذها فتصدق به .

ــ أعلى أفقر منى يا رسول الله ؟ فو الله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتى .

فضحك النبى ــ ﷺ ــ حتى بدت أنيابه ثم قال :

ــ أطعمه أهلك .

سماحة ويسر ورحمة ما بعدها سماحة ويسر ورحمة .

وخرج رسول الله ــ ﷺ ــ ليلة فى جوف الليل فصلى فى المسجد صلاة التراويح وصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه ، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ فصلى فصلوا بصلاته . فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال :

ــ أما بعد فإنه لم يخف علىّ مكانكم ، ولكنى خشيت أن تفترض عليكم فتعجزوا عنها .

وأمسى يصلى التراويح فى داره رأفة بالمسلمين وما كان يزيد على أحدى عشرة ركعة ، فلا تسل عن حسنهن وطولهن . فقد قال عليه السلام : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

واعتكف رسول الله ــ ﷺ ــ فى المسجد العشر الأواخر من رمضان ،

فجاءت صفية أم المؤمنين تزوره فى اعتكافه فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لتنصرف إلى دارها . فقام النبى — ﷺ — معها حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله — ﷺ — فقال لهما النبى ﷺ :

— على رسلكما ، إنما هى صفية بنت حيى .

— سبحان الله يا رسول الله !.

وكبر عليهما . فقال النبى — ﷺ — :

— إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا .

وانقضى رمضان ووفد زياد بن عبد الله بن مالك ، فلما دخل المدينة توجه إلى منزل ميمونة بنت الحارث زوج النبى — ﷺ — وكانت خالة زياد وهو يومئذ شاب ، فدخل النبى — ﷺ — وهو عندها ، فلما رآه غضب ورجع فقالت :

— يا رسول الله ، هذا ابن أختى .

— إنه ابن عزة بنت الحارث . فدخل عليه السلام إليها ثم خرج حتى أتى المسجد ومعه زياد ، فصلى الظهر ، ثم أدنى زيادا فدعا له ووضع يده على رأسه ثم حدرها على طرف أنفه فكانت بنو هلال تقول :

— ما زلنا نتعرف البركة فى وجه زياد .

٨

دخل الناس فى دين الله أفواجا ، فجاء إلى عامر بن الطفيل قومه وقالوا :

ـــ يا عامر إن الناس قد أسلموا ، فأسلم .

فاربد وجه عامر وقال :

ـــ والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، وأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش .

وبيت عامر بن الطفيل أمرا فشد الرحال هو وأربد بن قيس وجبار بن سمة إلى المدينة ، فبينا هم فى الطريق قال عامر لأربد بن قيس :

ـــ إذا قدمنا على الرجل فإنى سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف .

وأقبل عامر بن الطفيل وأربد يريدان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو بالمسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد فاستشعر الناس لجمال عامر وكان أعور ـــ وكان من أجمل الناس ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك .

ـــ دعه ، فإن يرد الله به خيرا يهده .

فأقبل حتى قام عليه فقال :

ـــ يا محمد ما لى إن أسلمت ؟

ـــ لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين .

ـــ تجعل لى الأمر بعدك ؟
ـــ ليس ذلك إلى ، إنما ذلك إلى الله عز وجل يجعله حيث يشاء .
ـــ تجعلنى على الوبر وأنت على المدر ؟
ـــ لا .
ـــ فماذا تجعل لى ؟
ـــ أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها .
ـــ أوليس لى اليوم ؟! قم معى أكلمك .

فقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ وراح عامر ينتظر من أربد ما أمره به فلم يصنع شيئا وجعل عامر يومئ إليه وأربد لا يحرك ساكنا ، فملأ الغيظ عامر بن الطفيل فقال لرسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ أما والله لأملأنها عليك خيلا ورَجْلا .

ثم خرجا غاضبين ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ اللهم اكفنيهما ، اللهم واهد بنى عامر ، وأغن الإسلام عن عامر .

والتفت عامر بن الطفيل إلى أربد بن قيس والشرر يتطاير من عينيه . مرت لحظة قاسية ثم قال عامر :

ـــ ويلك ! أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخف عندى على نفسى منك ، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا .

قال له أربد :

ـــ لا أبا لك ! لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى لا أرى غيرك ! أفأضربك بالسيف ؟

ونزل عامر بيت امرأة سلولية وأنشأ يقول :

تخير أبيت اللعن إن شئت وُدَّنا
وإن شئت حربا ذات بأس ومَصدق
وإن شئت فتياننا بكفًّى أمرُهم
يكبون(١) كبش العارض المتألِّق

فلما أصبح ضم عليه سلامه وقد تغير لونه وهو يقول :

لعمرى وما عمرى على بهين
لقد شان حر الوجه طعنة مُسْهر(٢)
وقد علم المزنوق أنى أكُرُّه
على جمعهم كر المنيح المسهَّر(٣)
إذا ازور من وقع السنان زجرته
وأخبرته أنى امرؤ غير مُقصر
وأخبرته أن الفرار خزاية
على المرء ما لم يُبد عذرا فيُعذر
لقد علمت عُليا هوازن أننى
أنا الفارس الحامى حقيقة جعفر

فجعل يركض فى الصحراء ويقول :

ـ ابرز يا ملك الموت !

(١) يكبون : يصرعون .

(٢) مسهر : هو مسهر بن يزيد الحارثى وهو الذى غدر بعامر بن الطفيل وطعنه بالرمح ففلق وجنته وشق عينه .

(٣) المزنوق : اسم فرس عامر ، والمنيح : القدح الذى يكسر به القداح ليس له غنم ولا عليه غنم كلما خرج رد .

ثم أنشأ يقول :

ألا قــرِّب المزنــوق إذ جــند مـــا أرى
لتعــــريض يـــوم شره غير حامــــــد
ألا قربـــــاه إن غايــــــة جرينـــــا
إذا قــــرب المزنــــوق بين الصفائـــــد
بنـــو عامــر قومـــى إذا مـــا دعوتُهـــم
أجابـــــوا ولبَّـــــى منهم كل ماجـــــد

ويقول :

ـــ واللات لئن أصحر (١) إلىّ وصاحبه ـــ يعنى ملك الموت ـــ لأنفذنهما برمحى .

وخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه ، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول :

ـــ غدة كغدة البعير ؟

وتمدد عامر بن الطفيل وراح يعدو وراء خياله وهو يلهث . إنه تذكر أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة كان قد قدم على محمد بن عبد الله المدينة فعرض عليه محمد الإسلام ودعاه إليه ، فقال :

ـــ يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك .

ـــ إنى أخشى عليهم أهل نجد .

ـــ أنا لهم جار ، فابعثهم ليدعوا الناس إلى أمرك .

---

(١) أصحر : خرج إلى الصحراء .

فبعث محمد المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة فى أربعين رجلا من أصحابه ؛ إنه ليذكر منهم الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان أخو بنى عدى بن النجار ، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمى ، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر . وإنه لا ينسى أنهم نزلوا بئر معونة ، وإنه ليرى فى وضوح بعين خياله حرام بن ملحان وهو يقدم إليه بكتاب محمد ابن عبد الله . إنه لم ينظر فى الكتاب بل عدا على الرجل فقتله .

واتضحت الصورة فى عين ذاته . إنه يرى نفسه وهو يستصرخ على المسلمين بنى عامر ، وإنه ليحس وهو ممدود فى فراشه نفس ما أحسه فى ذلك اليوم من خيبة أمل فقومه قد أبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، ورن فى أغواره ما قالوه :

ــ لن نُخفر أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا .

ويرى نفسه وهو يستصرخ عليهم قبائل بنى سُليم فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم فقتلوهم إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار فإنهم تركوه وبه رمق .

إنه ظن فى ذلك اليوم أنه انتصر على محمد ، وما ذار بخلده أن بنى سُليم الذين استعان بهم لن يلبثوا أن يدخلوا فى دين محمد .

وضايقه أن الإسلام والمسلمين قد احتلوا فكره فراح ينشد ما قاله فى الفخر بأنه ساد قبيلة بنى عامر بأفعاله :

وإنى وإن كـنت ابـن سيـد عامـر
وفارسهـا المشهـور فى كل مـوكب
فمـا سودتنـى عامـر عـن وراثـة
أبى الله أن أسمو بـأم ولا أب

ولكنني أحمى حماها وأتقى
أذاها وأرمى من رماها بمنكبى

و لم ينشرح صدره ؛ إنه يموت فى بيت السلولية كما يموت البعير . وأراد أن يقاوم عبوسه فراح يتذكر ما كان بينه وبين قيصر فقد بلغ صيته بلاط عاهل الروم ، حتى إن قيصر كان إذا قدم عليه قادم من العرب كان يقول له :

ـــ ما بينك وبين عامر بن الطفيل ؟

فإن ذكر نسبا عظم عنده . وراح عامر يجاهد ليتذكر أيام مجده ، إنه كر على بنى عبس وأخذ امرأة منهم يقال لها أسماء، إنها لبثت عنده يوما وقد استنقدها قومها بعده وإن ذلك اليوم قد حفر فى وجدانه . وراح يتذكر الشعر الذى قاله فى الفخر بذلك ، وإذا بشعر عروة بن الورد الذى عيرهم فيه بأخذ ليلى بنت شعواء الهلالية يطفو على سطح ذهنه :

فإن تأخذوا أسماء موقف ساعة
فمأخذ ليلى وهى عذراء أعجب
فإنا لبسنا حسنها وشبابها
وردت إلى شعواء والرأس أشيب
كمأخذنا حسناء كرها ودمعُها
غداة اللوى معصوبة يتصبب

وأشاح بأفكاره عن تلك الذكريات وجاهد ليتذكر أيام مجده . إلا أن الضعف دب فى أوصاله وراحت المرئيات تتراقص أمام عينيه . فعز عليه أن يموت فى فراشه فراح يتحامل حتى نهض وهو يقول فى إنكار :

ـــ غدة كغدة البعير وموت فى بيتة سلولية !

ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه وهو يقلب وجهه فى السماء ، فإذا بالأرض تدور به وإذا بالوهن يستولى عليه وإذا بأنفاسه تضيق وإذا بقبضة يده ترتخى وإذا به يفقد توازنه فيسقط على الأرض ليلفظ آخر الأنفاس .

وانطلق أصحابه حتى قدموا أرض بنى عامر فأتاهم قومهم فقالوا :

ــ ما وراءك يا أربد ؟

ــ لا شيء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله .

وكان البرد شديدا وقد غامت السماء بسحب ثقال ، فخرج أربد بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما . وكان أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمه فراح لبيد يرثى أخاه ويذرف عليه الدمع الهتون .

ونصبت بنى عامر نصابا ميلا فى ميل حِمى على قبر عامر بن الطفيل ، لا تنشر فيه راعية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش . وكان جبار بن سلمى ابن عامر بن مالك غائبا فلما قدم قال :

ــ ما هذه الأنصاب ؟

ــ نصبناها حمى على قبر عامر .

ــ ضيقتم على أبى علىّ . إن أبا على بان فى الناس بثلاث: كان لا يعطش حتى يعطش الجمل، وكان لا يضل حتى يضل النجم، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل.

وأنزل الله عز وجل فى عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وأصحابهما :

« سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يُغيِّر

ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال . هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال(١) » .

---

(١) سورة الرعد الآيات (١٠ — ١٣) .

٩

التف أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار برسول الله ـ ﷺ ـ وقد صفت قلوبهم وقطعت العلائق كلها ظاهرا أو باطنا إلا بالله ، فإذا بأسرار الله فى ملكوت السماوات والأرض تتكشف لهم ، وإذا بأنوار المعارف تشرق فى أعماق أفئدتهم ، فلم يعد المال يفتنهم ، ولم يشغلهم الولد عن ذكر ربهم ، ولم تلههم نساؤهم عن أن يرابطوا مع الله وأن يصابروا بالله وأن يصبروا مع الله .

أحسنوا التوكل فيما لم ينالوه . وأحسنوا الرضا فيما قد نالوه وأحسنوا الصبر فيما قد فاتهم ، فألبسهم الله لباس التقوى وبذر فى قلوبهم بذرة الإرادة والإخلاص ، ولا جرم فهؤلاء المؤمنون الذين اجتمعوا فى مسجد الرسول هم الذين سيحملون مشعل الهداية إلى أقصى الأرض ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور .

كانت قلوبهم مستعدة لحمل الأمانة ، استودعها الله الإخلاص فظهرت ينابيع الحكمة على ألسنتهم ، وصار الدين روح محبتهم يقود حياتهم ، وأصبح القرآن مصدر الحركة والإشعاع وسرى فى المجتمع الجديد يقظة روحية ويقظة فكرية فتحت أبواب العلم والحكمة لرعاة الإبل وهيأتهم ليصبحوا رعاة شعوب .

وطلع عليهم رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منهم أحد . حتى جلس إلى النبى ـ ﷺ ـ فأسند ركبتيه

إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال :

ـــ يا محمد أخبرنى عن الإسلام .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ الإسلام أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

ـــ صدقت .

فعجبوا له يسأله ويصدقه ، قال :

ـــ فأخبرنى عن الإحسان .

ـــ أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ـــ فأخبرنى عن الساعة .

ـــ ما المسئول عنها بأعلم بها من السائل .

ـــ فأخبرنى عن أمارتها .

ـــ أن تلد الأَمَة ربَّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان .

ثم انطلق الرجل ، ومر بعض الوقت ثم قال ـــ ﷺ ـــ لعمر :

ـــ يا عمر أتدرى من السائل ؟

ـــ الله ورسوله أعلم .

ـــ فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

وجاء رجال يشتدون إلى المسجد وَيقولون فى فرح :

ـــ هؤلاء وفد عبد القيس .

فقال ـــ ﷺ :

— مرحبا بهم ، نعم القوم عبد القيس .

كان رسول الله — ﷺ — قد كتب إلى أهل البحرين أن يقدم عليه منهم عشرون رجلا فقدموا على رأسهم عبد الله بن عوف الأشج ، وفيهم الجارود ابن عمرو بن حنش أخو عبد القيس وكان نصرانيا وكان أكثر رجال الوفد قلقا . إنه على دين وهو قادم ليؤمن بدين آخر وهو لا يدرى أيستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير أم أنه أشرف على طريق البوار .

ونزل الوفد فى دار رملة بنت الحارث وباتوا ليلتهم بيد أن الجارود لم تغمض له عين ؛ إنه يفكر فى دينه الذى هو عليه ويفكر فى الإسلام الذى هو مقدم على اعتناقه فينتابه خوف فلا يسعه إلا أن يبتهل إلى الله أن يهديه سواء السبيل .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالفجر فأصغى الوفد إلى الأذان فأحسوا كأنما قد رفعوا من الأرض إلى السماء . إنه نداء يهز المشاعر وتثرى به الأرواح وتطمئن القلوب . وألقى الجارود سمعه إلى الصوت الذى تردد فى جنبات المدينة فاستشعر خشوعا وقربا إلى الله . إنه عرج به ليقرع أبواب الملكوت .

وخرج رسول الله — ﷺ — إلى المسجد وصلى بالناس ، ثم نظر إلى الأفق فقال :

— ليأتين ركب من المشرق لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا الركاب وأفنوا الزاد بصاحبهم علامة. اللهم اغفر لعبد القيس أتونى لا يسألون مالا ، هم خير أهل المشرق .

فجاءوا فى ثيابهم ورسول الله — ﷺ — فى المسجد فسلموا عليه ، فقال :

— أيكم عبد الله بن الأشج ؟

فقال :

— أنا يا رسول الله .

وكان رجلا دميما . فنظر إليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ إنه لا يستقى فى مُسوك (جلود) الرجال . إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه : لسانه وقلبه .

ودار الحديث بين عبد الله بن الأشج ورسول الله ـــ ﷺ ـــ والجارود يصغى إلى حديث رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ويقلب عينيه فى وجهه فيحس راحة . وإذا بكلام رسول الله ـــ ﷺ ـــ يستولى على لبه وينير له قلبه فترتفع الغشاوة عن عين بصيرته فيرى الحق الأبلج ويؤمن فى أعماقه أنه قد هدى إلى الصراط .

وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لابن الأشج :

ـــ فيك خصلتان يحبهما الله تعالى .

ـــ وما هما ؟

ـــ الحلم والأناة .

ـــ أشىء حدث أم جبلت عليه ؟

ـــ بل جبلت عليه .

وراح رسول الله ـــ ﷺ ـــ يكلم الجارود فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ورغبة فيه ، فقال الجارود :

ـــ يا محمد إنى قد كنت على دين وإنى تارك دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى ؟

ـــ نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه .

ومكث وفد عبد القيس عشرة أيام فى ضيافة النبى ـــ ﷺ ـــ فكان عبد الله بن الأشج يجلس إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يصغى إلى عذب حديثه ويلقى سمعه إلى القرآن ويتفقه فى دينه . وكان الجارود بن مرو يتلفت بعينين

فاحصتين فيرى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويبكون سرا من خوف عذابه ، أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء ، أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة ، رهبانا فى الليل فرسانا فى النهار ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . فإذا بصدره ينشرح وإذا بقلبه يطمئن وإذا به يبتهل إلى الله ودموعه تجرى على خديه أن يكون من هؤلاء الأبرار الذين يمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة .

وكان ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ إذا تحدث إلى عبد الله بن الأشج حدثه فى الفرائض والسنن حديثا عميقا ، وإذا ما تحدث إلى الجارود حدثه حديثا يتصل بما كان عليه من دين وما كانت عليه النصرانية وما اعتورها من تحوير ، وإذا تحدث إلى عامة الوفد تحدث إليهم حديثا هينا لينا فهو القائل : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » .

وتأهب وفد عبد القيس للعودة إلى البحرين فبدا كأنما الرجال غير الرجال ، مستهم عصا سحرية فثيابهم نظيفة قد تطهرت الأبدان والسرائر وانعكس نور القلوب على الوجوه فترقرقت فيها أضواء الإيمان ، وزادهم علم القرآن شرفا ، وكشف اللثام عن جواهر الحقيقة رفعة ، وعرفوا لذة التسبيح والنظر إلى وجه الله ، فما أخصب الألسنة وأخصب القلوب . « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .[1] » .

وحان أوان الرحيل فسأل الجارود رسول الله ـــ ﷺ ـــ الحُمْلان . فقال عليه السلام :

ـــ والله ما عندى ما أحملكم عليه .

---

(١) سورة الزمر الآية (٩) .

لم يكن عند رسول الله — ﷺ — ما يركبون عليه من الدواب ، ولو كانت عنده لما بخل فإنه أجود من الريح المرسلة ، وشرد الجارود برهة ثم قال :

— يا رسول الله فإن بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال الناس ، أفنتبلغ عليها إلى بلادنا ؟

كان الجارود يستأذن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يركبوا إبل الناس الضالة حتى يصلوا إلى ديارهم وكان يحسب أن ذلك أمر هين ، ولكن رسول الله — ﷺ — الذى كان على الدوام يشحذ ضمائر أصحابه قال :

— لا ، إياك وإياها فإنما تلك حَرَق النار .

إنها إبل ضالة بيد أن لها أصحابا يبحثون عنها ، فإن ركبها الجارود ورفاقه وساقوها إلى بلادهم فلن يعثر عليها الذين قد يخرجون فى طلبها وبذلك يضيع على صاحب الحق حقه . وما بعث رسول الإسلام — ﷺ — إلا ليحُق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

وأمر لهم رسول الله — ﷺ — بجوائز ، وفضل عليهم عبد الله بن الأشج فأعطاه اثنتى عشرة أوقية ونشا ، ثم خرجوا عقب أن أقاموا عشرة أيام فى ضيافة نبيهم الكريم وفى قلوبهم أنوار قد انكشفت لهم أكثر الحقائق بكشف إلٰهى بعد أن شرح الله صدورهم للإسلام : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يَصَّعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .(١) » .

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٢٥) .

١٠

انطلق الصحابة إلى المسجد ، إلى جامعتهم الكبرى حيث يتلقون أشرف علم ويحيون قلوبهم بنور حكمة رسول الله ـــ ﷺ ـــ وجلسوا إليه يصغون وهو يقول :

ـــ إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع به فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض .

ثم تلا : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون . »[1] .

ثم قال :

ـــ كلا والله ولتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتقصرنه على الحق قصرا ، وليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم .

---

(١) سورة المائدة الآيات (٧٨ ـــ ٨١) .

كانت عقولهم راغبة فى المعرفة فألقوا أسماعهم إلى رسول الله — ﷺ — ليتحرروا من كل شر . من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، وليسموا بأنفسهم فوق الأهواء والنزوات ، فأصبحوا على يقين من أنهم على الصراط المستقيم وأنهم قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين .

وجاء إلى المسجد من يقول :

— وفد بكر بن وائل .

وإذا بذكر بكر بن وائل يعيد إلى الأذهان ذكريات الوأد ، فالنعمان بن المنذر ملك الحيرة قد غضب على بنى تميم لما منعوه الأتاوة التى كانت عليهم ، فجرد إليهم النعمان أخاه الريان مع دوسر ، وكانت دوسر إحدى كتائبه وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل ، فاستاق نعمهم وسبى ذراريهم.فوفدت وفود بنى تميم على النعمان بن المنذر وكلموه ، فحكم النعمان بأن يجعل الخيار فى ذلك إلى النساء . فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه . فاختلفن فى الخيار وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها ، فنذر قيس ابن عاصم أن يدس كل بنت تولد له فى التراب فوأد بضع عشرة بنتا ، ثم جاء قيس فى وفد بنى تميم إلى رسول الله — ﷺ — وأعلن على الملأ إسلامه وندم على وأد بناته . فقال له — ﷺ :

— إن الإسلام يجب ما قبله .

وهيج قدوم وفد بكر بن وائل الذكريات ، فراح الناس يذكرون أيام العرب أيام كانت القبائل تغير على القبائل تقتل وتسلب وتسبى دون وازع من ضمير أو خوف من قانون . فقانون القوة هو الذى كان يسود جزيرة العرب قبل أن ينعم عليهم بالإسلام ويؤلف بين قلوبهم ، وقبل أن يكون شرع الله هو الذى ينظم العلاقات فى جمهوريتهم الفاضلة .

تذكروا يوم نقا الحسن يوم انتصر بنو ثعلبة بن سعد بن ضبة على بكر بن وائل ، وتذكروا يوم ضرية لما حالف بنو عمرو بن تميم بكر بن وائل وخرجوا لقتال سعد والرباب ورئيس سعد والرباب قيس بن عاصم . لقد دار فى ذلك اليوم حوار عاقل فقد قيل لقيس بن عاصم :

ـــ من لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلتهم ؟

ـــ نحن .

ـــ فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلتكم ؟

ـــ هم .

ـــ فدعوهم لعيالهم وليدعوكم لعيالكم .

وكان أن قبلوا الصلح وأبى ذلك مالك بن نويرة .

وتراقص على الألسنة المثل القائل : « أعدى من السليك » . فالسليك كان من العدائين وقد حدث أنه رأى طلائع الجيش من بكر بن وائل جاءوا متجردين ليغيروا على بنى تميم ولا يعلم بهم ، فقالوا :

ـــ إن علم بنا السليك أنذر قومه .

فبعثوا إليه فارسين على جوادين ، فلما هايجاه خرج يعدو كأنه ظبى فطارداه يوما أجمع ثم قالا :

ـــ إذا كان الليل أعيا فيسقط فنأخذه .

فلما أصبحا وجدا أثره قد عثر بأصل شجرة وقد وثب وانحطمت قوسه ، فوجدا قطعة منها ثبتت بالأرض فقالا :

ـــ لعل هذا كان من أول الليل ثم فتر .

فتبعاه ولكنه لم يفتر ، استمر يعدو حتى وصل إلى قومه فأنذرهم فكذبوه لبعد الغاية . وجاء الجيش فاغار بنو بكر بن وائل عليهم والسليك يتميز غيظا ،

فلو أطاعه قومه لما كانوا لقمة سائغة لبكر بن وائل .

وعادت إلى الأذهان تلك الأيام التى كانت بين ربيعة وبكر بن وائل حتى اعتزل الحرث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة فارس ربيعة حرب بنى وائل . وتنحى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه ، وحل وتر قوسه ونزع سنان رمحه و لم يزل معتزلا ، حتى خرج ابن أخيه بجير بن عمرو بن عباد فى أثر إبل له ندت يطلبها فعرض له مهلهل بن ربيعة فى جماعة يطلبون غرة بكر بن وائل ، فقيل لمهلهل :

ـــ لا تفعل ، فو الله لئن قتلته ليقتلن منكم كبش لا يسأل عن خاله من هو ، وإياك أن تحقر البغى فإن عاقبته وخيمة . وقد اعتزلنا عمه وأبوه وأهل بيته وقومه .

فأبى مهلهل إلا قتله فطعنه بالرمح وقتله وقال :

ـــ بؤ بشسع نعل كليب .

فبلغ فعل مهلهل الحرث عم بجير وكان من أحلم أهل زمانه وأشدهم بأسا ، فقال الحرث :

ـــ نعم القتيل قتيل أصلح بين ابنى وائل :

فقيل له :

ـــ إنما قتله بشسع نعل كليب .

فلم يقبل ذلك وأرسل الحرث إلى مهلهل :

ـــ إن كنت قتلت بجيرا بكليب وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسى بذلك .

فأرسل إليه مهلهل :

ـــ إنما قتلته بشسع نعل كليب .

فغضب الحرث ودعا بفرسه وكانت تسمى النعامة ، فجز ناصيتها وهلَب ذنبها وهو أول من فعل ذلك بالخيل . ثم ارتحل مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل وعليهم يومئذ الحرث بن هشام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، فقال الحرث بن عباد له :

ـــ إن القوم مستقلون قومك وذلك زادهم جراءة عليكم ، فقاتلهم بالنساء !

فقال له الحرث بن همام :

ـــ وكيف قتال النساء ؟

ـــ قلد كل امرأة إداوة من ماء وأعطها هراوة واجعل جميعهن من ورائكم فإن ذلكم يزيدكم اجتهادا وعلموا بعلامات يعرفنها . فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه .

فأطاعوه ، وحلقت بنو بكر يومئذ رءوسها استبسالا للموت وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم واقتتل الفرسان قتالا شديدا .

كان بنو بكر بن وائل فى قتال دائم مع من حولهم من القبائل حتى النساء كن يشتركن فى الحروب . وقد جاءوا ليعلنوا إسلامهم وتطهير قلوبهم من الحقد وقبولهم طائعين أن يكونوا أعضاء صالحين فى المجتمع الجديد بعد أن هداهم الله إلى النور .

وقد تقدموا إلى مسجد رسول الله ـــ ﷺ ـــ وفى وجوههم بشر وفى صدورهم آمال، وكان فيهم عبد الله بن أسود بن شهاب بن عوف بن عمرو ابن الحارث بن سدوس وكان ينزل اليمامة ، فباع ما كان له من مال فى اليمامة وهاجر إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد وطد النفس على أن يكون إلى جواره

ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يستمد منه البركات .

وقدم الوفد على النبى ــ ﷺ ــ وجلسوا إليه يصغون إلى أحسن الحديث ، فإذا بعقمهم الروحى يتلاشى وإذا بهم يرتفعون إلى النبع الصافى ليتحدوا مع الطاقة الروحية التى تعلن عن الكون وتحكمه ، وإذا بهم يكتشفون ذواتهم فى نور الله وقد بدأت رحلة أنفسهم المشرقة إلى الله بخفقات قلوبهم المؤمنة التى أشرقت بنور ربها .

وطاف ببعض الرءوس ما كان من خبر أعشى بن قيس بن ثعلبة بن عكاية ابن صعب بن على بن بكر بن وائل ، إنه خرج إلى رسول الله ــ ﷺ ــ يريد الإسلام أيام أن كان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فى مكة ، فقال يمدح رسول الله ــ ﷺ :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وبت كما بات السليم مسهدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما
تناسيت قبل اليوم صُحبة مَهددا[١]
ولكن أرى الدهر الذى هو خائن
إذا أصلحت كفَّاىَ عاد فأفسدا
كُهولا وشبانا فقدْت وثروةً
فلله هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت أبغى المال مذ أنا يافع
وليدا وكهلا حين شبتُ وأمردا

(١) مهددا : اسم امرأة .

وأبتــذل العِيس المراقيــل تغتــلى
مسافــة مــا بين النُّـجير فَصرخــدا(١)
ألا أيُّهــذا السائلى أيــن يَمَّـمتْ
فــإن لها فى أهــل يثرب موعــدا
فــإن تسألى عنــى فيــارُب سائــل
حفــىّ عــن الأعشى بــه حــيث أصعــدا
أجــدَّت برجــليها النجــاء وراجــعَت
يداهــا خِنافــا ليِّنــا غير أحــردا(٢)
وفيها إذا مــا هجَّــرت عجرفيــة
إذا خِــلت حِربــاء الظــهيرة أصيــدا
وأمــا إذا مــا أدلَــجَت فتــرى لها
رقيــبين جديــا مــا يغــيب وفرقــدا
فآلــيت لا آوى لها مــن كلالــة
ولا مــن حَفــىّ حتــى تــلاقى محمــدا
متى ما تُناخى عند بــاب ابــن هــاشم
تراحــى وتلقــى مــن فواضلــه نــدا
نبــىّ يــرى مــالا تــرونَ وذكــره
أغــار لعمــرى فى البــلاد وأنجدا

(١) العيس المراقيل : الإبل المسرعة ، النجير : حصن قرب حضر موت ، صرخد : موضع بالشام .

(٢) أجدت : سلكت . النجاء : السرعة فى السير . الخناف : لين فى أرساغ البعير . أحرد : البعير الذى يخبط بيديه إذا سار .

لـــه صدقـــات مـــا تُـــغِبُّ ونائـــل
وليس عطـــاء اليـــوم مانعـــه غـــدا
أجـــدَّك لم تسمـــع وصاة محمـــد
نبـــى الإلـــٰـه حـــيث أوصى وأشهـــدا
إذا أنت لم ترحـــل بـــزاد مـــن التُّقـــى
ولاقـــيت بعـــد للموت مـــن قـــد تـــزوَّدا
نـــدمت على ألا تكـــون كمثلـــه
فتـــرصِد للأمـــر الـــذى كان أرصدا
فإيـــاك والميتـــات لا تقربنَّهـــا
ولا تأخـــذن سهمـــا حديـــدا لتـــفصِدا
ولا الـــنُّصب المنصوب لا تنسكنَّـــه
ولا تعبـــد الأوثـــان والله فاعبـــدا
ولا تقرَبـــنّ جـــارة إن سرَّهـــا
علـــيك حـــرام فانكحَـــنْ أو تأبَّـــدا
وذا الرحـــم القُـــربى فـــلا تقطعنَّـــه
لعاقبـــة ولا الأسير المقيَّـــدا
وسبـــح على حين العشيـــات والضحـــى
ولا تحمـــد الشيطـــان والله فـــاحمدا
ولا تسخـــرن مـــن بـــائس ذى ضراوة
ولا تحسبـــنَّ المال للمـــرء مخلـــدا

فلما كان بمكة أو قريبا منها اعترضه بعض المشركين من قريش ، فسأله عن أمره فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ــ ﷺ ــ ليسلم ، فقال له :

— يا أبا بصير إنه يحرم الزنى .

فقال الأعشى له :

— والله إن ذلك لأمر ما لى فيه من أرب .

— يا أبا بصير إنه يحرم الخمر .

— أما هذه فو الله إن فى النفس منها لعلالات ولكنى منصرف فأتروى منها عامى هذا ثم آتيه فأسلم .

فانصرف فمات فى عامه ذلك و لم يعد إلى رسول الله — ﷺ — ولو أنه كان قد أسلم لكان سابق بكر بن وائل .

جاء وفد بكر بن وائل من أرض الضباع ، أفئدتهم مثقلة بالذنوب وأيديهم ملطخة بدماء الأبرياء وألسنتهم قد جفت من طول ترديد كلمات الثأر والانتقام ، فإذا بهم يعودون من عند رسول الله — ﷺ — وقد تحرروا من العبودية والذلة والمسكنة بعد أن تلقوا الضياء الربانى ، فاهتدوا إلى محبة البشر ، وأشرق وجودهم بالاندماج فى الوجود بمحض حريتهم ، فأصبحوا متفرحين فى الله يعيشون مع الله ويحيون بالله ، ورطبت ألسنتهم بذكر الله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

١١

بضعة عشر رجلا على رحالهم يتقدمون من مسجد الرسول على رأسهم سلمى بن حنظلة وفيهم مسيلمة بن حبيب وهو الكذاب وما كان أحد من أهل المدينة يعرفه ، وكان يتلفت وهو مشدوه فهو يرى رجالا يكاد أن يشع من وجوههم نور قد نزلت بهم سكينة عجيبة لكأنما قد طرحوا عن كواهلهم كل متاعب الحياة . فأطرق يفكر فى ذلك الرجل الذى طور حياة المؤمنين برسالته فاستشعر عقارب الغيرة تنهش فؤاده . وتمنى لو كان هو صاحب الرسالة الذى أخرج قومه من الظلمات إلى النور .

وراحت الأفكار تنثال على رأسه وكانت كلها أفكارا شريرة من نسج شيطان ، وقام فى نفسه سؤال لماذا يذيع اسم محمد بن عبد الله فى قبائل العرب بينما يظل هو مجهولا فى اليمامة لا يكاد اسمه يتجاوز الحى الذى نشأ فيه ؟ إنه قرآن محمد ، إنه سحر بيانه ،.. ولماذا لا يكون له قرآن مثل قرآن محمد وهو لا يقل عنه فصاحة ؟! سيكون له وحى وقرآن وصحابة وأنصار ومؤمنون .

إن محمدا أصبح فى جزيرة العرب كالطود الأشم ، إنه لمن الجنون أن يحاول أن يزعزع مجده بعد أن توطدت أركانه ، فلماذا لا يشاركه النبوة فيكون له مثل ما لابن عبد الله من احترام وتوقير وذيوع صيت ؟!

ودخل رجل على رسول الله ــ ﷺ ــ وقال :

ــ وفد بنى حنيفة .

فأمر رسول الله ــ ﷺ ــ بإنزالهم دار رملة بنت الحارث ، فاتجه الوفد

إلى دار الأنصارية ونزلوا به ينفضون عنهم وعثاء الطريق . وظل مسيلمة فريسة لأفكاره الشريرة التى استبدت به وقام فى نفسه سؤال : أيجد فى أرض اليمامة مثل رملة بنت الحارث النجارية تعطيه دارها عن طيب خاطر لينزل بها من يقدم عليه من الوفود ؟ لم تكن رملة بدعة بين المسلمين ، إنهم جميعا يتنافسون فى تقديم ما يملكون من أموال وعواطف صادقة لنبيهم الذى صار قرة عين الجميع ، فتمنى مسيلمة أن يكون له قوم يحبونه مثل حب المسلمين لنبيهم وأن يوقروه توقير المسلمين لرسول الله ، وإنه لشىء تهفو إليه النفوس أن تكون موضع توقير وتقديس .

وأجريت على الوفد الضيافة فأتوا رسول الله — ﷺ — فى المسجد فسلموا عليه وشهدوا شهادة الحق وخلّفوا مسيلمة فى رحالهم ، فكان ينتهز وحدته ليطلق لخياله العنان فيرى نفسه فى قومه يزعم أنه رسول الله ويفكر فيما يحلل وفيما يحرم ، وعرف بجبلته أن الناس يحبون الشهوات فرأى أنه لو أطلق للنفوس الفاجرة حريتها فسيجد الأنصار ، ولو فتح الأبواب التى أغلقها محمد ابن عبد الله فى وجه الشر لتدفق منها أناس يضيقون بالفضيلة وبتقييد حرية الأموال لينضموا إلى دينه يدافعون حتى الموت .

وكان رجّال بن عُنفوة يتعلم القرآن من أبىّ بن كعب ، فإذا ما عاد إلى دار رملة فى المساء هرع إليه مسيلمة وألقى إليه السمع وقد أرهفت إليه كل حواسه ، فهو يحاول أن يحفظ قدر ما يستطيع من الذكر وأن يسرى جرسه وموسيقاه فى دمه حتى يستطيع أن يحاكيه يوم يزعم أن الوحى قد أتاه بقرآن من فوق سبع سموات .

وفى الصباح أسرع الرجال إلى مسجد رسول الله — ﷺ — ليزكوا قلوبهم بحكمة رسول الله — ﷺ — وظل مسيلمة فى رحالهم يغدو ويروح

يحاول أن يسجع الأساجيع وأن يضاهى القرآن ، فجعل يغمغم : « يا ضفدع كم تنقين . لا الشراب تمنعين . ولا الماء تكدرين » : واستمر يتلو ما حفظ من قرآن مجيد ليقيس على آياته البينات سجعاته !

وأرادوا الرجوع إلى بلادهم فأمر لهم رسول الله — ﷺ — بجوائزهم : خمس أواق لكل رجل فقالوا :

— يا رسول الله خلّفنا صاحبا لنا فى رحالنا يبصرها لنا ، وفى ركابنا يحفظها علينا .

فأمر له رسول الله — ﷺ — بمثل ما أمر لأصحابه وقال :

— ليس بشركم مكانا لحفظه ركابكم ورحالكم .

وعاد الرجال إلى دار رملة وقدموا إلى مسيلمة خمس أواق فضة جائزته وقالوا له فيما قالوا :

— قال رسول الله — ﷺ — عنك : ليس بشركم مكانا لحفظه ركابكم ورحالكم .

فتلقفها مسيلمة فقال :

— عرف أن الأمر إلىّ من بعده .

وأعطاهم رسول الله — ﷺ — أداوة من ماء فيها فضل طهوره فقال :

— إذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوا مكانها مسجدا .

وعاد وفد بنى حنيفة وفى رءوس الرجال أفكار ، مسيلمة يعصر ذهنه فيرى أن مشاركة محمد بن عبد الله فى نبوته خير له من أن يكذب محمدا ويدعى النبوة وحده ، ورجّال بن عنفوة ينفس على أبى بكر وعمر وصحابة رسول الله — ﷺ — مكانتهم فى الإسلام . إنه كان يتعلم القرآن من أبىّ بن كعب وكانت

النشوة بما يسمع تهزه من الأعماق . فإذا ما خلا بنفسه راحت الغيرة من صحابة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — تنهش قلبه ، فغروره يصور له أنه أفضل من أبى بكر وعمر وعثمان وسعد بن عبادة وكل الأنصار ، فلو أنه كان من أوائل المسلمين لكان قد أخذ مكانته فى الإسلام .

إن إسلامه تأخر وقد أصبح كعامة المسلمين وهو لا يرضى لنفسه إلا الصدارة ، فما دام أبو ثمامة مسيلمة بن حبيب الحنفى قد زعم أن الأمر إليه من بعد رسول الله عليه السلام فلماذا لا ينصره ويؤيده فى دعوته ليكون له وزيرا وليكون منه مثل أبى بكر وعمر وعثمان من محمد بن عبد الله ؟!

وكان الأقعس بن مسلمة وطلق بن على بن قيس وسلمى بن حنظلة لا يفتأون يعيشون فى ذكريات تلك الأيام التى عاشوها وهم يلقون أسماعهم إلى حكمة رسول الله — ﷺ — فيستشعرون غبطة ونموا روحيا وثروة باطنية وخصبا ونورا يبدد ظلمات الحياة .

وقدموا بلدهم فكسروا بيعتهم ، وراح طلق بن على يؤذن :

— الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر . أشهد ألا إلـه إلا الله . أشهد ألا إلـه إلا الله . أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ..

وخرج الناس من دروهم ليصلوا فى المسجد ، وسمع راهب البيعة الأذان فقال :

— كلمة حق .

وهرب فكان آخر العهد به ، وضاق صدر مسيلمة لما رأى قومه يشهدون لمحمد عليه السلام بالرسالة ، ونفد صبره فقال :

— أنا شريك محمد فى النبوة وجبريل عليه السلام ينزل علىّ كما ينزل عليه .

واستخفه القوم وضحكوا منه فقام فيهم وقال :

— يا بنى حنيفة ما جعل الله قريشا أحق بالنبوة منكم ، وبلادكم أوسع من بلادهم وسوادكم أكثر من سوادهم وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم .

وأظهروا شتمه وعيبه وتصغيره فاستشهد برجَّال بن عنفوة أن رسول الله — ﷺ — أشركه فى الأمر فشهد له . وراح مسيلمة يركب الصعب والذلول فى تقوية أمره ويعتضد برجَّال بن عنفوة وهو ينصره ويذب عنه ويصدق أكاذيبه ويتلو قرآنه : « والشمس وضحاها ، فى ضوئها ومجلاها ، والليل إذا عدَّاها ، يطلبها ليغشاها ، فأدركها حتى أتاها ، وأطفأ نورها فمحاها » ، « سبح اسم ربك الأعلى . الذى يسر على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى . من بين أحشاء ومعى . فمنهم من يموت ويدس فى الثرى . ومنهم من يعيش ويبقى إلى أجل ومنتهى . والله يعلم السر وأخفى . ولا تخفى عليه الآخرة والأولى » .

وأحل مسيلمة الخمر والزنا ووضع عن أتباعه الصلاة ، وظل يشهد لرسول الله — ﷺ — بأنه نبى ، ففتحت الفتنة أبوابها وولج الناس منها، فقد أباح لهم ما تشتهيه أنفسهم . وجعلوا يسألونه أن يدعو لمريضهم ويبرك لمولودهم فانحرفت بنو حنيفة عن جادة الطريق : « يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سمَّاعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .(١) » .

---

(١) سورة المائدة الآية (٤١) .

١٢

كان زيد الخيل طويلا جسيما موصوفا بطول الجسم وحسن القامة ، وكان يركب الفرس العظيم الطويل فتخط رجلاه فى الأرض كأنه راكب حمارا . وقيل له زيد الخيل لخمسة أفراس كانت له . إنه من طئ ومن أشهر فرسان اليمن وهو شاعر محسن خطيب لسن شجاع ، وكان يلقى فرسان القبائل فيصرعهم فسار الركبان بذكره ومشى الرواة بشعره .

وكانت بينه وبين عامر بن الطفيل عداوة وكان عامر من أشهر فرسان العرب بأسا ونجده وأبعدها اسما ، حتى بلغ أن قيصر كان إذا قدم عليه قادم من العرب قال : ما بينك وبين عامر بن الطفيل ؟ فإن ذكر نسبا عظم عنده . فالتقى زيد بعامر فأسره وجز ناصيته فطار الخبر فى القبائل حتى قرع آذان الناس بمكة .

وكان بينه وبين كعب بن زهير هجاء لأن كعبا اتهمه بأخذ فرس له ، وكان ذلك الهجاء يروى فى مجالس قريش عند الكعبة ، فقد كانت القصائد تعرض على قريش فإن أجازت منها قصيدة علقتها فى جوف الكعبة عند إلـٰههم هبل رب الشعر .

وسمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو فى مكة بشجاعة زيد وكرمه ومكارم أخلاقه . فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة كانت أخبار زيد الخيل تنتقل مع الركبان من اليمن إلى يثرب فيتلقفها الرواة والسُّمـَّـار ، وكانت تصل إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ كما كانت تصل إليه أخبار رجالات العرب وفرسانهم .

وقدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة ورسول الله — ﷺ — بها ، فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا فقالوا له :

— يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرِّق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته . وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

وما زالوا به حتى أجمع ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه ، فغدا إلى المسجد فإذا برسول الله — ﷺ — قائم يصلى عند الكعبة ، فقام منه قريبا فأبى الله إلا أن يسمعه بعض قوله ، فسمع كلاما حسنا فقال فى نفسه :

— واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

والتقى الطفيل برسول الله — ﷺ — فعرض عليه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الإسلام وتلا عليه القرآن فأسلم وشهد شهادة الحق ، ثم عاد إلى دوس يدعو الناس إلى الدين القيم .

وسمع زيد الخيل بإسلام الطفيل بن عمرو وبإسلام دوس ، وألقى سمعه إلى القرآن المجيد فإذا بآياته تعزف لحنا سماويا على أوتار قلبه ، وإذا به يقر فى أعماق نفسه أنه ما سمع قولا قط أحسن منه ، ولكنه راح يشاور رأسه ويتجاهل قلبه فأغلق ذاته فى وجه النور الذى كاد يشرق فى صدره .

وهاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وكانت بينه وبين قريش غزوات كانت أحداثها تروى فى أسواق عكاظ ومجنة وذى مجاز وحباشة ويسمر بها السمار فى القبائل . وكان القرآن يتلى فى نوادى القوم فإذا به يغزو قلوبا

ويشرح صدورا للإسلام ، بينما ظل زيد الخيل على دينه فهو مأخوذ بسحر الملموس والمرئى والمسموع ، وهو مشغول بالطعن والنزال ، يعيش فى زحمة الحياة ليس لديه وقت ليقبع فى ذاته ويصحب نفسه ليتأمل تأملا باطنيا يهديه إلى الصراط .

وفتح الله على رسوله مكة فهز ذلك الحدث العظيم القبائل هزا شديدا حتى الأعماق ، فراح الناس يفكرون فى ذلك الدين الذى مكن أتباعه المستضعفين فى الأرض من أن يغزوا قريشا وأن يحطموا آلهتهم وآلهة القبائل وأن يجعلوا البيت العتيق منارة لتوحيد الله ، فإذا بقلوب تنشرح للإسلام وإذا بقلوب يملؤها الحقد والحسد فتضمر الشر لرسول الإسلام والسلام . وكان عامر بن الطفيل ممن أضمر الشر للنبى الكريم — عليه صلوات الله وسلامه — فقدم على المدينة وهو يريد الغدر برسول الله فقد أغضبه أن قومه قالوا له :

— يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم .

— والله لقد كنت آليت ألا أنتهى عن تتبع العرب عقبى ، فأنا أتبع هذا الفتى من قريش !

وذهب عامر بن الطفيل إلى رسول الله — ﷺ — يملى شروطه :

— أتجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولىّ الأرض بعدك فأسلم .

فأبى عليه — ﷺ — فانصرف عامر وقال :

— أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجلا .

حتى إذا كان ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه فجعل يقول :

— يا بنى عامر أغدة كغدة البكر[١] فى بيت امرأة من بنى سلول ؟

ومات عامر بن الطفيل وبلغ خبر موته زيد الخيل ، فأطرق يفكر وارتمى فى أحضان الوحدة للبحث فى أعماق نفسه عن جوهر الحقيقة فإذا بآيات القرآن ترن رنينا عذبا فى وجدانه ، وإذا بصراع ينشب فى صدره بين باعث الدين وباعث الهوى ، وإذا بالنور يدحر الظلمات ، وإذا باليقين يستقر فى أعماقه ، وإذا بالعين تفيض بالدمع خشية من الله ، وإذا به يصدر أوامره لقومه بأن يتأهبوا للخروج إلى رسول الله — ﷺ .

ووفد على رسول الله — ﷺ — وفد طىء خمسة عشر رجلا رأسهم وسيدهم زيد الخيل بن مهلهل من بنى نبهان ، ووقف المسلمون فى المدينة يرقبون الوفد ويرصدون حركات وزر بن جابر بن سدوس النبهانى قاتل عنترة فارس بنى عبس .

وانطلقوا إلى المسجد حتى إذا ما بلغوه عقلوا رواحلهم بفنائه ، ثم دخلوا فدنوا من رسول الله — ﷺ فعرض عليهم الإسلام فأسلموا .

وكان حوار بين رسول الله — ﷺ — وبين زيد الخيل ، وأعجب عليه السلام بزيد فسماه زيد الخير وقال عليه السلام :

— ما ذكر لى رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لى إلا ما كان من زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه .

وأصابت حمى المدينة زيد الخير ، فهرعت إليه زوجه تمرضه وجعل ابناه مكنف وحارث يعودانه . وأجاز رسول الله — ﷺ — وفد طىء بخمس أواق فضه لكل رجل منهم وأعطى زيد الخير اثنتى عشرة أوقية ونشا ، وقطع

---

(١) البعير .

له قيد وهو منزل فى نجد بطريق مكة من العراق وأرضين معه وكتب له كتابا .

وخرج زيد الخير مع قومه راجعا ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— إن يُنجَ زيد من حمى المدينة فإنه ...

وصمت رسول الله — ﷺ — فلم يكن فى عمر زيد بقية ، فإنه لما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له فردة اشتدت عليه الحمى وأحس بالموت فقال :

أمرتحل قومى المشارق غدوةً
وأُترك فى بيت بفَردة منجدِ[١]
ألا رب يوم لو مرضت لعادنى
عوائد من لم يُبر منهن يجهد[٢]

ومات زيد فاستولى الجزع على امرأته ، فعمدت إلى ما كان معه من كتبه التى قطع له رسول الله — ﷺ — فحرّقتها بالنار ، ولم يجزع ابناه مكنف وحارث بل قالا :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »[٣] .

---

(١) منجد : أى بنجد .

(٢) يبرى (بالبناء للمجهول) أى يبريه السفر ويضعفه .

(٣) سورة البقرة الآيات (١٥٣ — ١٥٧) .

١٣

الوفود تتتابع ، فما يكاد وفد يغادر دار رملة بنت الحارث حتى يأتى وفد آخر لينزل بدار الوفود ، وبلال يسهر على راحة الذين شدوا الرحال إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ويحسن ضيافتهم ، حتى إذا ما تأهبوا للعودة إلى بلادهم بعد أن يشرح الله صدورهم للإسلام يعطى كل رجل منهم جائزته ، فقد كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ لا يبخل بما عنده وإن مر شهر وشهران دون أن يوقد فى دار من دوره نار لطبيخ أو لسواه .

وقدم وفد تُجيب على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهم ثلاثة عشر رجلا ، وساقوا صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم فسر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بهم وقال :

ـــ مرحبا بكم .

وأكرم منزلهم وحياهم وأمر بلالا أن يحسن ضيافتهم وجوائزهم ، وأعطاهم أكثر مما كان يجيز به الوفد وقال :

ـــ هل بقى منكم أحد ؟

ـــ غلام أخلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سنا .

ـــ أرسلوه إلينا .

فأقبل الغلام إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ إنى امرؤ من بنى أبناء الرهط الذين أتوك آنفا ، فقضيت حوائجهم فاقض حاجتى .

ـــ وما حاجتك ؟

ـــ تسأل الله أن يغفر لى ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبى .

ـــ اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه .

ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه ، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم وراحوا يمارسون الحياة ، أما الغلام فما رؤى مثله أقنع منه بما رزقه الله .

وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أثخنوهم فى يوم كان يقال له يوم الردم . فقال فروة بن مسيك المرادى فى ذلك اليوم :

مـــررنَ على لُفـــات وهـــن خُـــوضٌ
ينازعـــــنَ الأعنَّـــــةَ ينتحينـــــا(١)

فـــإن نَغـــلِبْ فغلاَّبـون قِدْمـــا
وإن نُغْـــلَب فغيـــرُ مُغلَّبينـــــا

ومـــا إن طِبُّنـــا جُبْـــن ولكـــن
منايانـــــا وطُعْمـــــةُ آخرِينـــــا(٢)

كـــذاك الدهـــر دولتـــه سجـــالٌ
تكُـــرُّ صروفُـــه حينـــا فحينـــا(٣)

---

(١) لفات : من ديار مراد ، وخوض : غائرات العيون ، وينتحين : يعترضن ويتعمدن .

(٢) طبنا : ما دهرنا وشأننا وعادتنا ، ومعنى هذا الشعر : إن كانت همدان ظهرت علينا فى يوم الردم فغلبتنا ، فغير مغلبين . والمغلب الذى يغلب مرارا ، أى لم نغلب إلا مرة واحدة .

(٣) سجال : تارة للإنسان ، وتارة عليه .

فبينـــا مـــا نُسَرُّ بـــه ونـــرضى
ولـــو لَـبست غَضارتــه سنينـــا(١)
إذا انقلـــبت بـــه كـــرّات دهـــر
فألفـــيت الأولى غُبطـــوا طحينـــا(٢)
فمـــن يُغبَـــط بـــريب الدّهـــر منهم
يجد ريب الزمـــانِ لـــه تَخُونـــا
فلـــو خلَـــد الملـــوك إذن خلَدنـــا
ولـــو بقـــى الكـــرام إذن بقينـــا
فأفنـــى ذلكـــم سَرَوَاتِ قومـــى
كما أفنـــى القـــرون الأوّلينـــا(٣)

وانطلق فروة بن مسيك إلى كندة ولزم ملوكها ، وتصرمت الأيام وإذا بالقلوب قد تغيرت وإذا بالعلاقات الطيبة التى كانت بينه وبينهم تسوء ، وإذا به يسمع بالإسلام وسماحته وبرسول الله — ﷺ — وخلقه العظيم ، فيغادر كندة مفارقا لملوكها ومباعدا لهم ، وينطلق إلى مدينة النور وهو يقول :

لما رأيت ملـــوك كنـــدة أعـــرضَتْ
كالرّجـل خـان الرجـلَ عـرق نَسائهـا
قـــربت راحلتـــى أؤم محمـــدا
أرجـــو فواضلهـــا وحُسن ثرائهـــا

وعند باب مسجد الرسول أناخ راحلته وراح يتقدم وهو يستشعر رهبة .

(١) غضارة الشيء : طراوته ونعومته .
(٢) غبطوا : استحسنت حالهم .
(٣) سروات القوم : أشرافهم .

إنه كان يدخل على ملوك كندة ثابت الجنان ، أما وهو يسير للقاء رسول رب العالمين فقد نزل بقلبه خوف شديد وسرت فى جسمه قشعريرة وراحت عيناه تتجولان فى الفضاء لا تثبتان على شيء ، حتى إذا ما رأى رسول الله ـــ ﷺ ـــ سكنت نفسه فقد انشرح صدره لسماحته ولطفه وبساطته ، فما يملك من تقع عيناه عليه إلا أن يحبه .

ودار بين رسول الله ـــ ﷺ ـــ وفروة بن مسيك حديث كله ود ، قال عليه السلام لجليس الملوك :

ـــ يا فروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم ؟

ـــ يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم لا يسوءه ذلك ؟

ـــ أما وإن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا .

ونزل فروة على سعد بن عبادة وراح يتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه ، فأجازه رسول الله ـــ ﷺ ـــ باثنتى عشرة أوقية وحمله على بعير وأعطاه حلة من نسج عمان واستعمله على مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقات ، وكتب له كتابا فيه فرائض الصدقة ، فانقلب فروة بن مسيك إلى أهله مسرورا بعد أن كان قلبه مثقلا بالهموم لما أعرضت عنه ملوك كندة .

وانتهى إلى زبيد أمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال عمرو بن معدى كرب لقيس بن مكشوح المرادى :

ـــ يا قيس إنك سيد قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبى ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه فإن كان نبيا كما يقول فإنه لن يخفى عليك ، وإذا لقيناه تبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا

علمه .

فأبى عليه قيس ذلك وسفَّه رأيه ، فانطلق عمرو بن معدى كرب فى عشرة من نفر من زبيد إلى المدينة فنزل على سعد بن عبادة ، فأكرمه سعد وراح به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وانصرف إلى بلاده فأقام مع قومه على الإسلام وعليهم فروة بن مسيك .

فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرا واشتد عليه وقال :

ـ خالفنى وترك رأيى .

فقال عمرو بن معدى كرب فى ذلك :

أمَـــرْتك يـــوم ذى صنعـــا ء أمـــرا باديـــا رُشدُه(١)
أمـــرْتُك باتّقـــاء اللـــ ــــه والمعـــروف تتّعـــدُه
خـرجت مـن المُنـى مثـل الـ ـحُمَيِّـــر غَـــرَّه وَتـــدُه
تمنَّـــانى على فـــرَس عليـــه جـــالسا أسدُه
علـــىَّ مُفـــاضةٌ كالنَّهـــ ـى أخلـص مـاءه جُـــدَدُه(٢)
تـــرد الـــرمح مُنثنـــىَ السـ ـنـــان عواثـــرا قِصَدُه(٣)
فلـــو لاقيتنـــى للقيـــ ـت ليثـــا فوقـــه لِبَـــدُه(٤)
تـــلاقى شنبثـــا شَثْـــن الـــ ـبراثـــن نـــاشزا كَتَـــدُه(٥)

---

(١) ذو صنعاء : موضع .

(٢) المفاضة : الدرع الواسعة . والنهى : الغدير من الماء . والجدد : الأرض الصلبة .

(٣) عواثر : متطايرة ، والقصد جمع قصدة ، وهى ما تكسر من الرمح .

(٤) اللبد : جمع لبدة ، وهى ما على كتفى الأسد ورأسه من الشعر .

(٥) الشنبث : الذى يتعلق بقرنه ولا يزايله . والشثن : الغليظ الأصابع . والبراثن للسباع : بمنزلة الأصابع للإنسان . وناشز : مرتفع . والكتد : ما بين الكتفين .

يسامى القِرن إن قِرنٌ تيمَّمه فيعتضدُه(١)
فيأخذه فيرفعهُ فَيَخفضُه فيقْتصده(٢)
فيدمَغُهُ فيحطمه فيخضمه فيزْدرده(٣)
ظَلوم الشِّرك فيما أحرزتْ أنيابُه ويدُه

وقدم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الأشعث بن قيس فى وفد كندة فى ثمانين راكبا من كندة ، فدخلوا على رسول الله وقد رجلوا جممهم وتكحلوا عليهم جبب الحبرة قد كففوها بالحرير ، وعليهم الديباج ظاهر مخوَّص بالذهب ، فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

— ألم تُسلموا ؟

— بلى .

— فما بال هذا عليكم ؟

فشقوه وألقوه ، ثم قال له الأشعث بن قيس :

— يا رسول الله نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار .

فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال :

— ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث .

كان العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب تاجرين ، وكان لبنى هاشم جدة من كندة وهى أم كلاب بن مرة ، وكانا إذا شاعا فى بعض العرب فسئلا :

— ممن أنتما ؟

---

(١) يعتضده : يأخذه تحت عضده ليصرعه .

(٢) يقتعده : يقتله .

(٣) يدمغه: يصيب دماغه. ويحطمه: يكسره. ويخضمه: يأكله. ويزدرده: يبتلعه.

قالا فى زهو :

— نحن بنو آكل المرار :

يتعززان بذلك ، وذلك أن كندة كانوا ملوكا أما رسول الله — ﷺ — فما كان الانتساب إلى الملوك يزيده عزا ، فقال للأشعث بن قيس وكان من ولد آكل المرار من قبل النساء :

— لا بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا .

وأحس الأشعث خجلا ، أن قومه كانوا ينتسبون إلى آكل المرار ويتبعون نسب أمهم فقال :

— هل فرغتم يا معشر كندة ؟ والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين .

فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أجازهم بعشر أواق ، وأعطى الأشعث اثنتى عشرة أوقية .

ووفد وفد الصَّدِف من سبأ على رسول الله — ﷺ — وهم بضعةَ عشرَ رجلا على قلائص لهم فى أزر وأردية ، فإذا بالناس يتذكرون جنتى سبأ وسيل العرم وسؤالهم الله أن يباعد بين أسفارهم بعد أن كان بينهم وبين القرى التى باركها الله قرى ظاهرة ، إنهم ظلموا أنفسهم فجعلهم الله أحاديث ومزقهم كل ممزق .

وتذكروا هدهد سليمان وقوله لنبى الله: «إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون.»(١)

وطارت أخيلتهم مع الهدهد وقد ذهب بكتاب نبى الله إلى ملكة سبأ ، وتصور كل منهم عرشها على قدر تخيله ، ورن فى أغوارهم ذلك الحوار

---

(١) سورة النمل الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

الذى دار بينها وبين قومها ، ورأوا بأعين الخيال رسلها وهم يدخلون على سليمان بهديتها وكان قول سليمان عليه السلام واضحا لا لبس فيه ، فقد ورد فى القرآن الكريم : « فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . »(١) .

وأشرقت الوجوه لما تذكروا قول الذى عنده علم من الكتاب ، ورفت على الشفاه ابتسامات رضا لما فكروا فى عرش ملكة سبأ وكيف انتقل من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه ، وكيف انتاب ملكة سبأ الدهشة لما رأت عرشها ، وكيف كشفت عن ساقيها لما دخلت الصرح فقد حسبته لجة ، وكيف أسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

كانوا قبل أن يشرح الله صدورهم للإسلام قوما يجهلون ، فلما أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين وقرأوا الذكر الحكيم أورثهم الله علم ما لم يعلموا فتلألأت فى قلوبهم حقائق الأمور الدنيوية والأخروية وحقائق علمية ما كان لهم ولا لآبائهم بها من علم ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .(٢) .

ودخل وفد الصدِّف مسجد الرسول فصادفوا رسول الله — ﷺ — فيما بين بيته وبين المنبر ، فجلسوا ولم يسلموا فقال :

— أمسلمون أنتم ؟

— نعم .

— فهلاّ سلمتم ؟

---

(١) سورة النمل الآية (٢٦) .

(٢) سورة الحديد الآية (٢١) .

فقاموا فقالوا :

ـــ السلام عليك أيها النبى ورحمة الله .

ـــ وعليكم السلام . اجلسوا .

فجلسوا وسألوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن أوقات الصلوات فأخبرهم بها ، وهم يصغون إلى عذب حديثه فيستشعرون كأن جوهر الحكمة ينزل بصدورهم فى سويداء قلوبهم .

١٤

الوفود تتدفق على المدينة والناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، ورسول الله ــ ﷺ ــ يستولى على القلوب بخلقه العظيم ، والمسلمون من الأنصار والمهاجرين يثيرون دهشة رجال القبائل فقد ألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا بعد أن كانوا أعداء ، وصاروا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقد اعتصموا بالله فهداهم إلى صراط مستقيم .

وقدم على رسول الله ﷺ ــ صرد بن عبد الله الأزدى فألقى إلى رسول الله عليه السلام سمعه ، فشرح الله للإسلام صدره ، وأعلن من معه من الأزد إسلامهم ، فأمَّره رسول الله ــ ﷺ ــ على من أسلم من قومه ، فانطلق إلى اليمن ليجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك . فخرج صرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ــ ﷺ ــ حتى نزل بجرش وهى يومئذ مدينة مغلقة وبها قبائل من اليمن وقد لجأت إليهم خثعم ، فدخلوها معهم حين سمعوا بسير المسلمين إليهم فحاصروهم فيها قريبا من شهر وامتنعوا فيها منه ، ثم إنه رجع عنهم قافلا حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ظن أهل جرش أنه ولى عنهم منهزما ، فخرجوا فى طلبه حتى إذا أدركوه عطف عليهم فراح يقتلهم قتلا شديدا .

وقد كان أهل جُرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ــ ﷺ ــ بالمدينة يرتادان وينظران ، فبينا هما عند رسول الله ــ ﷺ ــ عشية بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ــ ﷺ :

— بأى بلاد الله شُكْر ؟

فقام إليه الجُرشيان فقالا :

— يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كَشر

وكذلك يسميه أهل جرش ، فقال عليه السلام :

— إنه ليس بكشر ولكنه شكر .

قالا :

— فما شأنه يا رسول الله ؟

— إن بُدْنا لله لتنحر عنده الآن .

ولم يفهما ما كان يقصده رسول الله — ﷺ — ومن أين لهما أن يعلما أن صرد بن عبد الله والذين معه من المسلمين كانوا يقتلون أهل جُرَش فى ذلك الوقت قتلا شديدا . فلما جلسا إلى أبى بكر وكان أكثر الناس معرفة بإشارات رسول الله — ﷺ — قال لهما :

— ويحكما ! إن رسول الله — ﷺ — الآن لينعى لكما قومكما ، فقوما إلى رسول الله — ﷺ — فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما .

فقاما إليه فسألاه ذلك فقال :

— اللهم ارفع عنهم .

فخرجا من عند رسول الله — ﷺ — راجعين إلى قومهما وهما يذكران اليوم الذى دعا فيه أن يرفع الله عن قومهما بل ويذكران الساعة ، فلما بلغا الديار وجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبد الله فى اليوم الذى قال فيه رسول الله — ﷺ — ما قال ، وفى الساعة التى ذكر فيها ما ذكر .

واتضحت لأعين الذين لا يؤمنون إلا بشواهد مادية حقيقة الأمر فخرج وفد جُرَش حتى قدموا على رسول الله — ﷺ — فأسلموا ، فقال :

— مرحبا بكم ! أحسن الناس وجوها وأصدقه لقاء وأطيبه كلاما وأعظمه أمانة ، أنتم منى وأنا منكم .

وجعل شعارهم : مبرورا ، وحمى لهم حِمى حول قريتهم على أعلام معلومة ، للفَرس والراحة وللمثيرة (بقرة الحرث) ، فمن جاء بأنعامه وغنمه ليرعى الحمى فماله سحت .

* * *

وقدم على رسول الله — ﷺ — وفد عذرة فى صفر سنة تسع من مهاجره وهم اثنا عشر رجلا فيهم حمزة بن حمزة النعمان وسليم وسعد ابنا مالك بن أبى رياح ، فنزلوا دار الضيافة دار رملة بنت الحارث ، ثم جاءوا النبى — ﷺ — فسلموا بسلام الجاهلية وقالوا :

— نحن إخوة قصى لأمه ، ونحن الذين أخرجوا خزاعة وبنى بكر من مكة ، ولنا قرابات وأرحام .

— مرحبا بكم وأهلا ، ما أعرفنى بكم ، ما منعكم من تحية الإسلام ؟

— قدمنا مرتادين لقومنا .

لم يكونوا قد أسلموا بل جاءوا ليسمعوا من محمد بن عبد الله ، فإن كان ما يدعو إليه خيرا دخلوا فيه ، وإن لم يصادف فى نفوسهم هوى أعرضوا عنه ، فجلسوا إليه يصغون وقد أرهفت حواسهم فراح يتدفق كأنه بحر من العلم ؛ حدثهم عن وجدانية الله ونفى الربوبية عن كل الأرباب إلا الله وحده ، فلو كان فى السماء والأرض آلهة غير الله لفسدتا ، فكادت ألسنتهم تتحرك بشهادة أن لا إلٰه إلا الله بعد أن اطمأنت قلوبهم إلى ما ساق من حجج وإلى ما تلا عليهم مما أوحى إليه من ربه ، وذكر لهم أنه رسول الله وأنه بشر يوحى إليه أرسله الله إلى

الناس كافة بشيرا ونذيرا وكفى بالله شهيدا فكادوا أن يشهدوا أن الرسول حق ، وحدثهم حديثا مستفيضا عن الصلاة وأوقاتها وعن حكمة الوقوف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم وعن سر الصلاة فى قلوب المؤمنين وقال لهم إن الله فرض الزكاة على القادرين فهى حق للفقراء فى أموال الأغنياء التى آتاهم الله من فضله ، وحدثهم عن الصوم وعن جزاء الصائمين وأن الصوم لله فالله وحده يجزى الصائم عن صومه ، وتكلم عن الحج وأن الله تعالى قد فرضه على من استطاع إليه سبيلا .

كانوا يصغون فى دهشة فقد رفعهم حديث رسول الله — ﷺ — حتى كادوا أن يقرعوا أبواب الملكوت ، وحقق ضربا من الألفة بين الوجود وبين ما وراء الوجود ، وجعلهم يستشعرون حرية مطلقة ما كان لهم بها عهد من قبل . حررهم من الخوف والعبودية لغير رب الناس إلٰه الناس ، ونقش فى بياض ألواح قلوبهم علما وفقها وحكمة ، وأضاء زيوت أفئدتهم فأصبحوا على نور من ربهم فرطبت ألسنتهم بشهادة الحق المبين .

وأقاموا أياما ينهلون من نبع علم رسول الله — ﷺ — حتى إذا ما أرادوا الانصراف إلى أهليهم راح بلال خازن رسول الله — ﷺ — يوزع عليهم جوائزهم وكسا أحدهم بُرْدا ، ثم انطلقوا يحسون أنهم قد خلقوا من جديد .

وكان بنو جُرْم عند ماء يمر الناس عليه فلما ظهر الإسلام كانوا يسألون الناس :

— ما هذا الأمر ؟

فيقولون :

— رجل يزعم أنه نبى وأن الله أرسله وأن الله أوحى إليه كذا وكذا .

فجعل عمرو بن سلمة يومئذ لا يسمع شيئا من القرآن إلا حفظه كأنما

يغرى فى صدره بغراء ، حتى جمع فيه قرآنا كثيرا . وكانت العرب تنتظر بإسلامها فتح مكة يقولون :

— انتظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبى .

فلما جاءت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، فخرج سلمة الجَرْمى ونفر من قومه ووفدوا إلى النبى — ﷺ — حين أسلم الناس وتعلموا القرآن وقضوا حوائجهم فقالوا :

— يا رسول الله من يصلى بنا ؟

— ليصلِّ بكم أكثركم أخذا للقرآن .

فجاءوا إلى قومهم فلم يجدوا فيهم أحدا أكثر أخذا من القرآن مما أخذ عمرو ابن سلمة وهو يومئذ غلام عليه كساء يأتزر به ، فقدموه بين أيديهم فكان يصلى بهم وهو ابن ست سنين .

وقدم على رسول الله — ﷺ — كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك ، ورسوله إليهم بإسلامهم الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل(١) ذى رُعين ومعافر وهمدان . وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله . فكتب إليهم رسول الله — ﷺ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله النبى إلى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم بن عبد كلال وإلى النعمان ذى رُعين ومعافر وهمدان . أما بعد ذلكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إلـٰه إلا هو . أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة ، فبلَّغ ما أرسلتم به وخبَّر ما قبلكم وأنبأنا

---

(١) القيل واحد الأقيال وهم الملوك دون الملك الأكبر .

بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم بهداه ، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم الرسول وصفيه(١) وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار ، عشر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب (الدلو) نصف العشر ، وأن فى الإبل الأربعين ابنة لبون ، وفى ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر ، وفى كل خمس من الإبل شاة ، وفى كل عشر من الإبل شاتان ، وفى كل أربعين بقرة بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة ، وأنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله ذمة الله وذمة رسوله .

وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر(١) أو عوضه ثيابا ، فمن أدى ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فإن له ذمة الله ودمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله .

أما بعد فإن رسول الله محمدا النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مُرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم مُعاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا

---

(١) المعافر : ثياب من ثياب اليمن .

راضيا .

أما بعد ، فإن محمدا يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك ابن مرة الرَّهاوى قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم . وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل محمد إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل . وأن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، وأنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم . وآمركم بهم خيرا فإنهم منظور إليهم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وأوصى عليه السلام معاذا وعهد إليه ثم قال له :

ــ يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفِّر . وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة ، فقل شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له .

فخرج معاذ حتى إذا ما قدم اليمن قام بما أمره به رسول الله ــ ﷺ ــ فأتته امرأة من أهل اليمن فقالت :

ــ يا صاحب رسول الله ما حق زوج المرأة عليها ؟

ــ ويحك ! إن المرأة لا تقدر على أن تؤدى حق زوجها ، فأجهدى نفسك فى أداء حقه ما استطعت .

ــ والله لئن كنت صاحب رسول الله ــ ﷺ ــ إنك لتعلم ما حق الزوج على المرأة .

ــ ويحك ! لو رجعت إليه فوجدته تنشعب منخراه قيحا ودما ، فمصمصت ذلك حتى تذهبيه ما أديت حقه .

١٥

خالد بن الوليد سيف الله المسلول فى أربعمائة من المسلمين يتأهبون للخروج من المدينة ، فقد بعثهم رسول الله ــ ﷺ ــ فى شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا قبل أن يقاتلهم .

وانطلق خالد والذين معه إلى نجران اليمن حيث بيع النصارى تنتشر فى كل مكان وراح يدعو الناس إلى الإسلام . وبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون :

ــ أيها الناس أسلموا تسلموا .

وأثلج صدر خالد فقد أسلم الناس قبل أن يقاتلهم ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ــ ﷺ .

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ــ ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم : لمحمد النبى رسول الله ــ ﷺ ــ من خالد بن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلـٰه إلا هو ، أما بعد يا رسول الله ــ صلى الله عليك ــ فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى إذ أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا أقمت فيهم وقبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم . وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ــ ﷺ ــ وبعثت فيهم ركبانا قالوا : يا بنى الحارق أسلموا

تسلموا ، فأسلموا و لم يقاتلوا وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى — ﷺ — حتى يكتب إلىّ رسول الله — ﷺ ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

فكتب إليه رسول الله — ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلـٰه إلا هو . أما بعد فإن كتابك جاءنى مع رسولك تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه . فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليُقبِل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فأقبل خالد إلى رسول الله — ﷺ — وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب منهم قيس بن الحصين ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله ابن قراد الزّيادى وشداد بن عبد الله القنانى وعمرو بن عبد الله الضّبابى .

فلما قدموا على رسول الله — ﷺ — فرآهم قال :

— من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟

— يا رسول الله هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب .

فلما وقفوا على رسول الله — ﷺ — سلموا عليه وقالوا :

— نشهد أنك رسول الله وأنه لا إلـٰه إلا الله .

قال رسول الله — ﷺ :

— وأنا أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنى رسول الله .

ثم قال — ﷺ :

— أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا .

فسكتوا لم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد . ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد الله المدان :

— نعم يا رسول الله نحن الذين إذا زُجروا استقدموا .

قالها أربع مرات ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— لو أن خالدا لم يكتب إلَيَّ أنكم أسلمتم و لم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم .

فقال يزيد بن عبد المدان :

— أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— من حَمِدتم ؟

— حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله .

— صدقتم .

ثم قال رسول الله — ﷺ — :

— بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟

— لم نكن نغلب أحدا .

— بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم .

— كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدا بظلم .

— صدقتم .

وأمَّر رسول الله — ﷺ — على بنى الحارث بن كعب قيس بن الحصين .

فرجع وفد بنى الحارث إلى قومهم فى بقية من شوال ، وبعث إليهم بعد عودتهم إلى ديارهم عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم . وكتب له كتابا عهد إليه فيه عهده وأمره فيه بأمره : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا بيان من الله ورسوله : يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . عهد من محمد النبى رسول الله لعمرو بن حزام حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله فى أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمْرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر . ويخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم ويلينَ للناس فى الحق ويشتد عليهم فى الظلم ، فإن الله كره الظلم ونهى عنه فقال : ألا لعنة الله على الظالمين . ويبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر الناس النار وعملها ، ويستأنف الناس حتى يفقهوا فى الدين ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته وما أمر الله به ، والحج الأكبر الحج الأكبر ، والحج الأصغر هو العمرة ، وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير إلا أن يكون ثوبا يثنى طرفيه على عاتقيه ، وينهى الناس أن يحتبى أحد فى ثوب واحد يُفضى بفرجه إلى السماء ، وينهى أن يعقِص أحد شعر رأسه فى قفاه ، وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له ، من لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليُقطفوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له .

ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحون برءوسهم كما أمرهم الله ، وأمر للصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود والخشوع ، ويغلّس بالصبح ويهجِّر بالهاجرة حتى تميل الشمس ،

وصلاة العصر والشمس فى الأرض مُدبرة ، والمغرب حين يقبل الليل لا يؤخر حتى تبدو النجوم فى السماء ، والعشاء أول الليل . وأمر بالسعى إلى الجمعة إذا نودى لها والغسْل عند الرواح إليها .

وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله ، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغَرْبُ (الدلو) نصف العُشر ، وفى كل عشر من الإبل شاتان ، وفى كل عشرين أربع شياه ، وفى كل من الأربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعه ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة ؛ فإنها فريضة الله التى افترض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ، وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصا من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها ، وعلى كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثيابا .

فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا ، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

١٦

كان الإسلام قد ملأ قلب قيلة بنت مَخْرمة التميمية ، فخرجت تبغى الصحبة إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فانتزع منها عم بناتها أثوب بن أزهر بناتها ، فبكت إحداهن وكانت حُدَيباء عليها قميص من صوف فرحمتها وذهبت بها . وانطلق بهما الجمل يحثانه على السير السريع ، فإذا بأثوب يسعى وراءهما وقد سل سيفه ، فلجأتا إلى بيوت الوبر . واقتحمت قيلة أحد هذه البيوت لتختبئ به إلا أن أثوب أدركها بالسيف فأصابت ظُبَتُّه طائفة من قرون رأسها ، ثم قال لها فى حدة :

ـــ ألق إلىَّ ابنة أخى .

فألقتها إليه فجعلها على منكبيه وذهب بها .

وخرجت قيلة إلى أخت لها ناكح فى بنى شيبان تبتغى الصحبة إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فبينا هى عندها تحسب أنها نائمة ، إذ جاء زوج أختها من السامر فقال لها :

ـــ وأبيك لقد وجدت لقيلة صاحب صدق .

ـــ من هو ؟

ـــ حريث بن حسان الشيبانى وافد بكر بن وائل عاويا ذا صباح .

ـــ الويل لى ! لا تخبرها فتتبع أخا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها ، وليس معها أحد من قومها .

ـــ لا ذكرته .

وسمعت قيلة ما قالا فغدت إلى جملها فشدت عليه ، ثم راحت تنشد حريث ابن حسان فوجدته غير بعيد ، فسألته الصحبة فقال :

ـــ نعم وكرامة .

وركابه مناخة عنده فانطلقا إلى مدينة الرسول على جناح الشوق . كان صاحب صدق قد شغل طوال الرحلة بالله فلم يكن قلبه ليهفو إلى سواه . وقدما على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يصلى بالناس صلاة الغداة قد أقيمت حين شق الفجر والنجوم شابكة فى السماء والرجال لا تكاد تعارف من ظلمة الليل ، فصفت قيلة مع الرجال وهى امرأة قريبة عهد بجاهلية ، فقال الرجل الذى يليها من الصف :

ـــ امرأة أنت أم رجل ؟

ـــ لا بل امرأة .

ـــ إنك كدت تفتنيننى فصلى فى النساء وراءك .

فإذا صف من نساء قد حدث عند الحجرات لم تكن رأته إذ دخلت فكانت فيهن . حتى إذا طلعت الشمس دنت فجعلت إذا رأت رجلا ذا رواء وبشر طمح إليه بصرها لترى رسول الله فوق الناس ، حتى جاء الرجل فقال :

ـــ السلام عليك يا رسول الله .

ـــ وعليك السلام ورحمة الله .

ونظرت إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فإذا أسمال مُليَّنين ، كانتا بزعفران قد نصل لونهما ، ومعه حسيب نخلة مقشور عنه خوصه غير خوصتين من أعلاه وهو قاعد القرفصاء ، فلما رأت رسول الله ـــ ﷺ ـــ متخشعا فى الجلسة أرعدت من الفرق ، فقال جليسه :

ـــ يا رسول الله أرعدت المسكينة .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ و لم ينظر إليها وهى عند ظهره :

ـــ يا مسكينة عليك السكينة .

فلما قالها ـــ ﷺ ـــ أذهب الله ما كان دخل قلبها من الرعب ، وتقدم حرث بن حسان الشيبانى أول رجل فبايع رسول الله على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال :

ـــ يا رسول الله اكتب بيننا وبين تميم كتابا بالدهناء لا يجازوها إلينا منهم إلا مسافر أو مجاور .

ـــ يا غلام اكتب له بالدهناء .

فلما رأت قيلة أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ أمر بأن يُكتب له ، انتابها قلق شديد فالدهناء وطنها ودارها فقالت :

ـــ يا رسول الله إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هذه الدهناء مَقيَّد الجمل ومرعى الغنم ، ونساء بنى تميم وأبناؤه وراء ذلك .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ أمسك يا غلام صدقت المسكينة ، المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفُتَّان .

فلما رأى حريث أن قد حيل دون كتابه قال :

ـــ كنت أنا وأنت كما قال فى المثل : حتفَها تحمل ضأنٌ بأظلافها(١) .

فقالت لحريث :

---

(١) أصله أن رجلا وجد شاة و لم يكن معه ما يذبحها به ، فضربت أظلافها الأرض فظهر سكين فذبحها ـــ يضرب لمن يوقع نفسه فى هلكة .

— أما والله ما علمت إن كنت لدليلا فى الظلماء ، جوادا لدى الرحل ، عفيفا عن الرفيقة ، حتى قدمنا على رسول الله — ﷺ — ولكن لا تلمنى أن أسأل حظى إذ سألت حظك .

— وأى حظ لك فى الدهناء ألا أبا لك ؟

— مُقيَّد جملى تريده لجمل امرأتك .

— لا جرم ، إنى أشهد رسول الله أنى لك أخ ما حييت إذا أثنيت علىَّ عنده .

فقالت :

— إذ بدأتها لن أضيعها .

فقال — ﷺ — :

— أيلام ابن هذه أن يفصل الخطة وينتصر من وراء الحجزة ؟

كان رسول الله — ﷺ — يقصد : إذا أصاب ولد هذه خطة ضيم فاحتج عن نفسه وعبر بلسانه ما يدفع به الظلم عنه لم يكن ملوما . وحرك ذكر ولدها أشجانها فبكت بكاء مرا ، ثم قالت وصورة ابنها تحتل صفحة رأسها :

— فقد والله ولدته يا رسول الله حراما ، فقاتل معك يوم الربذة ثم ذهب يمترى من خيبر ، فأصابته حمَّاها ومات .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لو لم تكونى مسكينة لجررناك على وجهك أيُغلب أحدكم على أن يصاحب صويحبه فى الدنيا معروفا ، فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به استرجع ثم قال : رب آسنى لما أمضيت وأعنى على ما أبقيت . والذى نفسى بيده إن أحدكم ليبكى فيستعبر له صويحبه . فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم . ثم كتب لها فى قطعة أدم أحمر : « لقيلة والنسوة من بنات قيلة ألا يُظلمن حقا ولا يكرهن على منكح ، وكل مؤمن لهن نصير ، أحسنَّ ولا تسئن » .

١٧

قدم وفد الداريين على رسول الله ـــ ﷺ ـــ منصرفه من تبوك ، وهم عشرة نفر فيهم تميم ونعيم ابنا أوس بن خارجة بن مسعود بن جذيمة بن ذراع ابن عدى بن الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم ، ويزيد بن قيس بن خارجة ، والفاكه بن النعمان بن جبلة ، وجبلة بن مالك ، وأبو هند والطيب ابنا ذر ، ،أسلموا وسمى رسول الله ـــ ﷺ ـــ الطيب عبد الله .

وأهدى هانئ بن حبيب لرسول الله ـــ ﷺ ـــ راوية خمر وأفراسا وقباء مخوصا بالذهب ، فقبل الأفراس والقباء وأعطاه العباس بن عبد المطلب فقال :

ـــ ما أصنع به ؟

ـــ ينزع الذهب فتحليه نساءك أو تستنفقه ، ثم تبيع الديباج فتأخذ ثمنه .

فباعه العباس من رجل من يهود بثمانية آلاف درهم .

وقال تميم :

ـــ لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحداهما حيرى والأخرى بيت عينون ، فإن فتح الله الشام فهبهما لى .

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول إن الله سيفتح على المسلمين بلاد الشام وبلاد كسرى واليمن ، وكان المسلمون على ثقة من أن ذلك واقع لا ريب فيه .

فطلب تميم الدارى من رسول الله ـــ ﷺ ـــ تلكما القريتين وما كان عليه السلام يرد طلبا فقال :

ـــ هما لك .

وجاء على بن أبى طالب وكتب فى قطعة من أدم مربعة دون الشبر ما أملاه عليه رسول الله — ﷺ — :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أنطا (أعطى) محمد رسول الله لتميم الدارى وإخوته : حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن ، وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم . فمن آذاهم آذاه الله ، فمن آذاهم لعنه الله . شهد عتيق بن أبى قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وكتب على بن أبى طالب وشهد .

وأوصى لهم رسول الله بأرض من خيبر تخرج مائة وسق ، وقد لزموا جوار رسول الله — ﷺ — يلقون إليه السمع لتشرق الأنوار فى قلوبهم وليحلّقوا مع نبى الحكمة حتى يقرعوا أبواب الملكوت .

وفى خلافة أبى بكر الصديق فتحت الشام فأعطى خليفة رسول الله — ﷺ — تميم الدارى وإخوته حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن .

واستعمل رسول الله — ﷺ — قيس بن سعد بن عبادة على أربعمائة من المسلمين ودفع له لواء أبيض ، ودفع له راية سوداء ، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن كان فيها صداء . فقدم على رسول الله — ﷺ — رجل منهم وعلم بالجيش ، فأتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله جئتك وافدا على من ورائى فاردد الجيش وأنا لك بقومى .

فرد رسول الله — ﷺ — جيش قيس بن سعد ، وخرج الصدائى إلى قومه فقدم على رسول الله — ﷺ — بأولئك القوم ، فقال سعد بن عبادة :

— يا رسول الله دعهم ينزلون علىّ .

فنزلوا عليه فأعطاهم وأكرمهم وكساهم ، ثم ذهب بهم إلى النبى —

ﷺ — فبايعوه على الإسلام وقالوا له :

— نحن لك على من وراءنا من قومنا .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى زياد بن الحارث الصدائى الذى كان سببا فى رد جيش المسلمين وإسلامه قومه ، وقال له :

— يا أخا صداء إنك لمطاع فى قومك .

— بل الله هداهم للإسلام .

— أفلا أؤمّرك عليهم ؟

— بلى يا رسول الله .

فكتب له كتابا بذلك فقال زياد :

— يا رسول الله مر لى بشىء من صدقاتهم .

— نعم .

فكتب له كتابا آخر وكان معه فى بعض أسفاره ، وكان زياد رجلا قويا فلزم ركاب رسول الله — ﷺ — وجعل أصحابه يتفرقون عنه فلما كان السحر قال — ﷺ :

— أذّن يا أخا صداء .

فأذن على راحلته ثم ساروا حتى نزلوا ، فقال — ﷺ :

— يا أخا صداء هل معك ماء ؟

— معى شىء فى أداوتى (إناء جلد صغير) .

— صب .

وصب الصدائى وتوضأ رسول الله — ﷺ — ثم جاء بلال يقيم الصلاة فقال رسول الله — ﷺ :

— إن أخا صداء أذّن ومن أذّن فهو يقيم .

فأقام زياد وصلى رسول الله — ﷺ — بالمسلمين ، فلما سلم من صلاته قام رجل يشكو من عامله فقال :

— يا رسول الله — ﷺ :

— لا خير فى الإمارة لرجل مسلم .

ثم قام رجل آخر فقال :

— يا رسول الله أعطنى من الصدقة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن الله عز وجل لم يكل قسمتها إلى ملك مقرب ولا نبى مرسل حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن .

فقال زياد الصدائى :

— يا رسول الله هذان كتاباك .

— لم ؟

— سمعتك تقول : لا خير للإمارة لرجل مسلم وأنا رجل مسلم . وسمعتك تقول : من سأل الصدقة وهو عنها غنى فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن .

— أما إن الذى قلت كما قلت .

وساد الصمت بينهما مدة ، ثم قال رسول الله لزياد :

— دلنى على رجل من قومك أستعمله .

فدله على رجل منهم فاستعمله .

١٨

كانت الوفود تأتى من الشمال ومن الجنوب فتعيد إلى رءوس صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ الذكريات ، فوفود الشمال ذكرت شجاع بن وهب برحلته المثيرة إلى دمشق يوم أن بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ بكتابه إلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى . إنه يرى بعين خياله وهو جالس فى مسجد الرسول بالمدينة غوطة دمشق بأشجارها الباسقة وجناتها التى تسر العيون ، ويكاد أن يشم عبيرها الأخاذ .

إنه يرى نفسه وقد انتهى إلى باب الحارث بن أبى شمر فأقام يومين ، فقال لحاجبه :

ـ إنى رسول رسول الله ـ ﷺ ـ إليه .

ـ لا تصل إليه حتى يخرج يوم الاثنين .

وتذكر ذلك الحوار المثير الذى جرى بينه وبين حاجب الحارث . إنه يسأله عن رسول الله ـ ﷺ ـ وما يدعو إليه ، وهو يحدثه فى انفعال فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول :

ـ إنى قرأت فى الإنجيل وأجد صفة هذا النبى بعينه فكنت أراه يخرج بالشام ، فأراه قد خرج بأرض القرظ (ثمر السلم) فأنا أومن به وأصدقه ، وأنا أخاف من الحارث بن أبى شمر أن يقتلنى .

وراح شجاع يتذكر ما فعله الحاجب . إنه أكرمه وأحسن ضيافته وأخبره عن الحارث باليأس منه ويقول :

— وهو يخاف قيصر .

ورأى شجاع نفسه يوم أن خرج الحارث وجلس وعلى رأسه التاج وأذن له عليه . إنه قدم إليه كتاب رسول الله — ﷺ — ثابت الجنان ، فلما قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق . وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملك » . اربد وجهه ورمى بالكتاب ثم قال فى غضب شديد :

— من ينزع منى ملكى ؟! أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته . علىّ بالناس :

ورأى شجاع نفسه وهو يخرج من القصر مرفوع الرأس وقد لوى شفته السفلى سخرية من ذلك المغرور الذى غره بالله الغرور ، فلم يزل الحارث جالسا يعرض عليه حتى الليل ، وأمر بالخيل أن تنعل ، ثم أمر بإدخال شجاع ابن وهب فقال له :

— أخبر صاحبك بما ترى .

وكتب إلى قيصر يخبره الخبر ، وصادف أن كان عند قيصر دحية الكلبى بعثه إليه رسول الله — ﷺ — فلما رأى قيصر كتاب الحارث كتب إليه ألا تسر إليه ولا تذكره ، واشتغل بإيلياء .

فراح الحارث بن أبى شمر الغسانى يهيئ لقيصر الإنزال ببيت المقدس ، فإنه نذر المشى من حمص إلى بيت المقدس ماشيا شكرا لله تعالى حيث كشف عنه جنود فارس وأظهر الله الروم على فارس .

وجعل الحارث يفرش له بسطا وينثر عليها الرياحين . وهرقل يمشى عليها وشجاع بن وهب يمد عينيه إلى ذلك البذخ وهو فى دهشة من أمر الناس الذين

اشتروا آخرتهم بدنياهم . ورأى شجاع نفسه وهو يدخل على الحارث قبل أن يعود إلى رسول الله — ﷺ ، ورن فى وجدانه صوت الحارث وهو يقول له :

— متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟

— غدا .

فأمر له بمائة مثقال ذهبا ، ووصله حاجبه بنفقة وكسوة وقال له :

— اقرأ على رسول الله — ﷺ — منى السلام وأخبره أنى متبع دينه .

وتزاحمت الذكريات فى رأس شجاع بن وهب . إنه لم يبعث إلى الحارث ابن أبى شمر وحده بل بعث إلى جبلة بن الأيهم أيضا ، فهو يرى بوضوح ذلك اليوم الذى دخل فيه على جبلة ، وإنه ليذكر كل كلمة خرجت من بين شفتيه لكأنما قد حفرت فى عين ذاته :

— يا جبلة إن قومك نقلوا هذا النبى من داره إلى دارهم فآووه ومنعوه ونصروه ، وإن هذا الدين الذى أنت عليه ليس بدين آبائك ، ولكنك ملكت الشام وجاورت الروم ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس . فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا وكانت لك الآخرة . وقد كنت استبدلت المساجد بالبيع والأذان بالناقوس والجُمَع بالشعانين ، وكان ما عند الله خير وأبقى .

— إنى والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبى اجتماعهم على من خلق السماوات والأرض ، وقد سرنى اجتماع قومى له ، وقد دعانى قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه ، ولكنى لست أرى حقا ولا باطلا وسأنظر .

وارتفعت الأصوات خارج مسجد الرسول ، فقال رسول الله — ﷺ — لأصحابه :

— يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن ، على وجهه مسحة ملك .

فطلع جرير بن عبد الله البجلى على راحلته ومعه من قومه مائة وخمسون رجلا . ودخل جرير مسجد الرسول ليعلن على الملأ إسلامه وإسلام قومه ، فبسط رسول الله — ﷺ — يده فبايعه وقال :

— على أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأنى رسول الله ، ثم تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم شهر رمضان ، وتنصح للمسلم ، وتطيع الوالى وإن كان عبدا حبشيا .

— نعم .

فبايعه عليه السلام وسأله عن منزله ببيشة وهى قرية غناء فى واد كثير الأهل من بلاد اليمن ، فقال جرير :

— سهل ودكداك[1] ، وسَلم وأراك ، وحمض وعَلاك ، إلى نخلة ونخلة ، ماؤها ينبوع ، وشتاؤها ربيع .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن خير الماء الشَّبِم ، وخير المال الغنم ، وخير المرعى الأراك .

* * *

وشرد عياش بن أبى ربيعة وتذكر يوم بعثه رسول الله — ﷺ — إلى بنى عبد كُلال ، إنه عليه السلام قال له :

— خذ كتابى بيمينك وادفعه بيمينك فى أيمانهم ، فهم قائلون لك : اقرأ . فاقرأ : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين »[2] .

---

(١) الدكداك : ما تلبد من الرمل بالأرض و لم يرتفع كثيرا . الأراك : شجر له حمل كعناقيد العنب . والحمض : كل نبت فى طعمه حموضة . والعلاك : شجر ينبت بناحية الحجاز .

(٢) سورة البينة الآية (١) .

فإذا فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلا وقد دحضت ، ولا كتاب زخرف إلا وذهب نوره ومح لونه ، وهم قارئون فإذا رطنوا فقد ترجموا فقل : حسن ، آمنت بالله وبما أنزل من كتاب الله . فإذا أسلموا فسلهم قُضبهم الثلاثة التى إذا تخَصروا بها سُجد لهم وهى الأتل قضيب ملَمع ببياض ، وقضيب ذو عجز كأنه من الخيزران ، والأسود البهيم كأنه من ساسم(١) اخرج بها فحرقها فى سوقهم .

وانثالت على رأس عمرو بن العاص ذكريات تلك الأيام التى بعثه فيها رسول الله — ﷺ — بكتابه إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عُمان . إنه خرج حتى انتهى إلى عُمان فعمد إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا فقال :

— إنى رسول رسول الله — ﷺ — إليك وإلى أخيك .

— أخى المقدم علىّ بالسن والملك ، وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك ، وما تدعو إليه ؟

— أدعوك إلى الله وحده ، وتخلع ما عُبد من دونه ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله .

— يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة .

— مات و لم يؤمن بمحمد — ﷺ — ووددت له لو كان آمن وصدق . وقد كنت قبل على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام .

— فمتى تبعته ؟

— قريبا .

---

(١) ساسم : أبنوس .

— أين كان إسلامك ؟

— عند النجاشي والنجاشي قد أسلم .

— فكيف صنع قومه بملكه ؟

— أقروه واتبعوه .

— والأساقفة والرهبان ؟

— نعم .

— انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من كذب .

— وما كذبت وما نستحله فى ديننا .

— وما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي .

— بلى .

— بأى شيء علمت ذلك يا عمرو ؟

— كان النجاشي يخرج له خراجا . فلما أسلم النجاشي وصدق بمحمد — ﷺ — قال : لا والله ولو سألنى درهما واحدا ما أعطيته . فبلغ هرقل قوله فقال له أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خراجا ويدين دينا محدثا ؟ فقال هرقل : رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع .

— انظر ما تقول يا عمرو .

— والله صدقتك .

— فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه .

— يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن

والصليب .

ـــ ما أحسن هذا الذى يدعو إليه . لو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن لمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا .

ـــ إنه إن أسلم ملكه رسول الله ـــ ﷺ ـــ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم .

ـــ إن هذا الخلق حسن . وما الصدقة ؟

فراح عمرو بن العاص يخبره بما فرض على المسلمين من الصدقات فى الأموال . ولما ذكر المواشى قال عبد :

ـــ يا عمرو ، ويأخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وترد المياه ؟

ـــ نعم .

ـــ والله لا أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا .

ومكث عمرو بباب جيفر وقد أوصل إليه أخوه حبره ، ثم إنه دعاه فدخل عليه فأخذ أعوانه بعضدى عمرو ، قال :

ـــ دعوه .

فأرسل فذهب ليجلس ، فأبوا أن يدعوه يجلس فنظر إلى جيفر فقال :

ـــ تكلم بحاجتك .

فدفع إليه كتاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام . أسلما تسلما . إنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما » . فدفعه إلى أخيه فقرأه ثم

قال جيفر :

ـــ ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟

ـــ تبعوه إما راغب فى الدين وإما راهب مقهور بالسيف .

ـــ ومن معه ؟

ـــ الناس قد دخلوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال مبين ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه تطؤك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

ـــ دعنى يومى هذا وارجع إلىّ غدا .

فلما كان الغد أتى إليه عمرو فأبى أن يأذن له ، فرجع إلى أخيه فأخبره أنه لم يصل إلى جيفر ، فأوصله إليه فقال جيفر :

ـــ إنى قد فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى ، وهو لا تبلغ خيله ههنا وإن بلغت خيله ألقت قتالا ليس كقتال من لاقى .

فقال عمرو مهددا :

ـــ وأنا خارج غدا .

فلما أيقن بمخرجه خلا به أخوه ، فأصبح فأرسل إلى عمرو فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا ، وخليا بين عمرو وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم بما أنزل الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

* * *

وشرد سليط بن عمرو العامرى يفكر فى ذلك اليوم الذى انطلق فيه إلى اليمامة يحمل كتاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة .

إنه أنزله وحياه وقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على من اتبع الهدى . واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم ، واجعل لى ما تحت يديك » . ودار حوار بين سليط وبين هوذة ؛ قال سليط لما رأى تردده فى قبول ما جاء به :

ـــ يا هوذة ، إنه كسرى الذى يحول بينك وبين الهدى إنه سودك على قومك . إنما السيد من تمتع بالإيمان ثم تزود بالتقوى ، وإن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وأنا أمرك بخير مأمور به وأنهاك عن شر منهى عنه . آمرك بعبادة الله وأنهاك عن عبادة الشيطان . فإن فى عبادة الله الجنة وفى عبادة الشيطان النار . فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت . وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهول المطلع .

ـــ يا سليط سودنى من لو سودك تشرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور فقدته ، فاجعل لى فسحة ليرجع إلى رأيى فأجيبك به .

وكتب إلى النبى ـــ ﷺ : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى ، فاجعل إلىّ بعض الأمر أتبعك » . وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر .

وكان عند هوذة عظيم من عظماء النصارى حين قرأ كتاب النبى ـــ ﷺ فقال له :

ـــ لم لا تجيبه ؟

ـــ أنا ملك قومى ، ولئن اتبعته لم أملك .

ـــ بلى والله لئن اتبعته ليملكنك وإن الخيرة لك فى اتباعه ، وإنه النبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وإنه المكتوب عندنا فى الإنجيل .

وقدم سليط على النبى فأخبره بما كان بينه وبين هوذة . وقرأ النبى — ﷺ — كتابه وقال :

— لو سألنى سبابة (قطعة من الأرض) ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه .

فلما انصرف رسول الله — ﷺ — من الفتح جاءه جبريل عليه السلام فأخبره بأن هوذة قد مات . فقال — ﷺ — :

— أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ ، يقتل بعدى .

فقال خالد بن الوليد :

— يا رسول الله من يقتله ؟

— أنت وأصحابك .

ذكريات هيجتها الوفود الغادية من الشمال ومن الجنوب ومن كل فج عميق من بلاد العرب ، ووحى ينزل على الرسول صلوات الله وسلامه عليه من فوق سبع سموات يتوج تلك الوفود التى جاءت طائعة لتعلن على الملأ شهادة الحق المبين ، يقول الله تبارك وتعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا . »(١) .

---

(١) سورة النصر .

التذييل

كانت الهجرات تتوالى من اليمن إلى الأراضى التى حولها ، فقد كانت اليمن مخزنا بشريا يفيض على من حوله . وقد هاجرت إلى بلاد ما بين النهرين (العراق) بعض القبائل اليمنية تحمل معها اللغة العربية وعبادة الشمس والقمر والكواكب .

وفى مدينة أور التى كانت عند مصب نهر دجلة استقر أجداد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وولد خليل الرحمن فى عهد والد حمورابى من أسرة عربية لسانها عربى ؛ فلم يكن عليه السلام أعجميا كما زعم بعض الذين أرخوا لتلك الحقبة من المؤرخين الإسلاميين .

وأرسل الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام ليدعو قومه إلى عبادة الله وحده فكان يدعوهم بلسان عربى ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »(١) . فلما اضطهد وعذب وألقى فى النار هاجر ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط إلى الشام . و لم يطل به المقام فقد ذهب إلى مصر وأهدى إليه هاجر فتزوجها وولدت له إسماعيل ، وولدت له سارة إسحاق . وكان إسماعيل وإسحاق يتكلمان العربية ولا ريب لغة الأب والقوم .

واستقر إسماعيل وهاجر عند بئر زمزم فى أرض العرب ، ونزل إسحاق فى حبرون فى أرض الشام . وجاء يعقوب هو إسرائيل . وكان ليعقوب اثنا عشر

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٤) .

ولدا : رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا ودانا ونفتالى وجادا وأشير ويشَّاكر وزوبولون ويوسف وبنيامين .

وإن القرآن العظيم يقرر أن إبراهيم خليل الرحمن هو الذى سمى أتباعه بالمسلمين « ... ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس »[١] . وأن إسحاق ويعقوب (إسرائيل) والأسباط كانوا مسلمين . « لا إله إلا الذين آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين »[٢] . « قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰها واحدا ونحن له مسلمون »[٣] .

وكان يعقوب وأبناؤه فى فلسطين فى حبرون مهاجرين ، وقد عاشوا بين الكنعانيين وكانت العبرية لسان الكنعانيين وما كانت أكثر من لهجة من اللهجات العربية . وقد كان من الميسور التفاهم بين القادمين من أرض الكلدانيين والمقيمين فى أرض فلسطين بين الوافدين وأصحاب الأرض الحقيقيين .

وحدث أن كاد إخوة يوسف لأخيهم الأثير عند أبيه فألقوه فى بئر ، وجاءت قافلة من قوافل بنى إسماعيل المنطلقة إلى مصر وأنقذوا يوسف وباعوه لعزيز مصر . وشب يوسف فى قصر من قصور مصر فتعلم ولا ريب لغة قدماء المصريين ونبغ فيها حتى أصبح وزير الخزانة فى الدولة المصرية القديمة . وجاء يعقوب (إسرائيل) إلى مصر مع أبنائه وذريتهم وعاش بنو إسرائيل مئات السنين بين المصريين فكان لسانهم لسان قدماء المصريين ، فقد كانوا يعملون

---

(١) سورة الحج الآية (٧٨) .

(٢) سورة يونس الآية (٩٠) .

(٣) سورة البقرة الآية (١٣٣) .

فى مزارع فرعون ويعيشون بين قوم يتحدثون بلغة الفراعين .

وأصبحت لغة بنى إسرائيل لغة قدماء المصريين بحكم طول المدة التى عاشوها فى دلتا النيل . وولد موسى عليه السلام فى أرض مصر وألقته أمه فى اليم والتقطته زوجة فرعون فربى فى القصر الفرعونى وشب لا يعرف لغة غير لغة المصريين . وقد لقب بالأمير فهو أمير فرعونى النشأة فرعونى اللسان لم يعرف اللغة العبرية ، و لم يكن بنو إسرائيل الذين عاشوا فى مصر منذ يوسف الصديق إلى موسى عليه السلام يعرفون عن العبرية شيئا .

و كان موسى عليه السلام من نسل لاوى ، ولما كان اليهود من نسل يهوذا فلم يكن موسى يهوديا ، وإنه من الخطأ التاريخى أن ينسب موسى عليه السلام إلى اليهود . كما أنه من أكبر الخطأ أن يقال إن إبراهيم كان يهوديا فلا يجوز أن ينسب الجد إلى الحفيد . وقد جادل اليهود النبى — ﷺ — فى هذه الحقيقة فجاء القرآن العظيم ودحض زعم اليهود ، وإن ما قرره القرآن هو عين الحقيقة التاريخية : « يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين »(١) .

وشب موسى عليه السلام فى كنف البيت الفرعونى لسانه لسانهم ، وحتى إذا كان على صلة ببنى إسرائيل فلسانهم هو لسان قدماء المصريين الذين عاشوا بينهم أكثر من أربعمائة سنة وما كانوا قد عرفوا بعد العبرية التى كانت لسان

(١) سورة آل عمران الآيات (٦٥ — ٦٨) .

الكنعانيين سكان فلسطين .

وفر موسى عليه السلام من أرض مضر إلى مدين فى بلاد العرب ، فإذا كان قد تعلم لغة غير لغة الفراعين فهى لغة أهل مدين وليست العبرية لغة الكنعانيين ، ثم عاد بعد سبع سنين إلى مصر بعد أن أوحى إليه فى الوادى المقدس طوى بسيناء وأمره ربه أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده . ومما لا شك فيه أن موسى كان يحاور فرعون ووزراءه ورجال قصره بلسانهم فهو قد شب فيهم وتربى على أيديهم .

وخرج موسى ببنى إسرائيل الذين عاشوا فى مصر منذ أن جاءوا أيام يوسف الصديق إلى يوم الخروج ، وهى فترة تزيد على أربعمائة سنة اكتسبوا فيها اللسان المصرى القديم ، ولما كان الله يبعث الرسل بألسنة الأقوام الذين يرسلون إليهم فقد كانت أوامر الله ونواهيه التى أرسلها إلى بنى إسرائيل على لسان موسى عليه السلام باللسان المصرى القديم .

وبقى موسى عليه السلام وبنو إسرائيل فى أرض سيناء أربعين سنة ليست لهم لغة غير اللغة المصرية القديمة . ومات موسى فى أرض التيه قبل أن يدخل بنو إسرائيل فلسطين . وقبل أن يتكلموا العبرية لغة الكنعانيين أهل البلاد كما تكلموا من قبل اللغة المصرية القديمة لغة المصريين الذين مكثوا فيهم مئات السنين ، وما دام موسى عليه السلام وقومه لم يعرفوا العبرية فمن أين كتبت التوراة بالعبرية ومتى كان ذلك التدوين ؟ إن التوراة التى بين أيدينا ، توراة المنفى وهى سجل تاريخ بنى إسرائيل واليهود لا أكثر ولا أقل توضح ذلك وتجيب عنه .

وقبل أن أناقش الإصحاحات التى تروى سبى بنى إسرائيل واليهود وحملهم إلى بابل بعد أن حرق بختنصر التوراة وقوض الهيكل ، أحب أن أوضح

الفرق بين بنى إسرائيل وبين اليهود .

يعقوب عليه السلام هو إسرائيل وقد أنجب اثنى عشر رجلا ، وقد عرف أبناء هؤلاء الرجال بالأسباط ، فالأسباط جميعا بنو إسرائيل . أما اليهود فهم نسل يهوذا الابن الرابع لإسرائيل ، فهم سبط واحد من الأسباط الاثنى عشر. وقد بدأت التفرقة بين بنى إسرائيل واليهود لما تولى داود وسليمان عليهما السلام ملك بنى إسرائيل فقد كانا من نسل يهوذا . ولما كان الملك فى إسرائيل أعظم من النبوة فقد ملأ الزهو سبط يهوذا وبدأ اليهوذيون يفضلون أنفسهم على بنى إسرائيل جميعا ، فانقسمت دولة إسرائيل بعد داود وسليمان عليهما السلام إلى دولتين : دولة إسرائيل ودولة اليهودية . ومنذ ذلك الوقت عرفت اليهودية وما كانت معروفة أيام داود وسليمان عليهما السلام ، وإن كان توليهما الملك هو سبب نشأة ذلك الانقسام .

ونشبت العداوة بين أشور ومصر وكانت إسرائيل تستمد سلطانها من ملك مصر ، فمشى ملوك آشور إلى إسرائيل وحاربوا بنى إسرائيل واليهود الخاضعين لفرعون مصر . وكانوا يحملون الأسرى إلى بابل ويسلخون جلودهم وهم أحياء ويصنعون أهراما من جماجم رءوسهم .

وكان بعض ملوك إسرائيل أو اليهودية يتأرجحون بين ملك آشور وملك مصر ، فكان ملك مصر يعزل ملك إسرائيل الذى تبدو الخيانة من تصرفاته ، ولنقرأ ذلك فى التوراة سجل تاريخ بنى إسرائيل واليهود : « وأخذ شعب الأرض يوآخاز بن بوشيا وملكوه عوضا عن أبيه فى أورشليم . كان يوآخاز ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك ، وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم وعزله ملك مصر فى أوورشليم وغرم الأرض بمائة وزنة من الفضة وبوزنة من الذهب ، وملَّك ملك مصر الياقيم أخاه على يهوذا وأورشليم وغير اسمه إلى يهوياقيم . وأما

يوآخاز أخوه فأخذه نخو وأتى به إلى مصر » .

من هذا الإصحاح يتضح أن نخو فرعون مصر كان المسيطر على إسرائيل واليهودية ، وأنه عزل ملك أورشليم وأخذه أسيرا إلى مصر وولى أخاه مكانه ، أى أن أثر مصر فى إسرائيل واليهودية كان لا يزال باقيا حتى تلك الأيام وهى الأيام التى سبقت هجوم بختنصر على إسرائيل وحمل بنى إسرائيل إلى بابل أرض السبى ؛ فلا غرابة إذا ما ظهر أثر الديانة المصرية القديمة فى التوراة التى كتبت فى المنفى ، بل ان الأمر كان سيكون غريبا لو لم يظهر تأثير تلك الديانة والمعتقدات الفرعونية .

« كان يهوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك وملك احدى عشرة سنة فى أورشليم وعمل الشر فى عينى الرب إلهه » . ولنقف هنا قليلا لنقول إن كتّاب التوراة لا يذكرون عمل الشر فى عينى الرب إلا كان ذلك إيذانا بأن الملك ستحيق به هزيمة ، فهم لا يفزعون من عمل الشر بل ترتعد فرائصهم من الهزيمة ولا يجدون لذلك تعليلا إلا عصيان رب ، فالعبادة عندهم لإطالة العمر والنصر فى الحرب . فما دامت الحرب قد انتهت بالهزيمة فذلك قرينة على أن الملك قد عمل الشر فى عينى الرب ، فالصلة عندهم بين العبد وربه صلة أرضية ما داموا لا يؤمنون ببعث أو نشور .

ولنقرأ معا باقى الإصحاح لنرى أن كتّاب التوراة كانوا منطقيين مع فسلفتهم و لم يغيروا أسلوب تفكيرهم ، فقد نزلت بيهوياقيم شر هزيمة بل أكبر نكبة أصابت إسرائيل واليهودية : « عليه صعد نبوخذناصَّر ملك بابل وقيده بسلاسل نحاس ليذهب به إلى بابل . وأتى نبوخذناصر ببعض آنية بيت الرب إلى بابل وجعلها فى هيكله فى بابل » .

وكما فعل نخو فرعون مصر فعل بختنصر (نبوخذناصر) ملك بابل ، فإنه ولّى يهوياكين ملك إسرائيل واليهودية مكان أبيه : « وكان يهوياكين ابن ثمانى سنين حين ملك ، وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام فى أورشليم وعمل الشر فى عينى الرب . وعند رجوع السنة أرسل الملك نبوخذناصر فأتى به إلى بابل مع آنية بين الرب الثمينة . وملّك صدقيا أخاه على يهوذا وأورشليم . كان صدقيا ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك وملك إحدى عشرة سنة فى أورشليم وعمل الشر فى عينى الرب إلـٰهه ولم يتواضع أمام أرميا النبى من فم الرب . وتمرد أيضا على الملك نبوخذناصر الذى حلّفه بالله وصلّب عنقه وقوى قلبه عن الرجوع إلى الرب إلـٰه إسرائيل . حتى إن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذى قدسه فى أورشليم ، فأرسل الرب إلـٰه آبائهم إليهم عن يد رسله مبكرا ومرسلا لأنه مشفق على شعبه ومسكنه . فكانوا يهزءون برسل الله ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء . فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم ، ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده ، وجمع آنية بيت الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه وأتى بها جميعا إلى بابل ، وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنـار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة ، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدا . إلى أن ملكت مملكة فارس لإكمال كلام الرب بفم أرميا حتى استوفت الأرض سبوتها لأنها سبتت فى كل أيام خرابها لإكمال سبعين سنة » .

كانت العداوة ناشبة بين بابل ومصر ، وكانت فلسطين الجسر الذى يعبره كل من الطرفين إلى الآخر ، فإذا رأى فرعون مصر عواطف ملك إسرائيل

ويهوذا مع عدوه وأتيحت له الفرصة أن يخلع ذلك المرائى كان يتردد فى خلعه ، وإذا رأى ملك بابل عواطف ملك إسرائيل ويهوذا مع عدوه فما كان يتردد فى أن يسير بجيوشه ليؤدب ذلك الذى يناصر أعداءه . وكان بختنصر يعلم علم اليقين أن هوى إسرائيل كان مع مصر فمشى بجيوشه ودك هيكل سليمان وحرق جميع نسخ التوراة وهدم سور أورشليم وحمل آنية الذهب والفضة إلى هيكل مردوخ فى بابل بأرض العراق .

إنه قسم سكان إسرائيل ويهوذا إلى ثلاث فرق : فرقة أبادها بالسيف ، وفرقة حملها أسرى إلى بابل وكان أبناء الأنبياء فى هذه الفرقة والأنبياء فى بنى إسرائيل كانت لهم مدارس يتلقون فيها شرح التوراة والشعر والموسيقى وكانوا أقرب إلى العرافين المتنبئين وكانت تنبؤاتهم تصدق أحيانا وكثيرا ما كان يتجنبها التوفيق ، وفرقة من الشيوخ والعجائز تركها بأرض فلسطين .

وكان لسان الذين حملوا إلى بابل عبريا فقد عاش بنو إسرائيل منذ خرجوا من مصر بين الكنعانيين مئات السنين فأخذوا عنهم لغتهم ، وفى المنفى دونوا بها توراتهم فعرفت اللغة العبرية بأنها لغة العبرانيين . ونسى الناس أصحابها الأولين ولم يكتفوا بنسبة لغة الكنعانيين إليهم ظلما وعدوانا بل حاولوا أن يسخروا التوراة التى كتبوها فى أرض السبى ليسلبوا أرض فلسطين فوضعوا على لسان ربهم وعودا ما أنزل الله بها من سلطان ، فقد كان ربهم يكافئهم على كفرانهم بتوكيد الوعد المزعوم . وما من سفر من أسفار التوراة قد خلا من وعد إلـٰه إسرائيل شعب إسرائيل بأرض فلسطين حتى إن تكرار الوعد قد حمل فى طياته التشكيك فيه .

إن موسى لم يعرف العبرية وكذلك لم يعرفها بنو إسرائيل الذين عاشوا فى مصر منذ جاءوا فى عصر يوسف الصديق إلى أن خرجوا مع موسى عليه

السلام . وقد نزلت التوراة على موسى وإنه لأمر بديهى أن تنزل بلسان القوم : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[١] . وعلى ذلك كانت التوراة التى نزلت على موسى باللغة المصرية القديمة ولا صلة بينها وبين التوراة العبرية ، اللهم إلا إذا بقى فى الصدور بعض وصايا موسى وأصداء من أوامره ونواهيه .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى هم أبناء الأنبياء الذين كانوا يتلقون الشريعة الموسوية ويتعلمون الموسيقى والشعر فى مدارس الرامة وبيت إيل وأريحة والجلجال ، وهم عزير (عزرا) ونحميا ودانيال . وقد احتوت التوراة سفرا عن عزرا وآخر عن نحميا وثالث عن دانيال وجاء سفر عزرا عقب سفر أخبار الأيام الثانى .

وافتتح سفر عزرا بمباركة تولية كورش مُلك فارس وانتصاره على الكلدانيين ، لأن كورش كان قد آمن بدعوة زرادشت ، واحتراما للدين الموسوى وافق على عودة بنى إسرائيل واليهود إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل . « وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم أرميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته وبالكتابة أيضا قائلا : هكذا قال كورش ملك فارس . جميع ممالك الأرض دفعها إلى الرب إلـٰه السماء وهو أوصانى أن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا . من منكم من كل شعبه ليكن إلـٰهه معه ويصعد إلى أورشليم التى فى يهوذا فيبنى بيت الرب إلـٰه إسرائيل هو الإلـٰه الذى فى أورشليم ، وكل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٤) .

لبيت الرب الذى فى أورشليم .

فقام رءوس آباء يهوذا وبنيامين والكهنة واللاويون مع كل من نبه الله روحه ليصعدوا ليبنوا بيت الرب الذى فى أورشليم ، وكل الذين حولهم أعانوهم بآنية فضة وبذهب وبأمتعة وببهائم وبتحف فضلا عن كل ما تبرع به » .

وسواء أكان الملك قورش قال ذلك القول أم كان من وضع الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، فإنهم قد اعترفوا بأن للأميين إلـٰها وما كانوا يعترفون إلا بإله إسرائيل الذى فى أورشليم ، وهو اعتراف يهدم دعواهم بأنهم وحدهم الناس وأنهم شعب الله المختار .

وكانت آنية الذهب والفضة شغل الذين كتبوا التوراة ، فالذهب فى حقيقة الأمر هو معبود إسرائيل وقد كان أهم سبب لتقديس هيكل سليمان ما فيه من ذهب نضار ؟ « والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التى أخرجها نبوخذناصر من أورشليم وجعلها فى بيت آلهته . وأخرجها كورش ملك فارس عن يد متردات الخازن وعدها لشيشبصَّر رئيس يهوذا . وهذا عدَّدها : ثلاثون طستا من ذهب وألف طست من فضة وتسعة وعشرون سكينا وثلاثون قدحا من ذهب وأقداح فضة من الرتبة الثانية أربعمائة وعشرة وألف من آنية أخرى . جميع الآنية من الذهب والفضة خمسة آلاف وأربعمائة والكل أصعده شيشبصَّر عند إصعاد السبى من بابل إلى أورشليم » .

بدأ الإصحاح الأول من سفر عزرا بأن رب السماء أوحى إلى قورش ملك فارس بأن يبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا ، وأنه أصدر كتابا بذلك ، ولكن الإصحاحات التالية تزعزع ذلك الزعم ، فأكاسرة الفرس كانـوا يعارضون إعادة بناء الهيكل أشد معارضة : « وفى السنة الثانية من مجيئهم

إلى بيت الله إلى أورشليم فى الشهر الثانى شرع زربايل بن شألتئيل ويشوع بن يوصاداق وبقية إخوتهم الكهنة واللاويين وجميع القادمين من السبى إلى أورشليم ، وأقاموا اللاويين من ابن عشرين سنة فما فوق للمناظرة على عمل بيت الرب ، ووقف يشوع مع بنيه وإخوته قدميئيل وبنيه بنى يهوذا معا للمناظرة على عاملى الشغل فى بيت الله ، وبنى حيناداد مع بنيهم وإخوتهم اللاويين ، ولما أسس البانون هيكل الرب أقاموا الكهنة بملابسهم بأبواق واللاويين بنى أساف بالصنوج لتسبيح الرب على ترتيل داود ملك إسرائيل . وغنوا بالتسبيح بالحمد للرب لأنه صالح ، لأن إلى الأبد رحمته على إسرائيل ، وكل الشعب هتفوا هتافا عظيما بالتسبيح للرب لأجل تأسيس بيت الرب ، وكثيرون من الكهنة واللاويين ورءوس الآباء الشيوخ الذين رأوا البيت الأول بكوا بصوت عظيم عند تأسيس هذا البيت أمام أعينهم ، وكثيرون كانوا يرفعون أصواتهم بالهتاف بفرح . ولم يكن الشعب يميز هتاف الفرح من صوت بكاء الشعب لأن الشعب كان يهتف هتافا عظيما حتى إن الصوت سمع من بعيد .

ولما سمع أعداء يهوذا وبنيامين أن بنى السبى يبنون هيكلا للرب إلـٰه إسرائيل تقدموا إلى زربايل ورءوس الآباء وقالوا لهم نبنى معكم لأننا نظيركم نطلب إلـٰهكم وله قد ذبحنا من أيام أسر حدون ملك أشور الذى أصعدنا إلى هنا . فقال لهم زربايل ويشوع وبقية رءوس إسرائيل : ليس لكم ولنا أن نبنى بيتا لإلـٰهنا ، ولكننا نحن وحدنا نبنى للرب إلـٰه إسرائيل كما أمرنا الملك كورش ملك فارس . وكان شعب الأرض يرخون أيدى شعب يهوذا ويذعرونهم عن البناء ، واستأجروا ضدهم مثيرين ليبطلوا مشورتهم كل أيام كورش ملك فارس وحتى ملك داريوس ملك فارس » .

ألا يبدو غريبا أن أناسا يأتون إلى بنى إسرائيل ويشهدون أنهم آمنوا بإلـٰه إسرائيل وأنهم ذبحوا له ثم يتطوعون لبناء هيكل الرب فيرفض بنو إسرائيل ذلك ؟

إنه شيء غريب لو قسناه بمنطق أصحاب الديانات الذين يرحبون بدخول الناس فى الدين الذى يؤمنون به ، ولكن بنى إسرائيل يرون أنهم وحدهم الناس وأن الرب إنما هو إلـٰههم وحدهم فهو قد اصطفاهم لنفسه شعبا مختارا ، لهم وحدهم الرحمة ، فكيف يرضون بإشراك غيرهم فى هذا الامتياز ؟ فأغلقوا أبواب رحمة الله فى وجوه الأمم كلاب البشرية .

وما دام الرب قد دفع جميع ممالك الأرض إلى كورش ، وما دام كورش قد كتب إلى ولاته أن إلـٰه السماء أوصاه أن يبنى الهيكل ، فكيف جرؤ أناس على معارضة بناء الهيكل ؟ وكيف استأجروا مشاغبين ليعطلوا البناء دون أن يحرك قورش العظيم ساكنا ؟!

الظاهر أن عزرا ونحميا والذين اشتركوا فى كتابة التوراة فى المنفى أخذهم الحماس وهم يكتبون مذكراتهم اليومية التى أصبحت فيما بعد التوراة ، أو بمعنى أدق الأدب العبرى الذى اتخذ شكلا دينيا أثر فى جميع الكتَّاب والمفكرين على مر العصور .

و لم يكتف المعارضون بإرخاء أيدى شعب يهوذا عن البناء بل بلغ بهم الأمر أن تقدموا بشكوى إلى الملك أخشويرش يطلبون فيها وقف شعب يهوذا عن بناء الهيكل . وأحب هنا أن أشير إلى أن اليهود أحفاد يهوذا قد بدءوا يخرجون بنى إسرائيل من رحمة الله ويثبتونها لسبط يهوذا وحده . ولا جرم فإن من بيده السلطة فى إسرائيل سواء أكانت سلطة دنيوية أم قلما يسجل به أحداث التاريخ من حقه أن يطرد من يشاء من دنيا الله .

وفى ملك أخشويرش ، فى ابتداء ملكه ، كتبوا شكوى على سكان يهوذا وأورشليم، وفى أيام أرتخشستا كتب بشلام ومترداث (يلاحظ أن مترداث هو الذى أخرج آنية الذهب والفضة بأمر كورش لتحمل إلى الهيكل) وطبئيل وسائر رفقائهم إلى أرتخشستا ملك فارس ، وكتابة الرسالة مكتوبة بالأرامية ومترجمة بالأرامية . رحوم صاحب القضاء وشمشاى الكاتب كتبا رسالة ضد أورشليم إلى أرتخشستا الملك هكذا . كتب حينئذ رحوم صاحب القضاء وشمشاى الكاتب وسائر رفقائهما الدينيين والأفرستيكيين والطرفليين والأفرسيين والأركويين والبابليين والشوشنيين والدّهويين والعلاميين وسائر الأمم الذين سباهم أسنفر العظيم الشريف وأسكنهم مدن السامرة وسائر الذين فى عبر النهر إلى آخر . هذه صورة الرسالة التى أرسلوها إليه إلى أرتخشستا الملك :

عبيدك القوم الذين فى عبر النهر إلى آخره . ليعلم الملك أن اليهود الذين صعدوا من عندك إلينا قد أتوا إلى أورشليم ويبنون المدينة العاصية الردية ، وقد أكملوا أسوارها ورمموا أسسها ، ليكن الآن معلوما لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون جزية ولا خراجا ولا خفارة . وأخيرا تضرُّ الملوك ، والآن بما أننا نأكل ملح دار الملك ولا يليق بنا أن نرى ضرر الملك لذلك أرسلنا فأعلمنا الملك لكى يفتش فى سفر أخبار آبائك فتجد فى سفر الأخبار وتعلم أن هذه المدينة مدينة عاصية ومضرة للملوك والبلاد ، وقد عملوا عصيانا فى وسطها منذ الأيام القديمة ، لذلك أخربت هذه المدينة ، ونحن نعلم الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يكون لك عند ذلك نصيب فى عبر النهر .

فأرسل الملك جوابا إلى رحوم صاحب القضاء وشمشاى الكاتب وسائر

رفقائهما الساكنين فى السامرة وباقى الذين فى عبر النهر . سلام إلى آخره . الرسالة التى أرسلتموها إلينا قد قرئت بوضوح أمامى . وقد خرج من عندى أمر ففتَّشوا ووُجد أن هذه المدينة منذ الأيام القديمة تقوم على الملوك وقد جرى فيها تمرد وعصيان ، وقد كان ملوك مقتدرون على أورشليم وتسلطوا على جميع عَبْر النهر وقد أعطوا جزية وخراجا وخفارة ، فالآن أخرجوا أمرا بتوقيف أولئك الرجال فلا تُبنى هذه المدينة حتى يصدر منى أمر . فاحذروا من أن تقصروا عن عمل ذلك . لماذا يكثر الضرر لخسارة الملوك ؟

حينئذ لما قرئت رسالة أرتحشستا الملك أمام رحوم وشمشاى الكاتب ورفقائهما ذهبوا بسرعة إلى أورشليم إلى اليهود وأوقفوهم بذراع وقوة . حينئذ توقف عمل بيت الله الذى فى أورشليم وكان متوقفا إلى السنة الثانية من ملك داريوس ملك فارس .

إذا كان الله أو رب السماء أو إلـٰه إسرائيل قد أمر قورش أن يبنى بيته فى أورشليم فكيف يجرؤ خلفاؤه أن يعصوا أوامر إلـٰه السماء وأن يصدروا أمرا بوقف البناء؟ مزاعم ولا ريب زعمها عزرا ونحميا ومن كتبوا التوراة ليدعموا حقهم بأمر كسروى بعد أن تعبوا فى تدعيم ذلك الحق بأوامر سماوية ووعود ربانية لم تستطع أن تقف فى وجه نبوخذناصر وتمنعه من تقويض الهيكل وقتل الرجال وحمل السبى من شعب الله المختار إلى بلاده ليعيشوا فيها حياة العبيد الأذلاء .

صدر أمر كورش فجعلوه وحيا سماويا ، وصدر أمر أرتحشستا بوقف البناء فهل يحنون له الرءوس ؟ إنهم يؤمنون بوضع العالم أمام الأمر الواقع منذ فجر تاريخهم ، فراحوا يعملون لينفذوا الحلم الذى عاشوا له طوال سنى الأسر : « فتنبأ النبيان حجّى النبى وزكريا بن عِدّو لليهود الذين فى يهوذا وأورشليم

(يلاحظ استخدام اليهود عوضا عن بنى إسرائيل) باسم إلـٰه إسرائيل عليهم . حينئذ قام وربابل بن شألتيئيل ويشوع بن يوصاداق وشرعا ببنيان بيت الله الذى فى أورشليم ومعهما أنبياء الله يساعدونهما فى ذلك الزمان ؛ جاء إليهم تنتاى والى عبر النهر وشتربوزناى ورفقاؤهما وقالوا لهم هكذا : من أمركم أن تبنوا هذا البيت وتكملوا هذا السور ؟ حينئذ أخبرناهم على هذا المنوال ، ما هى أسماء الرجال الذين يبنون هذا البناء ، وكانت على شيوخ اليهود عين إلـٰههم فلم يوقفوهم حتى وصل الأمر إلى داريوس وحينئذ جاوبوا برسالة عن هذا .

صورة الرسالة التى أرسلها تنتاى والى عبر النهر وشتربوزناى ورفقاؤهما والأفرسكيين الذين فى عبر النهر إلى داريوس الملك . أرسلوا إليه رسالة وكان مكتوبا فيها هكذا :

ـــ لداريوس الملك كل سلام : ليكن معلوما لدى الملك أننا ذهبنا إلى بلاد يهوذا بيت الإلـٰه العظيم وإذا به يبنى بحجارة عظيمة ويوضع خشب فى الحيطان ، وهذا العمل يعمل بسرعة وينجح فى أيديهم . حينئذ سألنا أولئك الشيوخ وقلنا لهم هكذا : من أمركم ببناء هذا البيت وتكميل هذه الأسوار ؟ وسألناهم أيضا عن أسمائهم لنعلمك ، وكتبنا أسماء الرجال رءوسهم ، وبمثل هذا الجواب جاوبوا قائلين : نحن عبيد إلـٰه السماء والأرض ونبنى هذا البيت الذى بنى قبل هذه السنين الكثيرة ، وقد بناه ملك عظيم لإسرائيل وأكمله ، ولكن بعد أن أسخط آباؤنا إلـٰه السماء دفعهم ليد نبوخذنصر ملك بابل الكلدانى الذى هدم هذا البيت وسبى الشعب إلى بابل . على أنه فى السنة الأولى لكورش ملك بابل أصدر كورش الملك أمرا ببناء بيت الله هنا . حتى إن آنية بيت الله هذا التى من ذهب وفضة والتى أخرجها نبوخذنصر من الهيكل الذى فى أورشليم وأتى بها إلى الهيكل الذى فى بابل أخرجها كورش الملك من الهيكل

الذى فى بابل وأعطيت لواحد اسمه شيشبصَّر الذى جعله واليا : وقال له خذ هذه الآنية واذهب واحملها إلى الهيكل الذى فى أورشليم وليبن بيت الله فى مكانه . حينئذ جاء شيشبصَّر ووضع أساس بيت الله الذى فى أورشليم ، ومن ذلك الوقت إلى الآن وبنى ولما يكمل . والآن إذا حسن عند الملك فليفتش فى بيت خزائن الملك الذى هو هناك فى بابل : هل كان قد صدر أمر من كورش الملك ببناء بيت الله هنا فى أورشليم ، وليرسل الملك إلينا مراده فى ذلك » .

كلام لا يزيد على محضر تحقيق متحيز ، ولا غرو فإن كاتب هذا الإصحاح كان فى الذين أجابوا المحققين فهو طرف فى القضية . ويلاحظ ذلك فى قوله ردا على سؤال المحققين عن أسماء الرجال الذين يبنون الهيكل : حينئذ أخبرناهم على هذا المنوال ما هى أسماء الرجال الذين يبنون هذا البناء .

ويثور فى ذهنى سؤال : كيف قبل المسيحيون أن تكون مثل هـذه المذكرات التى لا صلة لها بوحى السماء جزءا متمما لإنجيلهم ، جزءا لا يتم الدين المسيحى إلا به ؟! وكيف يعقل أن داريوس لا يعلم بأمر كورش وأن اليهود يسألونه أن يرجع إلى خزائن الملك ولا يكتفون بذلك بل يحددون له موضعها « فليفتش فى بيت خزائن الملك الذى هو هناك فى بابل » .

« حينئذ أمر داريوس الملك ففتشوا فى بيت الأسفار حيث كانت الخزائن موضوعة فى بابل . فوجد فى أحمنا فى القصر الذى فى بلاد مادى درج مكتوب فيه هكذا : تذكار فى السنة الأولى لكورش الملك أمر كورش الملك من جهة بيت الله فى أورشليم ليبن فى المكان الذى يذبحون فيه ذبائح ، ولتوضع أسسه ارتفاعه ستون ذراعا وعرضه ستون ذراعا بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب جديد ، ولتعط النفقة من بيت الملك ، وأيضا آنية بيت الله التى من ذهب وفضة التى أخرجها نبوخذنصر من الهيكل الذى فى أورشليم

وأتى بها إلى بابل فلترد وترجع إلى الهيكل الذى فى أورشليم إلى مكانها وتوضع فى بيت الله .

والآن ياتنتاى والى عبر النهر وشتربوزناى ورفقاءكما الافرسكيين الذين فى عبر النهر ابتعدوا من هناك ، اتركوا عمل بيت الله هذا . وأما والى اليهود وشيوخ اليهود فليبنوا بيت الله هذا فى مكانه ، وقد صدر منى أمر بما تعملون مع شيوخ اليهود هؤلاء فى بناء بيت الله هذا ، فمن مال الملك ؛ من جزية عبر النهر تعطى النفقة عاجلا لهؤلاء الرجال حتى لا يبطلوا ، وما يحتاجون إليه من الثيران والكباش والخراف محرقة لإلـٰه السماء ، وحنطة وملح وخمر وزيت حسب قول الكهنة الذين فى أورشليم ، لتعط لهم يوما فيوما حتى لا يهدءوا عن تقريب روائح سرور لإلـٰه السماء ، والصلاة لأجل حياة الملك وبنيه ، وقد صدر منى أمر أن كل إنسان يغير هذا الكلام تنسحب خشبة من بيته ويعلق مصلوبا عليها ويجعل بيته مزبلة من أجل هذا . والله الذى أسكن اسمه هناك يهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو لهدم بيت الله الذى فى أورشليم ، وأنا داريوس قد أمرت فليفعل عاجلا » .

لم يكتف عزرا بأن يقرر أن كورش أمر ببناء الهيكل بل جعله مهندسا يعرف ارتفاعه وعرضه ، وجعل داريوس لا علم له بأمر أصدره كورش ولا بنفقة خرجت من خزانته كأنما كان ذلك سرا لا يعلمه أحد فى مملكة فارس .

وقد أخذه الحماس وهو يكتب هذا الإصحاح فجعل داريوس يبارك بناء الهيكل ويلتمس الدعاء من الكهنة ليطيل إلـٰه السماء أيامه على الأرض . وقد خفى على كاتب هذا الإصحاح أن داريوس كان يؤمن برسالة زرادشت وأنه يؤمن بيوم البعث والحساب ، فلو أنه سأل كهنة اليهود حقا أن يقدموا القرابين سرورا للإلـٰه وأن يدعوا له ، لسألهم أن يدعوا له بسعادة الدنيا والآخرة التى

يؤمن بها ، وإن كان اليهود لا يعرفون اليوم الآخر . وإن قارئ هذا الإصحاح يقف عنده متسائلا : ما دام داريوس يؤمن بكل ما قال فلماذا لم يتهود ؟ إنه يؤمن بأن القرابين روائح سرور للإلٰه ، ويؤمن بتقديم الثيران والكباش قرابين للإلٰه ، ويصدر أوامره لبناء هيكل إلٰه إسرائيل ، فما الذى يحول بينه وبين الدخول فى اليهودية يا أنبياء بنى إسرائيل ؟!

ويتم بناء الهيكل فى شهر آذار فى السنة السادسة من ملك داريوس الملك ، ويبدأ الكلام على عزرا الكاهن وهو أحد الذين كتبوا التوراة فى المنفى بعد أن أحرق نبوخذنصر كل نسخ التوراة القديمة فى الإصحاح السابع من سفر عزرا : « وبعد هذه الأمور فى ملك أرتخشستا ملك فارس صعد عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا بن شالوم بن صادوق بن أخيطوب بن أمريا بن عزريا ابن مرايوث بن زرحيا بن عزى بن بُقى بن أبيشوع بن فينحاس بن العازار ابن هرون الكاهن الرأس . عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتب ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الرب إلٰه إسرائيل ، وأعطاه الملك حسب يد الرب إلٰهه عليه كل سؤاله ، وصعد معه من بنى إسرائيل والكهنة واللاويين والمغنيين إلى أورشليم فى السنة السابعة لأرتخشستا الملك .

وجاء إلى أورشليم فى الشهر الخامس فى السنة السابعة للملك لأنه فى الشهر الأول ابتدأ يصعد من بابل ، وفى أول الشهر الخامس جاء إلى أورشليم ، حسب يد الله الصالحة عليه ، لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها ، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء .

وهذه صورة الرسالة التى أعطاها الملك أرتخشستا لعزرا الكاهن الكاتب : كاتب كلام وصايا الرب فرائضه على إسرائيل .

من أرتخشستا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إلٰه السماء

الكامل إلى آخره :

قد صدر منى أمر أن كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع ، من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة إلٰهك التى بيدك . ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيروه لإلٰه إسرائيل الذى فى أورشليم مسكنه ، وكل الفضة والذهب التى تجد فى كل بلاد بابل مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلٰههم الذى فى أورشليم ، لكى تشترى عاجلا بهذه الفضة ثيرانا وكباشا وخرافا وتقدماتها وسكائبها وتقربها على المذبح لذى فى بيت إلٰهكم الذى فى أورشليم . ومهما حسن عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقى الفضة والذهب فحسب إرادة إلٰهكم تعملونه ، والآنية التى تعطى لك لأجل خدمة بيت إلٰهك فسلمها أمام إلٰه أورشليم . وباقى احتياج بيت إلٰهك الذى يتفق لك أن تعطيه فأعطه من بيت خزائن الملك ، ومنى أنا أرتحشستا الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين فى عبر النهر أن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إلٰه السماء فليعمل بسرعة ، إلى مائة وزنة من الفضة ومائة كر من الحنطة ومائة بث من الخمر ومائة بث من الزيت والملح من دون تقييد ، كل ما أمر به إلٰه السماء فليعمل باجتهاد لبيت إلٰه السماء لأنه لماذا يكون غضب على مُلك الملك وبنيه .

ونعلمكم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنين والبوابين وخدام بيت الله هذا لا يؤذن أن يلقى عليهم جزية أو خراج أو خفارة ، وأما أنت يا عزرا فحسب حكمة إلٰهك التى بيدك ضع حكاما وقضاة يقضون لجميع الشعب الذى فى عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلٰهك ، والذين لا يعرفون فعلموهم ، وكل من لا يعمل شريعة إلٰهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلا إما بالموت

بالموت أو بالنفى أو بغرامة المال أو بالحبس .

مبارك الرب إلٰه آبائنا الذى جعل مثل هذا فى قلب الملك لأجل تزيين بيت الرب الذى فى أورشليم . وقد بسط علىَّ رحمة أمام الملك ومشيريه وأمام جميع رؤساء الملك المقتدرين ، وأما أنا فقد تشددت حسب يد الرب إلٰهى علىَّ وجمعت من بنى إسرائيل رؤساء ليصعدوا معى » .

هذا السفر كتبه عزرا وهو يصف نفسه بأنه كاتب شريعة إلٰه السماء ، فالتوراة التى نزلت على موسى عليه السلام بلسان قدماء المصريين قد ترجمت إلى العبرية ولا ريب حتى يستطيع أن يفهمها بنو إسرائيل الذين عاشوا بين الكنعانيين وتعلموا العبرية . وقد حرق نبوخذنصر جميع نسخ التوراة فقام عزرا فى المنفى وأعاد كتابة التوراة ، لذلك وصف نفسه بأنه كاتب شريعة إلٰه السماء ، وأن الكتاب الذى زعم عزرا بأن الملك أرتخشستا كتبه له لا يمكن أن يصدق إنسان أنه من إملاء الملك ، فلا يعقل أن ملكا يؤمن بأهورا مزدا إلٰه النور يتزلف لإلٰه إسرائيل مثل ذلك التزلف الذى تحتويه الرسالة. وهل يعقل أن الملك الذى دان بدين زرادشت يهتم بتقديم القرابين على مذبح أورشليم لرب إسرائيل.

إن السبب الحقيقى لذلك التقارب بين اليهود وبين أكاسرة الفرس سبب سياسى فى الدرجة الأولى ، فإسرائيل ويهوذا كانا على الدوام خاضعين لفرعون مصر وكانوا يدفعون له الجزية ، فلما شن نبوخذنانصر الحرب على إسرائيل ويهوذا وقتل من قتل وحمل من حمل إلى بابل ، ولما انتصر قورش على الكلدانيين وأصبحت له اليد العليا فى بابل ، وجد اليهود الذين كانوا فى أرض السبى أن من مصلحتهم أن يتعاهدوا مع ملوك فارس وأن يكونوا معهم على أعدائهم . وقد خرجوا فيما بعد مع قمبيز لما غزا مصر و لم يكونوا صادقين مع ملوك فارس بل كانوا صادقين مع أنفسهم ، فقد تركوا فى كل مدينة مروا بها

جالية حتى بلغوا أسوان لتكون تلك الجاليات فى خدمة إسرائيل وحكماء صهيون .

وراح عزرا يبث فى اليهود العنصرية البغيضة ويحرم زواج اليهودى من الأمم . « ... والآن ماذا تقول يا إلـٰهنا بعد هذا لأننا قد تركنا وصاياك التى أوصيت بها عن يد عبيدك الأنبياء قائلا : إن الأرض التى تدخلون لتملكوها هى أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضى برجساتهم التى ملئوها بها من جهة إلى جهة بنجاستهم. والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم وخبزهم إلى الأبد لكى تتشددوا وتأكلوا خبـز الأرض وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد . وبعد كل ما جاء علينا لأجل أعمالنا الرديئة وآثامنا العظيمة لأنك قد جازيتنا يا إلـٰهنا أقل من أثامنا وأعطيتنا نجاة كهذه ، أفنعود ونتعدى وصاياك ونصاهر شعوب هذه الرجاسات ؟ أما تسخط علينا حتى تفنينا فلا تكون بقية ولا نجاة ؟ أيها الرب إلـٰه إسرائيل أنت بار لأننا بقينا ناجين لهذا اليوم . ها نحن أمامك فى آثامنا لأنه ليس لنا أن نقف أمامك من أجل هذا » .

قورش وداريوس وأرتحشستا ملوك فارس أعادوا اليهود من أرض بابل أرض السبى إلى أورشليم ، فسرعان ما نسوا فضل ملوك الأمم عليهم واستولى عليهم الغرور وقالوا إنهم وحدهم الناس وإنه من الكفر أن يتزوج يهودى من غير يهودية ولا يهودية من غير يهودى ، لأنهم شعب فوق كل الشعوب وجنس فضله إلـٰه إسرائيل على العالمين .

وقد كان من نتيجة تعاليم عزرا هذه أن تقوضت بيوت كانت هانئة وتشرد أطفال أبرياء وألقى بنساء فضليات فى عرض الطريق : « فلما صلى عزرا واعترف وهو باك ساقط أمام بيت الله ، اجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة

جدا من الرجال والنساء والأولاد لأن الشعب بكى بكاء عظيما .

وأجاب شكنيا بن يحئيل من بنى عيلام وقال لعزرا : إننا قد خنا إلٰهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض . ولكن الآن يوجد رجاء لإسرائيل فى هذا . فلنقطع الآن عهدا مع إلٰهنا أن نخرج كل النساء والذى ولدوا منهن حسب مشورة سيدى والذين يخشون وصية إلٰهنا وليعمل حسب الشريعة . قم فإن عليك الأمر ونحن معك . تشجع وافعل .

فقام عزرا واستحلف رؤساء الكهنة واللاويين وكل إسرائيل أن يعملوا حسب هذا الأمر فحلفوا . ثم قام عزرا من أمام بيت الله ثم ذهب إلى مخدع يهو حانان بن الياشيب فانطلق إلى هناك وهو يأكل خبزا و لم يشرب ماء لأنه كان ينوح بسبب خيانة أهل السبى . وأطلقوا نداء فى يهوذا وأورشليم إلى جميع بنى السبى لكى يجتمعوا إلى أورشليم . وكل من لا يأتى فى ثلاثة أيام حسب مشورة الرؤسا والشيوخ يُحرَّم كل ماله وهو يُفرز من جماعة أهل السبى .

فاجتمع كل رجال يهوذا وبنيامين إلى أورشليم فى الثلاثة الأيام أى فى الشهر التاسع فى العشرين من الشهر . وجلس جميع الشعب فى ساحة بيت الله مرتعدين من الأمر ومن الأمطار فقام عزرا الكاهن وقال لهم : إنكم قد خنتم وأخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل . فاعترفوا الآن للرب إلٰه آبائكم واعلموا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة . فأجاب كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم : كما كلمتنا كذلك نعمل . إلا أن الشعب كثير والوقت وقت أمطار ولا طاقة لنا على الوقوف فى الخارج والعمل ليس ليوم واحد أو لاثنين لأننا قد أكثرنا الذنب فى هذا الأمر . فليقف رؤساؤنا لكل الجماعة وكل الذين فى مدننا قد اتخذوا نساء غريبة فليأتوا فى أوقات معينة ومعهم شيوخ مدينة فمدينة وقضاتها حتى يرتد عنا حمو غضب إلٰهنا من أجل

هذا الأمر » .

وراح عزرا فى تلذذ شديد يعدد أسماء الذين طردوا نساءهم اللاتى اتخذن من غير بنى إسرائيل . إنها قسوة لا يمكن أن تصدر عن إلـٰه رحيم أو عن نبى كريم لا يخفى جوهر الحقيقة عن عينيه تعصب أعمى لجنس مارس كل أنواع الخطايا التى تندى لها جبين الفضيلة من كرامة الإنسان .

أين ما فعله عزرا مما فعله نبى الإسلام ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ وأصحابه ؟ فما كان رجل من المسلمين يستشهد أو يموت حتى يضموا زوجه إلى نسائهم لأنهم عرفوا الطبيعة البشرية . فلا يكفى أن يقدم للمرأة الطعام والشراب والمسكن والملبس بل لا بد أن تكون فى كنف رجل . وكثيرا ما كانوا يضمون إلى نسائهم عجائز قد جاوزوا سن الشباب فما كان الدافع الحقيقى شهوة جنسية عارضة بل حماية مجتمع وصيانة أعراض . كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأصحابه يعمرون البيوت الخربة ، وكان عزرا يخرب البيوت العامرة .

وانتهى عزرا من كتابة مذكراته التى أصبحت سفر عزرا وصارت تتلى فى المجامع والكنائس على أنها وحى من السماء . ولم يكن عزرا وحده الذى تقدست مذكراته بل إن نحميا فعل مثل عزرا وصارت مذكراته سفرا من أسفار توراة المنفى .

ولنبدأ بالإصحاح الأول من سفر نحميا : « كلام نحميا بن حكليا . حدث فى شهر كسلو فى السنة العشرين بينما كنت فى شوش القصر أنه جاء حنانى واحد من إخوتى هو ورجال من يهوذا فسألتهم عن اليهود الذين نجوا الذين بقوا من السبى وعن أورشليم . فقالوا لى : إن الباقين الذين بقوا من السبى هناك فى شر عظيم وعار ، وسور أورشليم متهدم وأبوابها محروقة بالنار . فلما سمعت هذا

الكلام جلست وبكيت ونحت أياما ، وصمت وصليت أمام إلـٰه السماء . وقلت أيها الرب إلـٰه السماء . الإلـٰه العظيم المخوف الحافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظي وصاياه . لتكن أذنك مصغية وعيناك مفتوحتين لتسمع صلاة عبدك الذى يصلى إليك الآن نهارا وليلا لأجل بنى إسرائيل عبيدك ، يعترف بخطايا بنى إسرائيل التى أخطأنا بها إليك . فإنى أنا وبيت أبى قد أخطأنا . لقد أفسدنا أمامك و لم نحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التى أمرت بها موسى عبدك . أذكر الكلام الذى أمرت به موسى عبدك قائلا : إن خنتم فإنى أفرقكم فى الشعوب ، وإن رجعتم إلىّ وحفظتم وصاياى وعملتموها إن كان المنفيون منكم فى أقصاء السماء فمن هناك أجمعهم وآتى بهم إلى المكان الذى اخترت لإسكان اسمى فيه . فهم عبيدك وشعبك الذى افتديت بقوتك العظيمة ويدك الشديدة .

يا سيد لتكن أذنك مصغية إلى صلاة عبدك وصلاة عبيدك الذين يريدون مخافة اسمك ، وأعط النجاح اليوم لعبدك وامنحه رحمة أمام هذا الرجل ، لأنى كنت ساقيا للملك » .

نحميا الذى أصبح له سفر من أسفار العهد القديم ومن شارك فى كتابة توراة المنفى يعترف بأنه كان ساقيا لملك فارس . يقدم الخمر لضيوفه وجلسائه ومحظياته . وسنقرأ فى سفر إستير كيف قدمها ابن عمها مردخاى محظية للملك وقد أغمض عينيه عن ثورة عزرا على زواج اليهودية من غير اليهودى . فقد كانت إسرائيل فى خطر وكان لا بد من استغلال جمال إستير لدرء ذلك الخطر ، وإنه لأمر مباح فى إسرائيل الإعراض عن مبادئ الأخلاق ووصايا الأنبياء، بل وأوامر رب إسرائيل ونواهيه إذا كان ذلك فى سبيل إسرائيل، فالـٰه إسرائيل لا يعبد إلا لجلب السعادة لشعبه المختار وتوطيد سلطانهم فى الأرض.

ولندع النبى نحميا يروى كيف كان يقدم الخمر للملك : « وفى شهر نيسان فى السنة العشرين لأرتحشستا الملك كانت خمر أمامه ، فقال لى الملك : لماذا وجهك مُكمد وأنت غير مريض ؟ . ما هذا إلا كآبة قلب . فخفت كثيرا جدا وقلت للملك : ليحيى الملك إلى الأبد ، كيف لا يكمد وجهى والمدينة بيت مقابر آبائى خراب وأبوابها قد أكلتها النار ؟ فقال لى الملك : ماذا طالب أنت ؟ فصليت إلى إلٰه السماء وقلت للملك : إذا سر الملك وإذا أحسن عبدك أمامك ترسلنى إلى يهوذا ؛ إلى مدينة قبور آبائى فأبنيها . فقال لى الملك والملكة جالسة بجانبه : إلى متى يكون سفرك ومتى ترجع ؟ فحسن لدى الملك وأرسلنى فعينت له زمانا . وقلت للملك : إن حسن عند الملك فلتُعطَ لى رسائل إلى ولاة عبر النهى لكى يخبرونى حتى أصل إلى يهوذا . ورسالة إلى آساف حارس فردوس الملك لكى يعطينى أخشابا لسقف أبواب القصر الذى للبيت ولسور المدينة وللبيت الذى أدخل فيه . فأعطانى الملك حسب يد إلٰهى الصالحة علىّ .

فأتيت إلى ولاة عبر النهر وأعطيتهم رسائل الملك وأرسل معى الملك رؤساء جيش وفرسانا . ولما سمع سَنبلط الحورونى وطوبيا العبد العمونى ساءهما مساءة عظيمة لأنه جاء رجل يطلب خيرا لبنى إسرائيل .

فجئت إلى أورشليم وكنت هناك ثلاثة أيام ، ثم قمت ليلا أنا ورجال قليلون معى ، و لم أخبر أحدا بما جعله إلٰهى فى قلبى لأعمله فى أورشليم . و لم يكن معى بهيمة غير التى كنت راكبها . وخرجت من باب الوادى ليلا أمام عين التنين إلى باب الدِّمْن وصرت أتفرس فى أسوار أورشليم المتهدمة وأبوابها التى أكلتها النار . وعبرت إلى باب العين وإلى بركة الملك ، و لم يكن مكان العبور البهيمة التى تحتى : فصعدت فى الوادى ليلا وكنت أتفرس فى السور . ثم عدت

فدخلت من باب الوادى راجعا . و لم يعرف الولاة إلى أين ذهبت ولا ما أنا عامل و لم أخبر إلى ذلك الوقت اليهود والكهنة والأشراف والولاة وباقى عاملى العمل : ثم قلت لهم : أنتم ترون الشر الذى نحن فيه . كيف أن أورشليم خربة وأبوابها قد أحرقت بالنار . هلم نبنى سور أورشليم ولا نكون بعد عارا ، وأخبرتهم عن يد إلٰهى الصالحة علىّ وأيضا عن كلام الملك الذى قاله لى . فقالوا : لنقم ولنبن . وشددوا أياديهم للخير .

ولما سمع سنبلّط الحورنى وطوبيا العبد العمونى وجشم العربى هزءوا بنا واحتقرونا وقالوا : ما هذا الأمر الذى أنتم عاملون ؟ أعلى الملك تتمردون ؟ فأجبتهم وقلت لهم إن إلٰه السماء يعطينا النجاح ونحن عبيده نقوم ونبنى ، وأما أنتم فليس لكم نصيب ولا حق ولا ذكر فى أرشليم » .

لم تهدأ المنطقة منذ وطأت أرض فلسطين أقدام بنى إسرائيل واليهود ، فأصحاب البلاد كانوا يقاومون استقرار الوافدين فى المنطقة ، وقد دأب بنو إسرائيل على الاستعانة بالملوك لتوطيد أقدامهم فى الأرض التى ما فتئ حكماؤهم يدعون فى توراتهم التى زيفوها فى المنفى أن إلٰه إسرائيل وعدهم بها . فأهل حبرون (الخليل) رفضوا أن يدفن إسرائيل (يعقوب عليه السلام) إلى جوار جده إبراهيم الخليل ، ولولا جنود فرعون الذين أرسلهم تكريما لوزير خزانته يوسف الصديق لما سمحوا بدفنه فى أرض أجدادهم ، و لم يخب أوار الحرب الناشبة بين بنى إسرائيل وبين الكنعانيين ، فالكنعانيون كانوا يقاومون اغتصاب أراضيهم وبلادهم ، وقد انتهى الكفاح الأول بأن شن نبوخذناصر هجوما على إسرائيل وقتل من قتل وسبى من سبى وحرق الهيكل والمدينة ، وبقوة الملوك الإيرانيين عاد اليهود ــ ولا أقول بنى إسرائيل ــ لأن الذين قادوا العودة كانوا من نسل يهوذا ، ويذكرون فى مذكراتهم التى

أصبحت مقدسة اليهود دون ذكر لبنى إسرائيل — وبتلك العودة وإعادة بناء الهيكل بدأ الكفاح الثانى لشعب فلسطين الذى انتهى بتقويض الهيكل فى عصر تيتس بعد ميلاد السيد المسيح بقليل .

وراح نحميا يصف بدء بناء المدينة والسور ، ولم يقف العرب مكتوفى الأيدى بل رأوا أن يقاوموا ذلك العمل العدائى على الرغم من تأييد ملك الملوك شاهنشاه فارس . « ولما سمع سنبلّط أننا آخذون فى بناء السور غضب واغتاظ كثيرا ، وهزأ باليهود ، وتكلم أمام إخوته وجيش السامرة وقال : ماذا يعمل اليهود الضعفاء ؟ هل يتركونهم ؟ هل يَذبحون ؟ هل يُكملون فى يوم ؟ هل يُحيون الحجارة من كوم التراب وهى محرقة ؟ وكان طوبيا العمونى بجانبه فقال : إن ما ينونه إذا صعد ثعلب فإنه يهدم حجارة حائطهم .

اسمع يا إلٰهى لأننا قد صرنا احتقارا ، ورد تعييرهم على رءوسهم واجعلهم نهبا فى أرض السبى ، ولا تستر ذنوبهم ولا تمح خطيتهم من أمامك لأنهم أغضبوك أمام البانين .

ولما سمع سنبلّط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون أن أسوار أورشليم قد رممت والثغر ابتدأت تسد ، غضبوا جدا وتآمروا جميعهم معا أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضررا ، فصلينا إلى إلٰهنا وأقمنا حراسا ضدهم نهارا وليلا بسببهم . وقال يهوذا : قد ضعف قوة الحمّالين والتراب كثير ونحن لا نقدر أن نبنى السور . وقال : أعداؤنا لا يعلمون ولا يرون حتى ندخل إلى وسطهم ونقتلهم ونوقف العمل . ولما جاء اليهود الساكنون بجانبهم قالوا لنا عشر مرات من جميع الأماكن التى منها رجعوا إلينا . فأوقفتُ الشعب من أسفل الموضع وراء السور وعلى القمم ؛ أوقفتهم حسب عشائرهم بسيوفهم ورماحهم وقسيهم ونظرت وقمت وقلت للعظماء والولاة ولبقية الشعب : لا تخافوهم بل اذكروا السيد العظيم الموهوب

وحاربوا من أجل إخوتكم وبنيكم وبناتكم ونسائكم وبيوتكم .

ولما سمع أعداؤنا أننا قد عرفنا وأبطل الله مشورتهم ، رجعلنا كلنا إلى السور كل واحد إلى شغله . ومن ذلك اليوم كان نصف غلماني يشتغلون فى العمل ونصفهم يمسكون الرماح والأتراس والقسي والدروع ، والرؤساء وراء كل بيت يهوذا . والبانون على السور بنوا وحاملوا الأحمال حملوا . باليد الواحدة يعملون العمل وبالأخرى يمسكون السلاح ، وكان البانون يبنون وسيف كل واحد مربوط على جنبه ، وكان النافخ بالبوق بجانبي ، فقلت للعظماء والولاة ولبقية الشعب : العمل كثير ومتسع ونحن متفرقون على السور وبعيدون بعضنا عن بعض ، فالمكان الذى تسمعون منه صوت البوق هناك تجتمعون إلينا . إلـٰهنا يحارب عنا . فكنا نعمل العمل وكان نصفهم يمسكون الرماح من طلوع الفجر إلى ظهور النجوم . وقلت فى ذلك الوقت أيضا للشعب : ليبت كل واحد مع غلامه فى وسط أورشليم ليكونوا لنا حراسا فى الليل وللعمل فى النهار . ولم أكن أنا ولا إخوتى ولا غلمانى ولا الحراس الذين ورائى نخلع ثيابنا ، كان كل واحد يذهب بسلاحه إلى الماء » .

وراح نحميا يدون مذكراته — التى تقدست وأصبحت سفر نحميا — يروى فيها كيف أن الأغنياء كانوا يقرضون الفقراء بالربا ، وكيف أن الولاة الذين كانوا قبله أخذوا من الشعب الخبز والخمر . أما هو فقد تعفف عن ذلك . وقد طلب من إلـٰهه ثمن ذلك التعفف : « اذكر لى يا إلـٰهى للخير كل ما عملت لهذا الشعب » .

ولم يذكر نحميا معاونة ملوك الساسانيين لليهود حتى تم بناء الهيكل والسور ، فاليهود يستغلون ملوك الأمم حتى يحققوا مآربهم ثم يبخلون بالثناء على هؤلاء الملوك الذين سخروا شعوبهم ومواردهم لتأييد إسرائيل ، وقد كان

من تقاليد حكماء صهيون أن يقدسوا أعمال الذين يقدمون خدمات جليلة لإسرائيل وأن يضموا تلك الأعمال إلى توراتهم ، فالتوراة فى حقيقة الأمر سجل لأعمال اليهود ، فلو قدر لهذا التقليد أن يطبق فى هذه الأيام فلن يذكر ترومان رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى سفر شاريت إلا كما ذكر قورش شاهنشاه إيران فى سفر عزرا ، ولن يذكر جونسون ونيكسون فى أسفار بن جوريون وموسى ديان وجولدا مائير إلا كما ذكر داريوس وأرتخشستا وأخشويرش فى أسفار نحميا وإستير ، ولو قدر لهذه الأسفار أن تضم إلى التوراة فهل سيتلوها المسيحيون فى صلواتهم ؟!

إن التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام كانت بلغة قدماء المصريين ولا صلة بينها وبين التوراة التى كتبها عزرا الكاتب فى المنفى ، فعزرا بعد أن استعان بأساطير البابليين وعقائد قدماء المصريين قد كتب التوراة التى بين أيدينا ، ولنصغ إلى نحميا وهو يروى كيف جاء عزرا بالتوراة الجديدة وقرأها على الشعب ، وكيف تأثر الشعب وبكى « وقالت اليهود عزيز ابن الله »(١) :

« ولما استهل الشهر السابع وبنو إسرائيل فى مدنهم اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التى أمام باب الماء . وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتى بسفر شريعة موسى التى أمر بها الرب إسرائيل . فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء وكل فاهم ما يسمع فى اليوم الأول من الشهر السابع . وقرأ فيها أمام الساحة التى أمام باب الماء من الصباح إلى نصف النهار أمام الرجال والنساء والفاهمين ، وكانت آذان كل الشعب نحو سفر الشريعة ، ووقف عزرا الكاتب على منبر الخشب الذى عملوه لهذا الأمر ...

---

(١) سورة التوبة الآية (٣٠) .

وفتح عزرا السفر أمام الشعب لأنه كان فوق كل الشعب ، وعندما فتحه وقف كل الشعب وبارك عزرا الرب الإلـٰه العظيم ، وأجاب جميع الشعب : آمين آمين آمين، رافعين أيديهم وخروا وسجدوا للرب على وجوههم إلى الأرض ... » .

ولما بكى الشعب قال لهم نحميا وعزرا الكاهن الكاتب واللاويون المفهمون للشعب : « هذا اليوم مقدس للرب إلـٰهكم ، ولا تنوحوا ولا تبكوا لأن جميع الشعب بكوا حين سمعوا كلام الشريعة . فقال لهم « عزرا » : اذهبوا كلوا السمين واشربوا الخمر وابعثوا الضبة لمن لم يعد له ، لأن اليوم إنما هو مقدس لسيدنا ، ولا تحزنوا لأن فرح الرب هو قوتكم ، وكان اللاويون يسكتون كل الشعب قائلين : اسكتوا لأن اليوم مقدس فلا تحزنوا . فذهب كل الشعب ليأكلوا ويشربوا ويبعثوا الضبة ويعملوا فرحا عظيما لأنهم فهموا الكلام الذى علموهم إياه .

وأصبح عزرا الكاهن الكاتب هو مصدر الشريعة اليهودية ، ما يقول به يفعل به وما ينهى عنه يحرَّم . وقد نسى عزرا فيما نسى اليوم الآخر ووقر فى ذهنه ما كان يسمعه عن الأرض التى لا رجعة منها فى أرض السبى ؛ فلم يذكر يوم القيامة ويوم الحساب ويوم الدين فى توراته فكان شيئا عجيبا أن أصحاب الكتاب الأول لم يؤمنوا بالآخرة ، وجعلوا الثواب والعقاب فى الحياة الدنيا !

« وفى اليوم الثانى اجتمع رءوس آباء جميع الشعب والكهنة واللاويون إلى عزرا الكاتب ليفهمهم كلام الشريعة ، فوجدوا مكتوبا فى الشريعة التى أمر بها الرب على يد موسى أن بنى إسرائيل يسكنون فى مظال فى العيد فى الشهر السابع ، وأن يسمعوا وينادوا فى كل منهم وفى أورشليم قائلين : اخرجوا إلى الجبل وأتوا بأغصان زيتون وأغصان زيتون برى وأغصان اس وأغصان نخل

وأغصان أشجار غبياء لعمل مظال كما هو مكتوب . فخرج الشعب وجلسوا وعملوا لأنفسهم مظال كل واحد على سطحه وفى دورهم ودور بيت الله وفى ساحة باب الماء وفى ساحة باب أفرايم ، وعمل كل الجماعة الراجعين من السبى مظال وسكنوا فى المظال لأنه لم يعمل بنو إسرائيل هكذا من أيام يشوع بن نون إلى ذلك اليوم ، وكان فرح عظيم جدا ، وكان يقرأ فى سفر شريعة الله يوما فيوما من اليوم الأول إلى اليوم الأخير . وعملوا عيدا سبعة أيام وفى اليوم الثامن اعتكاف حسب المرسوم » .

هل يعقل أن الله قد أوحى إلى موسى عليه السلام أن يسكن فى مظال ؟ ومتى كان الله يهتم بمثل هذه الماديات ؟ إنها تقاليع كهان : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . »(١) .

لقد اندثرت تعاليم موسى عليه السلام أو ضاعت فى ركام من الأساطير ، وليس أمامنا إلا أن نرجع إلى القرآن العظيم لنعرف حقيقة تلك التعاليم : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . » (٢) . « وإذ

---

(١) سورة البقرة الآية (٧٩) .

(٢) سورة المائدة الآيتان (٤٤ ، ٤٥) .

أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون . وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . »(١)

تعاليم تتفق مع رسالات الرسل ووصايا من لدن حكيم خبير . أما تقديم القرابين وشواء اللحوم لإدخال السرور على قلب الرب فهى وصايا كهان لهم مصلحة مباشرة فى لحوم الأضاحى فجعلوا التقدمة كفارة عن الذنوب .

« وفى اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر اجتمع بنو إسرائيل بالصوم وعليهم مسوح وتراب ، وانفصل نسل إسرائيل من جميع بنى الغرباء ووقفوا واعترفوا بخطاياهم وذنوب آبائهم ، وأقاموا فى مكانهم وقرأوا فى سفر شريعة الرب إلٰهم ربع النهار وفى الربع الآخر كانوا يحمدون ويسجدون للرب إلٰهم » .

وراحو يناجون الرب ولم ينسوا إعادة توكيد وعد الله لآبائهم بأرض فلسطين ، ولا غرو فعزرا كاتب التوراة الجديدة وأحد كتبتها ذاق مرارة السبى والتشريد وكان حلمه الوحيد فى المنفى أن يعود إلى فلسطين وأن يؤكد بوعود ربانية من نسج خياله حق المغتصبين فى أرض العرب الكنعانيين : « .. أنت هو الرب الإلٰه الذى اخترت أبرام وأخرجته من أور الكلدانيين وجعلت اسمه إبراهيم . ووجدت قلبه أمينا أمامك وقطعت معه العهد أن تعطيه أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين واليبوسيين والجرجاشيين وتعطيها نسله ، وقد أنجزت وعدك لأنك صادق ورأيت ذل آبائنا فى مصر وسمعت

(١) سورة البقرة الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

صراخهم عند بحر سوف ، وأظهرت آيات وعجائب على فرعون وعلى جميع عبيده وعلى كل شعب أرضه لأنك علمت أنهم بغوا عليهم ، وعملت لنفسك اسما كهذا اليوم ، وفلقت اليم أمامهم وعبروا فى وسط البحر على اليابسة ، وطرحت مطاريدهم فى الأعماق كحجر فى مياه قوية ، وهديتهم بعمود سحاب نهارا وبعمود نار ليلا لتضىء لهم فى الطريق التى يسيرون فيها . ونزلت على جبل سيناء وكلمتهم من السماء وأعطيتهم أحكاما مستقيمة وشرائع صادقة : فرائض ووصايا صالحة . وعرفتهم سبتك المقدس وأمرتهم بوصايا وفرائض وشرائع عن يد موسى عبدك . وأعطيتهم خبزا من السماء لجوعهم وأخرجت لهم ماء من الصخرة لعطشهم وقلت لهم أن يدخلوا ويرثوا الأرض التى رفعت يدك أن تعطيهم إياها .

ولكنهم بغوا هم وآباؤهم وصلبّوا رقابهم . ولم يسمعوا لوصاياك ، وأبوا الاستماع ، ولم يذكروا عجائبك التى صنعت معهم وصلبوا رقابهم ، وعند تمردهم أقاموا رئيسا ليرجعوا إلى عبوديتهم وأنت إلٰه غفور وحنان ورحيم طويل الروح وكثير الرحمة ، فلم تتركهم مع أنهم عملوا لأنفسهم عجلا مسبوكا وقالوا هذا إلٰهك الذى أخرجك من مصر وعملوا إهانة عظيمة . أنت برحمتك الكثيرة لم تتركهم فى البرية ولم يَزل عنهم عمود السحاب نهارا لهدايتهم فى الطريق ولا عمود النار ليلا ليضىء لهم فى الطريق التى يسيرون فيها ، وأعطيتهم روحك الصالح لتعليمهم ولم تمنع منّك عن أفواهم وأعطيتهم ماء لعطشهم وعُلْتَهم أربعين سنة فى البرية فلم يحتاجوا . لم تَبْل ثيابهم ولم تتورم أرجلهم ، وأعطيتهم ممالك وشعوبا وفرقتهم إلى جهات فامتلكوا أرض سيحون وأرض ملك حشبون وأرض عوج ملك باشان ، وأكثرت بنيهم كنجوم السماء وأتيت بهم إلى الأرض التى قلت لآبائهم أن يدخلوا ويرثوها .

فدخل البنون وورثوا الأرض وأخضعت لهم سكان أرض الكنعانيين ودفعتهم ليدهم مع ملوكهم وشعوب الأرض ليعملوا بهم حسب إرادتهم ، وأخذوا مدنا حصينة وأرضا سمينة وورثوا بيوتا ملآنة كل خبز وآبارا محفورة وكروما وزيتونا وأشجارا مثمرة بكثرة فأكلوا وشبعوا وسمنوا وتلذذو بخيرك العظيم ، وعصوا وتمردوا عليك وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليهم ليردوهم إليك وعملوا إهانة عظيمة . فدفعتهم ليد مضايقيهم فضايقوهم . وفى وقت ضيقهم صرخوا إليك وأنت من السماء سمعت ، وحسب مراحمك الكثيرة أعطيتهم مخلصين خلصوهم من يد مضايقيهم ، ولكن لما استراحوا رجعوا إلى عمل الشر قدامك فتركتهم بين أعدائهم فتسلطوا عليهم ، ثم رجعوا فصرخوا إليك وأنت من السماء سمعت وأخذتهم حسب مراحمك الكثيرة أحيانا كثيرة وأشهدت عليهم لتردهم إلى شريعتك . وأما هم فبغوا و لم يسمعوا لوصاياك وأخطئوا ضد أحكامك التى إذا عملها إنسان يحيا بها ، وأعطوا كتفا معاندة وصلبوا رقابهم و لم يسمعوا فاحتملتهم سنين كثيرة وأشهدت عليهم بروحك على يد أنبيائك فلم يصغوا ، فدفعتهم ليد شعوب الأراضى ولكن لأجل مراحمك الكثيرة لم تفنهم و لم تتركهم لأنك إلـٰه حنان ورحيم .

والآن يا إلـٰهنا الإلـٰه العظيم الجبار المخوف حافظ العهد والرحمة لا تصغر لديك كل المشقات التى أصابتنا نحن وملوكنا ورؤساءنا وكهنتنا وأنبياءنا وآباءنا وكل شعبك من أيام ملوك آشور إلى هذا اليوم . وأنت بار فى كل ما أتى علينا لأنك عملت بالحق ونحن أذنبنا ، وملوكنا ورؤساؤنا وكهنتنا وآباؤنا لم يعملوا شريعتك ولا أصغوا إلى وصاياك التى أشهدتنا عليهم ، وهم لم يعبدوك فى مملكتهم وفى خيرك الكثير الذى أعطيتهم وفى الأرض الواسعة السمينة التى

جعلتها أمامهم و لم يرجعوا عن أعمالهم الردية . ها نحن اليوم عبيد . والأرض التى أعطيت لآبائنا ليأكلوا أثمارها وخيرها ها نحن عبيد فيها ، وغلاتها كثيرة للملوك الذين جعلتهم علينا لأجل خطايانا وهم يتسلطون على أجسادنا وعلى بهائمنا حسب إرادتهم ونحن فى كرب عظيم . ومن أجل كل ذلك نحن نقطع ميثاقا ونكتبه ورؤساؤنا ولاويونا وكهنتنا يختمون » .

أهذه صلاة أم ابتهالات أم ميثاق بين عزرا ونحميا واللاويين وبين رب العالمين ؟ أكان الله فى حاجة إلى أن يذكروه بما فعل السفهاء منهم ؟

هل الميثاق الذى يعطيه الناس لرب الناس لا بد من أن يوقع عليه الرؤساء واللاويون والكهنة ؟ إن نحميا ساقى الملك كان متأثرا بتقاليد البلاط الفارسى الذى عاش فيه :

وهناك سؤال يثور فى نفسى : كيف تقدست هذه المذكرات التى يكتبها نحميا وبأى سلطان أصبحت جزءا من توراة اليهود ؟ أهى وحى من السماء أم خلجات نفس نحميا وخفقات قلبه وثمار عقله ؟ إن كثيرا من الصالحين المسلمين والمتصوفين قد ناجوا ربهم مناجاة أروع من هذه المناجاة فهل يقبل المسلمون أن تضم أمثال تلك المناجاة إلى القرآن الكريم ؟ يعرف المسلمون أن القرآن قد نزل على محمد — ﷺ — وأن الوحى قد انقطع بعد موت نبى الإسلام عليه السلام وأن كل ما تحركت به ألسنة الصالحين إن هو إلا من نور الرسالة ، ويعرف بنو إسرائيل أن التوراة قد نزلت على موسى عليه السلام وأن وحى السماء فيما يختص بالتوراة قد انقطع بموت كليم الله فكيف قبلوا طائعين أن يلحق بالتوراة كل ما كتبه الأنبياء الذين تخرجوا فى معاهد الأنبياء بالرامة وأريحا وبيت إيل والجلجال ؟ قد قبل اليهود مبدأ أن تكون التوراة سجل تاريخ اليهودية ، فكيف قبل المسيحيون أن تكون توراة المنفى جزءا مكملا

لشريعتهم ؟ إن السيد المسيح عليه السلام قال إنه ما جاء لينقض الشريعة الموسوية ولكنه جاء ليكملها . وكان روح الله وكلمته يقصد الشريعة التى نزلت على موسى عليه السلام ، لا التوراة التى كتبها عزرا ونحميا واللاويون فى أرض السبى ببابل ، والدليل على ذلك أنه كان ينقد ما جاء به اليهود من خرافات نقدا مرا ، إنه عارض السبت وعدم العمل فيه ، ولو كان السبت من شريعة موسى عليه السلام لما عارضه السيد المسيح . وكان يقاوم أعمال الفريسيين المتعصبين لنصوص توراة المنفى مقاومة شديدة ، ولو كانوا على هدى توراة موسى كليم الله لما وقف المسيح عليه السلام فى وجههم ولما قاد الثورة المسيحية ضد تعاليمهم ولما تمنى أن يتقوض الهيكل الذى كانوا يقدسونه ، لا لأنه بيت الله بل لأنه أصبح مخزنا للذهب والفضة ورمزا للذهب معبودهم .

ولنستأنف مناقشة مذكرات نحميا التى تقدست وأصبحت سفرا هاما من أسفار توراة بابل ، ولنر الآن الذين ختموا الميثاق الذى أبرموه بينهم وبين ربهم : « والذين ختموا هم : نحميا الترشاتا ابن ملكيا ، وصدقيا وسرايا وعزريا وبرميا وتتحور وأمرتا وملكيا وحطوش وسبنيا وملوُّح وحاريم ومريموث وعوبديا ودنيال وجنثون وباروخ ومشُلام وأبيا وميامين ومعزيا وبلجاى وسمعيا ، هؤلاء هم الكهنة واللاويون ...

وباقى الشعب والكهنة واللاويين والبوابين والمغنين والنثينيم وكل الذين انفصلوا من شعوب الأراضى إلى شريعة الله ونسائهم وبنيهم وبناتهم . كل أصحاب المعرفة والفهم ولصقوا بإخوتهم وعظمائهم ودخلوا فى قسم وحلف أن يسيروا فى شريعة الله التى أعطيت عن يد موسى عبد الله ، وأن يحفظوا ويعملوا جميع وصايا الرب سيدنا وأحكامه وفرائضه ، وأن لا نُعطى بناتنا

لشعوب الأرض ولا نأخذ بناتهم لبنينا ، وشعوب الأرض الذين يأتون بالبضائع وكل طعام يوم السبت للبيع لا نأخذ منهم فى سبت ولا فى يوم مقدس ، وأن نترك السنة السابعة والمطالبة بكل دَيْن . وأقمنا على أنفسنا فرائض : أن نجعل على أنفسنا ثلث شافل كل سنة لخدمة بيت إلٰهنا . لخبز الوجوه والتقدمة الدائمة والمحرقة الدائمة والسبوت والأهلة والمراسم والأقداس وذبائح الخطية للتكفير عن إسرائيل ولكل عمل بيت إلٰهنا . وألقينا قُرَعًا على قربان الحطب بين الكهنة واللاويين والشعب لإدخاله إلى بيت إلٰهنا حسب بيوت آبائنا فى أوقات معينة سنة فسنة لأجل إحراقه على مذبح الرب إلٰهنا كما هو مكتوب فى الشريعة . ولإدخال باكورات أرضنا وباكورات ثمر كل شجرة سنة فسنة إلى بيت الرب ، وأبكار بنينا وبهائمنا كما هو مكتوب فى الشريعة وأبكار بقرنا وغنمنا لإحضارها إلى بيت إلٰهنا إلى الكهنة الخادمين فى بيت إلٰهنا ، وأن نأتى بأوائل عجيننا ورقائقنا وأثمار كل شجرة من الخمر والزيت إلى الكهنة إلى مخادع بيت إلٰهنا ، وبُعشر أرضنا إلى اللاويين واللاويون هم الذين يعشرون فى جميع مدن فلاحتنا ، ويكون الكاهن بن هارون مع اللاويين حين يعشر اللاويون ، ويصعد اللاويون عشر الأعشار إلى بيت إلٰهنا إلى المخادع إلى بيت الخزينة : لأن بنى إسرائيل وبنى لاوى يأتى برفيعة القمح والخمر والزيت إلى المخادع ، وهناك آنية القدس والكهنة الخادمون والبوابون والمغنون ، ولا نترك بيت إلٰهنا » .

إن التكرار صفة الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، ويلاحظ أن عزرا قد ثار على زواج اليهودى من أجنبية وزواج اليهودية من أجنبى ، وأن نحميا يعود ويؤكد أن الذين وقعوا ميثاقا مع إلٰههم قد تعاهدوا على ألا يعطوا بناتهم لشعوب الأرض ولا يأخذوا لبنيهم بنات شعوب الأرض . أى أنهم لا

يتزوجون من الأميين ولا يزوجونهم ؛ وكانت ثورة عارمة على مثـل ذلك الزواج المختلط ، فهل حافظ اليهود على عهدهم ؟ سنرى عندما نناقش سفر إستير أن ابن عمها قدمها إلى الملك أخشويرش كمحظية عن طيب خاطر ، فهل لا تطبق الشريعة إلا على الفقراء فقط !

وشرح نحميا كيفية توزيع الزكاة عند الذين كتبوا التوراة فى المنفى . إنها ليست للفقراء والمساكين ، بل لذبح الأضاحى لإلـٰه إسرائيل ، وإلـٰه إسرائيل لا ينال لحومها ولا دماءها بل الكهنة اللاويون والكهنة من أبناء هرون هم الذين يأخذون لحوم الأضاحى وعشور ثمار الأرض وزكاة المواشى والغنم . إنهم أخذوا عن كهنة آلهة البابليين استغلال الشعوب باسم الدين لتحقيق منافع لهم وملء خزائنهم بثمار الأرض الثمينة ، أرض فلسطين .

وراح نحميا ساقى الملك ونبى اليهود الجديـد يصف كيـف استعانـوا بالقرعة ، وبالضرب بالأزلام ، ليختاروا واحدا من كل عشرة للسكنى فى أورشليم . فقد وقر فى عقولهم أن إلـٰههم فى أورشليم فمن عاش فيها عاش مع الرب ، ومن عاش خارجها كان بعيدا عن الإلـٰه ، وما قدروا الله حق قدره بعد أن فسدت معتقداتهم بطول معاشرة البابليين .

وراح نحميا يشرح كيف كانوا يجمعون من الحقول أنصبة الشريعة للكهنة واللاويين لا للفقراء والمساكين ولا لتحرير الرقيق . وقد استغل عزرا فرصة كتابته للتوراة الجديدة فراح يبث فيها هواه ويحرم ما يشاء ويحلل ما يشاء ويغرس كراهية بعض الشعوب فى قلوب اليهود . ولنقرأ معا الإصحاح الثالث عشر من سفر نحميا لنرى كيف أجج عزرا نار البغضاء لشعب عمـان وموآب :

« وفى ذلك اليوم قرئ فى سفر موسى فى آذان الشعب ووجد مكتوبا فيه

أن عمونيا وموآبيا لا يدخل فى جماعة الله إلى الأبد ، لأنهم لم يلاقوا بنى إسرائيل بالخبز والماء بل استأجروا عليهم بلعام لكى يلعنهم ، وحول إلهنا اللعنة إلى بركة ، ولما سمعوا الشريعة فرزوا كل اللفيف من إسرائيل .

وقبل هذا كان الباشيب الكاهن المُقام مخدع بيت إلٰهنا قرابةُ طوبيا قد هيأ له مُخدعا عظيما حيث كانوا سابقا يضعون التقدمات والبخور والآنية وعُشر القمح والخمر والزيت فريضة اللاويين والمغنين والبوابين ورفيعة الكهنة ، وفى كل هذا لم أكن فى أورشليم لأنى فى السنة الاثنتين والثلاثين لأرتحشستا ملك بابل دخلت إلى الملك ، وبعد أيام استأذنت من الملك وأتيت إلى أورشليم وفهمت الشر الذى عمله الباشيب لأجل طوبيا بعمله له مخدعا فى ديار بيت الله وساءنى الأمر جدا وطرحت جميع آنية بيت طوبيا خارج المخدع ، وأمرتُ فطهروا المخادع ورددت إليها آنية بيت الله مع التقدمة والبخور . وعلمت أن أنصبة اللاويين لم تعط بل هرب اللاويون والمغنون عاملو العمل كل واحد إلى حقله ، فخاصمت الولاة وقلت : لماذا ترك بيت الله ؟ فجمعتهم وأوقفتهم فى أماكنهم ، وأتى كل يهوذا بُعشر القمح والخمر والزيت إلى المخازن ، وأقمت خَزَنة على الخزائن شلميا الكاهن وصادوق الكاتب وفدايا من اللاويين وبجانبهم حانان بن زكور بن متنيا لأنهم حسبوا أمناء وكان عليهم أن يقسموا على إخوتهم ، اذكرنى يا إلٰهى من أجل هذا ولا تمح حسناتى التى عملتها نحو بيت إلٰهى ونحو شعائره .

ذهب نحميا إلى قصر الملك وترك أورشليم و لم يقل لنا ما إذا كان قد عاد ليقدم الخمر للملك وبطانته أو ليدعو الملك إلى الله كما ذهب موسى عليه السلام إلى فرعون من قبل ليدعوه إلى عبادة رب العالمين . ومما لا شك فيه أن نحميا لم يدع أرتحشستا إلى عبادة إلٰه إسرائيل ، فقد ضاق أفق اليهود وبلغ بهم الغرور

أن اعتقدوا أنهم وحدهم الناس وأن الله قد اصطفاهم على العالمين ، وأن ليس من الحكمة أن يؤمن غير اليهود بالـٰه إسرائيل حتى لا يزاحموهم فى خيرات الله التى يخص بها عباده فى الدنيا ، فقد كانت حياتهم متاع الغرور .

وعاد نحميا إلى فلسطين لينفذ ما شرعه عزرا بسلطان كسرى فهو ساق الملك المقرب منه ، فقد حاول أن يوهم الناس أن ما جاء به عزرا هو شريعة موسى ، ولكن الناس انفضوا من حول تلك الشريعة فراح يطبقها بقوة نفوذه فى مملكة الساسانيين . ولنستمع إليه وهو يروى فى مذكراته التى تقدست كيف أرغم اليهود على احترام السبت وعدم العمل فيه : « فى تلك الأيام رأيت فى يهوذا قوما يدوسون معاصر فى السبت ويأتون بحزم ويحملون حميرا ، وأيضا يدخلون فى أورشليم فى يوم السبت بخمر وعنب وتين وكل ما يحمل ، فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام . والصوريون الساكنون بها كانوا يأتون بسمك وكل بضاعة ويبيعون فى السبت لبنى يهوذا وفى أورشليم ، فخاصمت عظماء يهوذا وقلت لهم : ما هذا الأمر القبيح الذى تعملونه وتدنسون يوم السبت ؟ ألم يفعل آباؤكم هكذا فجلب إلـٰهنا علينا كل هذا الشر وعلى هذه المدينة ، وإنكم تزيدون غضبا على إسرائيل إذ تدنسون السبت ؟ وكان لما أظلمت أبواب أورشليم قبل السبت أنى أمرت بأن تغلق الأبواب وقلت أن لا تفتحوها إلا ما بعد السبت . وأقمت من غلمانى على الأبواب حتى لا يدخلوا حمل فى يوم السبت ، فبات التجار وبائعو كل بضاعة خارج أورشليم مرة واثنتين ، فأشهدت عليهم فإنى ألقى يدا عليكم ، ومن ذلك الوقت لم يأتوا فى السبت ، وقلت للاويين أن يتطهروا ويأتوا ويحرسوا الأبواب لأجل تقديس يوم السبت ، بهذا أيضا اذكرنى يا إلـٰهى وتراءف علىّ حسب كثرة رحمتك » .

كان جوهر الدين عند نحميا مظاهر مادية ، تقديم القرابين رائحة سرور للإلـٰه وتقديس السبت ، أما السرائر والقلوب وسلوك الناس مع ربهم ومع الناس فشيء لا يثير حماس ساقي الملك .

وزواج اليهودى من بنات الأمم وزواج اليهودية من رجال الأمم شيء يحتاج إلى عصا نحميا ليستقيم الأمر حسب هوى عزرا : « فى تلك الأيام أيضا رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودى و لم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودى بل لسان شعب وشعب ، فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناسا ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلا : لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم . أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل ، و لم يكن فى الأمم الكثيرة ملك مثله وكان محبوبا إلى إلـٰهه فجعله ملكا على إسرائيل ؟ هو أيضا ، جعلته النساء الأجنبيات يخطئ . فهل نسكت لكم أن تعملوا كل هذا الشر العظيم بالخيانة ضد إلـٰهنا بمساكنة نساء أجنبيات ؟ وكل واحد من بنى يوباداع بن الياشيب الكاهن العظيم صهرا لسنبلط الحورونى فطردته من عندى . اذكرهم يا إلـٰهى لأنهم نجسوا الكهنوت وعهد الكهنوت واللاويين كل واحد على عمله ولأجل قربانى الحطب فى أزمنة معينة وللباكورات ، فإذكرنى يا إلـٰهى بالخير » .

كان نبى الله سليمان عليه السلام لا يفرق بين الإسرائيلى والمصرى والكنعانى والموآبى والعمانى ، فهم فى نظر النبوة والرسالة عبيدا لله لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وكان يعلم أن الناس لآدم وأنهم سواسية أمام الله ، لذلك تزوج مصرية وكنعانية ومؤابية وسبئية و لم يجد فى ذلك غضاضة ، أما الذين كتبوا التوراة فى المنفى بعد عهد سليمان عليه السلام

فقد ملكهم الغرور وظنوا أنهم وحدهم الناس ، وأن زواج اليهودى من غير اليهودية فيه افتئات على الدم اليهودى ، لذلك كفّروا سليمان وما كفر سليمان ولكن الذين كتبوا التوراة كانوا فى جهالتهم يعمهون . فقد وصفوا الله تبارك وتعالى بما لا يليق بالذات العلية . اتهموه — سبحانه وتعالى عما يصفون — بالجهل وبالندم على خلق البشر والانتقام منهم ، ووصفوا الأنبياء بما لا يليق بهم من المعاصى و لم يكن منهم معصوم إلا عزرا ونحميا ولا غرو فقد كتبا التوراة بأيديهما ولا ينتظر ممن يكتب بيده أن يصف نفسه على حقيقتها أو يلصق بها أى سوء .

وانتهى سفر نحميا بالتشدد فى مسألة زواج اليهودى أو اليهودية من غير الجنس اليهودى كما انتهى من قبل سفر زعرا بنفس التشدد فى المسألة . ولننتقل الآن إلى سفر إستير لنرى مدى تطبيق ذلك التشريع الذى سنه كل من عزرا ونحميا واحترامه :

« وحدث فى أيام أخشويرش — هو أخشويرش الذى ملك من الهند إلى كوش على مائة وسبع وعشرين كورة — أنه فى تلك الأيام حين جلس الملك أخشويرش على كرسى ملكه الذى فى شوشن القصر . فى السنة الثالثة من ملكه عمل وليمة لجميع رؤسائه وعبيده جيش فارس ومادى وأمامه شرفاء البلدان ورؤسائه حين أظهر غنى مجد ملكه ووقار جلال عظمته أياما كثيرة مائة وثمانين يوما . وعند انقضاء هذه الأيام عمل الملك لجميع الشعب الموجودين فى شوشن القصر من الكبير إلى الصغير وليمة سبعة أيام فى دار جنة قصر الملك . بأنسجة بيضاء وخضراء واسمانجونية معلقة بحبال من بردار جوان فى حلقات من فضة وأعمدة من رخام وأسرة من ذهب وفضة على مجزع من بهت ومرمر ودر ورخام أسود . وكان السقاء من ذهب والآنية مختلفة

الأشكال والخمر الملكى بكثرة وحسب كرم الملك ، وكان الشرب حسب الأمر . لم يكن غاضب لأنه هكذا رسم الملك على كل عظيم فى بيته أن يعملوا حسب رضا كل واحد . ووشتى الملكة عملت أيضا وليمة للنساء فى بيت الملك الذى للملك أخشويرش » .

وطلب الملك أن تأتى الملكة أمام الشعوب ليروا جمالها فأبت وشتى ، فثار الملك وقال له حكماؤه : « فإذا حسن عند الملك فليخرج أمر ملكى من عنده وليكتب فى سفر فارس ومادى فلا يتغير : أن لا تأتى وشتى إلى أمام الملك أخشويرش وليعط الملك ملكها لمن هى أحسن منها ، فيسمع أمر الملك الذى يخرجه فى كل مملكة لأنها عظيمة ، فتعطى جميع النساء الوقار لأزواجهن من الكبير إلى الصغير » .

وأشاروا على الملك أن تحمل إلى القصر فتيات عذارى حسناوات « وكان فى القصر رجل يهودى اسمه مردخاى بن بائير بن شمعى بن قيِّس ، رجل يمنى قد سبى من أورشليم مع السبى الذى سبى مع يكنيا ملك يهوذا الذى سباه نبوخذنصر ملك بابل ، وكان مربيا لـ « هدسة » أى إستير بنت عمه لأنه لم يكن لها أب ولا أم وكانت الفتاة جميلة الصورة حسنة المنظر ، وعند موت أبيها وأمها اتخذها مردخاى لنفسه ابنة ، فلما سمع كلام الملك وأمره وجمعت فتيات كثيرات إلى شوشن القصر إلى يد هيجاى (خصى الملك حارس النساء) . أخذت إستر إلى بيت الملك إلى يد هيجاى حارس النساء ، وحسنت الفتاة فى عينيه ونالت نعمة بين يديه فبادر بأدهان عطرها وأنصبتها ليعطيها إياها مع السبع الفتيات المختارات ليعطى لها من بيت الملك ، ونقلها مع فتياتها إلى أحسن مكان فى بيت النساء ، ولم تخبر إستير عن شعبها وجنسها لأن مردخاى أوصاها ألا تخبر ، وكان مردخاى يتمشى يوما فيوما أمام بيت النساء ليستعلم عن

سلامة إستر وعما يصنع بها !.

مردخاى — ولا بد أنه هو نفسه كاتب سفر إستير — قدم بنت عمه الجميلة إلى بلاط الملك لتكون له محظية ، وقد ضرب بقول عزرا بتحريم زواج اليهودية من غير اليهودى عرض الحائط — ويا ليته كان زواجا بل متعة وتسرية ، وأصم أذنيه عن أن يسمع قول نحميا بانفصال نسل إسرائيل من جميع بني الغرباء ، فالغاية عنده تبرر الواسطة ، وكانت غايته أن يستولى بجمال إستير على لب الملك فتصبح مملكة فارس التى تمتد من الهند إلى أرض كوش ألعوبة فى يديه .

« وكانت إستير تنال نعمة فى عيني كل من رآها .. فأحب الملك إستير أكثر من جميع النساء ووجدت نعمة وإحسانا قدامه أكثر من جميع العذارى ، فوضع تاج الملك على رأسها وملكها مكان وشتى » .

وعلم مردخاى بمؤامرة لاغتيال الملك ، أو لعله اخترع تلك المؤامرة اختراعا ، فأخبر إستير الملكة ، فنقلت إلى الملك أنباء تلك المؤامرة ، فصُلب الخصيان اللذان دبراها أو اللذان اتهمهما مردخاى بتدبيرها .

« وبعد هذه الأمور عظم الملك أخشويروش هامان بن همداثا الأجامى ورقاه وجعل كرسيه فوق جميع الرؤساء الذين معه ، فكان كل عبيد الملك الذين بباب الملك يجثون ويسجدون لهامان لأنه هكذا أوصى به الملك ، وأما مردخاى فلم يجث و لم يسجد . فقال عبيد الملك الذين بباب الملك لمردخاى : لماذا تتعدى أمر الملك ؟ وإذا كانوا يكلمونه يوما فيوما و لم يكن يسمع لهم أخبروا هامان ليروا هل يقوم كلام مردخاى لأنه أخبرهم بأنه يهودى ، ولما رأى هامان أن مردخاى لا يجثو ولا يسجد له امتلأ هامان غضبا ، وازدرى فى عينيه أن يمد يده إلى مردخاى وحده لأنهم أخبروه عن شعب مردخاى ، فطلب

هامان أن يهلك جميع اليهود الذين فى كل مملكة أخشويروش شعب مردخاى » .

وكشف هامان ألاعيب اليهود وتمكن من أن يصدر أمرا بإبادة كل اليهود الذين كانوا فى ملك أخشويروش ، وعلم مردخاى فشق ثيابه ودخلت جوارى إستير وخصيانها وأخبروها فساءها الخبر وأرسلت إلى مردخاى تسأله عن سبب تمزيق ثيابه ، فأرسل إليها صورة من الأمر الملكى بإبادة اليهود ، فدخلت على الملك فقال لها : « ما لك يا إستير الملكة وما هى طلبتك ؟ إن نصف المملكة تعطى لك . فقالت إستير : إن حسن عند الملك فليأت الملك وهامان اليوم إلى الوليمة التى عملتها له . فقال الملك : أسرعوا بهامان ليفعل كلام إستير . فأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها إستير . فقال الملك لإستير عند شرب الخمر : ما هو سؤالك فيعطى لك وما هى طلبتك ؟ إلى نصف المملكة تقضى . فأجابت إستير وقالت : إن سؤلى وطلبتى ، إن وجدت نعمة فى عينى الملك ، وإذا حسن عند الملك أن يعطى سؤلى وتقضى طلبتى أن يأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى أعملها وغدا أفعل حسب أمر الملك » .

وبدهاء الأنثى أخبرت إستير الملك أخشويروش أن مردخاى هو الذى كشف المؤامرة على حياته ، فألبس الملك مردخاى اللباس السلطانى وأمر بفرسه الذى يركبه وبتاج الملك الذى يوضع على رأسه ، وأمر رجاله أن يركبوا مردخاى الفرس فى ساحة المدينة وأن ينادوا قدامه : هكذا يصنع للرجل الذى يسر الملك بأن يكرمه .

واستطاعت إستير بمعاونة مردخاى أن يغيرا قلب الملك على هامان عدو اليهود ، وأن يجعلاه يصدر حكما بصلب هامان على نفس الخشبة التى كان هامان قد أعدها ليصلب مردخاى عليها .

ويزعم مردخاى الذى كتب هذا السفر فى الإصحاح الثامن أن الملك

أخشويروش لم يكتف بذلك بل قال لإستير الملكة و مردخاى اليهودى : « هو ذا قد أعطيت بيت هامان لإستير ، أما هو فقد صلبوه على الخشبة من أجل أنه مد يده إلى اليهود فاكتبا أنتما إلى اليهود ما يحسن فى أعينكما باسم الملك واختماه بخاتم الملك ، لأن الكتابة التى تكتب باسم الملك وتختم بخاتمه لا ترد . فدعى كتاب الملك فى ذلك الوقت فى الشهر الثالث أى شهر سيوان فى الثالث والعشرين منه ، وكتب حسب كل ما أمر به مردخاى إلى اليهود إلى المرازبة والولاة ورؤساء البلدان التى من هند إلى كوش مائة وسبع وعشرين كورة ، إلى كل كورة بكتابتها وإلى كل شعب بلسانه وإلى اليهود بكتابتهم ولسانهم . فكتب باسم الملك أخشويروش وختم بخاتم الملك وأرسل رسائل بأيدى بريد الخيل رُكّاب الجياد والبغال بنى الرَّمَك التى بها أعطى الملك اليهود فى مدينة فمدينة أن يجتمعوا ويقضوا لأجل أنفسهم ويهلكوا ويقتلوا ويبيدوا قوة كل شعب وكورة تضادهم حتى الأطفال والنساء ، وأن يسلبوا غنيمتهم » .

إن اليهود إذا قدروا لا يعرفون رحمة فقلوبهم قدت من حجارة بل أشد قسوة ، فمن الحجارة ما يتفجر منها الماء وما تخر ساجدة من خشية الله . إنهم يتهللون بالفرح لقتل النساء والأطفال وهذا ليس زعما ولا افتراء ، فلنقرأ معا ما كتبه مردخاى الذى صار عظيما فى بيت الملك بفضل جمال ابنة عمه :
« فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك وعملوا بمبغضيهم ما أرادوا ، وقتل اليهود فى شوشن القصر وأهلكوا خمسمائة رجل وبنى هامان العشرة ... » .

« ثم اجتمع اليهود الذين فى شوشن القصر فى اليوم الرابع عشر أيضا من شهر آذار وقتلوا فى شوشن القصر ثلاثمائة رجل ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب ، وباقى اليهود الذين فى بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لأجل أنفسهم

واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفا ولكن لم يمدوا أيديهم إلى النهب ... » .

صورة دامية لا تستغرب من اليهود إذا قدروا ، بل صورة بشعة تحط من قدر البشرية ، فأين هذه الصورة القاسية من الصورة الرحيمة التى رسمها نبى الإسلام عليه السلام يوم أن فتح مكة وأصبح كل أعدائه فى قبضة يده ؟ إنه قال لهم فى تواضع يليق بأنبياء الله ورسله : ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . صورة نبيلة لا أدرى كيف غابت عن أعين أعداء الإسلام من الكتاب والمستشرقين الذين جعلوا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — هدف افتراءاتهم .

و لم يخجل اليهود من أن مردخاى قدم ابنة عمه الجميلة إلى الملك لتكون محظية من محظياته ، و لم يثر أحد منهم على أن مردخاى قبل أن يزوج اليهودية من رجل من شعوب الأرض ، فالشريعة التى شرعها عزرا وأيدها نحميا تحرم زواج اليهودية من أمىّ حتى لو كان ملكا ، بل أغمض الجميع أعينهم عن هذه الزلة بل المعصية فى دين اليهود وباركوا جميعا عمل مردخاى ، بل قدسوا مذكراته وضموها إلى التوراة وجعلوا لإستير الملكة عيدا يحتفل به كل عام كل من يؤمن بتوراة المنفى من يهود ومسيحيين !

ولنقرأ الإصحاح العاشر والأخير من سفر إستير لنرى كيف ختم مردخاى مذكراته بتمجيد نفسه : « ووضع الملك أخشويروش جزية على الأرض وجزائر البحر وكل عمل سلطانه وجبروته وإذاعة عظمة مردخاى الذى عظمه الملك أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك مادى وفارس ، لأن مردخاى اليهودى كان ثانى الملك أخشويروش وعظيما بين اليهود ومقبولا عند كثرة إخوته طالبا الخير لشعبه ومتكلما بالسلام لكل نسله » .

وكان اليهود أيام التدوين يسطون على آداب الشعوب التى عاشوا فيها وينسبون حكمة تلك الشعوب لرجال من اليهود . إنهم استعانوا بأساطير البابليين ومعتقداتهم وديانة قدماء المصريين وصلواتهم فى إعادة كتابة التوراة فى منفاهم ، فلم يكتفوا بأن سلبوا الكنعانيين لسانهم العبرى ونسبوه لأنفسهم بل استباحوا ثمرات عقول الفراعنة والبابليين بل والإسماعيليين الذين عاشوا على مقربة منهم فى جزيرة العرب .

كان أيوب نجديا و لم يكن من بنى إسرائيل ، وقد اشتهر بصبره على المكاره وعبادته لربه فى السراء والضراء عبادة ذهب صيتها فى الأمم ، فعز على الذين كانوا يكتبون التوراة أن يكون لشعب غير شعب الله المختار فضل فسطوا على قصة أيوب وأضافوها إلى كتابهم المقدس .

وكان من عادة اليهود الذين كتبوا التوراة فى المنفى أن يذكروا اسم بطل قصتهم واسم أبيه وجده وأجداده حتى يعودوا به إلى هرون الكاهن أو اللاويين آباء موسى أو إلى يهوذا أو غيره من أسباط بنى إسرائيل . أما فيما يختص بأيوب عليه السلام فلم يذكروا إلا اسمه حتى لا ينكشف أمرهم :

« كان رجل فى أرض عَوْض اسمه أيوب ، وكان هذا الرجل كاملا ومستقيما يتقى الله ويحيد عن الشر . وولد له سبعة بنين وثلاث بنات ، وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة فدان بقر وخمسمائة أتان وخدمة كثيرون جدا ، فكان هذا الرجل أعظم كل بنى الشرق ، وكان بنوه يذهبون ويعملون وليمة فى بيت كل واحد منهم فى يومه ويرسلون ويستدعون أخواتهم الثلاث ليأكلن ويشربن معهم ، وكان لما دارت أيام الوليمة أن أيوب أرسل فقدسهم ، وبكر فى الغد وأصعد محرقات على عددهم كلهم ، لأن أيوب قال : ربما أخطأ بنى وجدفوا على الله فى قلوبهم ،

هكذا كان أيوب يفعل كل الأيام » .

لم يكن اليهود يعرفون غير المحرقات للتقرب إلى الله فجعلوا أيوب يقدم محرقات على عدد أولاده ليصبغوا القصة بالصبغة اليهودية ، وكما هي عادتهم بإلصاق الجهل بالله سبحانه وتعالى نجدهم فى الفقرات التالية ينطقون الله بأسئلة تنم عن عدم علمه ـــ سبحانه وتعالى عما يصفون : « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضا فى وسطهم ، فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ ، فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها . (كأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف) فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ لأن ليس مثله فى الأرض ، رجل كامل مستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس أنك سيَّجت حوله وحول بيته وحول كل ماله من ناحية ؟ ، باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الأرض ، ولكن ابسط يدك الآن ومسَّ كل ماله فإنه فى وجهك يجدف عليك ، فقال الرب للشيطان : هو ذا كل ماله فى يدك ، وإنما إليه لا تمد يدك . ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب .

وكان ذات يوم وأبناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمرا فى بيت أخيهم الأكبر أن رسولا جاء إلى أيوب وقال : البقر كانت تحرس والأتن ترعى بجانبها فسقط عليها السبئيون وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدى لأخبرك . وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال : نار الله سقطت من السماء فأحرقت الغنم والغلمان وأكلتهم ونجوت أنا وحدى لأخبرك . وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال : الكلدانيون عبئوا ثلاث فرق فهجموا على الجمال وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدى لأخبرك ، وبينما هو

يتكلم إذ جاء آخر وقال : بنوك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمرا فى بيت أخيهم الأكبر وإذا ريح شديدة جاءت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا ونجوت أنا وحدى لأخبرك . فقام أيوب ومزق جبته وجز شعر رأسه وخر على الأرض وسجد وقال : « عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود إلى هناك . الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركا ، فى كل هذا لم يخطئ أيوب و لم ينسب لله جهالة » .

يلاحظ أن أيوب قال : عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود إلى هناك ، و لم يشرح لنا كاتب هذا السفر ما الذى يقصده من « هناك » ، إن اليهود لا يؤمنون بالبعث وأيوب يؤمن ككل أنبياء الله بيوم النشور، يوم الحساب ، إنه يقصد ولا ريب يوم الدينونة بقوله : عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود إلى هناك ترى هل لم يفطن الذى وضع سفر أيوب بين دفتى التوراة إلى هذا التناقض بين النص والعقيدة اليهودية ؟

« وكان ذات يوم أن جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضا فى وسطهم ليمثل أمام الرب ، فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها . فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ لأنه ليس مثله فى الأرض . رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، وإلى الآن هو متمسك بكماله ، وقد هيجتنى عليه لأبتلعه بلا سبب ، فأجاب الشيطان الرب وقال : جلدٌ بجلد وكل ما للإنسان يعطيه لأجل نفسه ، ولكن ابسط الآن يدك ومس عظمه ولحمه فإنه فى وجهك يجدف عليك ، فقال الرب للشيطان : ها هو فى يدك ولكن احفظ نفسه » .

حوار لا يليق بالذات العلية ، فالرب لا يدرى أين كان الشيطان ولعل عذر

الكاتب اليهودى الذى أعاد صياغة قصة أيوب العربى أنه يعتقد أن الله يعيش فى الهيكل فى أورشليم كما يعيش الملوك ، وأنه يمكن أن يهيج على عبيده كما هيجت إستير ومردخاى أخشويروش الملك على هامان عدو اليهود ، وأن فكرة الرب عند البابليين عبدة الكواكب والشمس والقمر أرقى من فكرة الرب عند اليهود . ولنقرأ معا ما كان يبتهل به عبَّاد القمر إلى الإلٰـه :

أيها الرب الرحيم الشفيق .
الذى فى قبضته حياة الأرض قاطبة ،
. . . .
. . . .
والرب الذى يقرر حكم السماء والأرض ،
والذى لا مبدل لأمره .
والقابض على النار والماء والمرشد للمخلوقات .
الأحياء ، فمن ذلك الإلٰـه الذى يعادلك ؟

إن عابد القمر يؤمن أن ربه هو الذى يقرر حكم السماء والأرض وأنه لا مبدل لأمره ، أما اليهودى الذى يعبد إلٰـه إسرائيل فيجعل إلٰـهه ألعوبة فى يد الشيطان يصغى إلى همزاته ولمزاته ويستجيب لوسوساته ، فإذا كان ذلك شأن الإلٰـه فيالضيعة البشر !.

« فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردىء من باطن قدمه إلى هامته ، فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس فى وسط الرماد ، فقالت له امرأته : أنت متمسك بعد بكمالك . بارك الله ومت . فقال لها : تتكلمين كلاما كإحدى الجاهلات ، الخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل ؟! فى كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه .

فلما سمع أصحاب أيوب الثلاثة بكل الشر الذى أتى عليه جاءوا كلٌّ واحد من مكانه : البفاز التيمانى وبلدد الشوحى وصوفر النعمانى وتواعدوا أن يأتوا ليرثوا له ويعزوه ، ورفعوا أعينهم من بعيد و لم يعرفوه فرفعوا أصواتهم وبكوا ومزق كل واحد جبته وذروا ترابا فوق رءوسهم نحو السماء ، وقعدوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليال و لم يكلمه أحد بكلمة لأنهم رأوا أن كآبته عظيمة جدا . بعد هذا فتح أيوب فاه وسب يومه ، وإذ أيوب يتكلم فقال(١) :

ــ ليته هلك اليوم الذى ولدت فيه والليل الذى قال : قد حُبل برجل ، وليكن ذلك اليوم ظلاما لا يعتنى به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار ، ليملكه الظلام وظل الموت ، ليحل عليه سحاب ، لترعبه كاسفات النهار ، أما ذلك الليل فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا يدخلن فى عدد الشهور ، هو ذا ذلك اليوم ليكن عاقرا ، لا يسمع فيه هتاف ، ليلعنه لاعنو اليوم المستعدون لإيقاظ التنين . لتظلم نجوم عشائه ، لينتظر النور ويكن ولا يَر هدب الصبح لأنه لم يغلق أبواب بطن أمى و لم يستر الشقاوة عن عينى ... » .

ويستمر كاتب هذا الإصحاح يصب اللعنات على اليوم الذى ولد فيه أيوب على لسان أيوب ، ويأخذ الأصدقاء الثلاثة فى إزجاء النصائح إلى أيوب حتى يقول أيوب إنه أبر من الله ، ثم تنتهى القصة بمناجاة أيوب قائلا : « قد علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر ، فمن ذا الذى يُخفى القضاء بلا معرفة ؟ ولكن قد نطقت بما لا أفهم بعجائب فوقى لم أعرفها ، اسمع الآن وأنا أتكلم . أسألك فتعلمنى ، بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عينى ، لذلك أرفض وأندم فى التراب والرماد .

وكان بعدما تكلم الرب مع أيوب بهذا الكلام أن الرب قال لأليفاز التيمانى : قد احتمى غضبى عليك وعلى كلا صاحبيك لأنكم لم تقولوا فى

---

(١) نبهنا أحد القراء أنه يستبعد أن يتفوه أيوب بمثل هذا الكلام المتشائم الذى فيه اعتراض على القدر. الناشر . (عام الوهود)

الصواب كعبدى أيوب ، والآن فخذوا لأنفسكم سبعة ثيران وسبعة كباش واذهبوا إلى عبدى أيوب وأصعدوا محرقة لأجل أنفسكم ، وعبدى أيوب يصلى من أجلكم لأنى أرفع وجهك لئلا أصنع معكم حسب حماقتكم لأنكم لم تقولوا لى الصواب كعبدى أيوب . فذهب أليفاز التيمانى ويلدد الشوحى وصوفر النعمانى وفعلوا كما قال الرب لهم ، ورفع الرب وجه أيوب ورد الرب سبى أيوب لما صلى لأجل أصحابه ، وزاد الرب على كل ما كان لأيوب ضِعفا ، فجاء إليه كل إخوته وكل أخواته وكل معارفه من قبل وأكلوا معه خبزا فى بيته ورثوا له وعزوه عن كل الشر الذى جلبه الرب عليه ، وأعطاه كل منهم قسيطة واحدة وكل واحد قرطا من ذهب ، وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاده وكان له أربعين ألفا من الغنم وستة آلاف من الإبل وألف فدان من البقر وألف أتان ، وكان له سبعة بنين وثلاث بنـات ، اسم الأولى يميمة واسم الثانية قصيمة واسم الثالثة قرن هفّوك ، و لم توجد نساء جميلات كنساء أيوب فى كل الأرض وأعطاهن أبوهن ميراثا بين إخوتهن ، وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال ، ثم مات أيوب شيخا وشبعان من الأيام » .

وانتهت قصة أيوب فى التوراة نهاية سعيدة وكان لا مفر من أن تنتهى بمثل هذه النهاية لتتواكب مع المنطق اليهودى الذى يؤمن بأن الجزاء دنيوى ما دامت الدنيا هى كل الحياة ، وإن توريث أيوب لبنيه لا يتفق مع الفكر الإسلامى ، فرسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فما يتركه الأنبياء إنما هو صدقة للفقراء . ولنقرأ معا آيات القرآن العظيم لنرى ما جاء فى كتاب الله عن أيوب عليه السلام : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر

وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابديـن . »[١] .
« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنُصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضِغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أوّاب . »[٢] .

وتأتى المزامير بعد سفر أيوب ، والمفروض أنها من غناء داود عليه السلام . وتطلق التوراة على نبى الله داود إمام المغنين ، وبعض هذه المزامير على ذوات الأوتار وبعضها على ذوات النفخ وبعضها على الجيتر . وينبغى ألا يغيب عن البال أن أنبياء بنى إسرائيل كانوا يتخرجون فى مدارس الرامة وبيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبا أو سيدا ، وكان يعلم فى هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ؛ لذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب ، والظاهر أن هؤلاء الأنبياء قد نظموا هذه المزامير على لسان داود فى زمـن التدويـن واستعاروا معتقدات الشعوب وحكمتهم ونسبوها إلى داود عليه السلام .

إن هنرى برستيد يقول إن المزمور الأول قد أخذ عن أمينموبى الحكيم المصرى القديم ، وهذا هو نص ذلك المزمور : « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس ، ولكن فى ناموس الرب مسرته وفى ناموسه يلهج نهارا وليلا ، فيكون شجرة مغروسة عند مجارى المياه ، التى تعطى ثمرها فى أوانه وورقها لا يذبل

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .
(٢) سورة ص الآيات (٤١ ــ ٤٤) .

وكل ما يصنع ينجح .

ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعصافة التى تُذَريها الريح ، لذلك لا تقدم الأشرار فى الدين ولا الخطاة فى جماعة الأشرار لأن الرب يعلم طريق الأبرار ، أما طريق الأشرار فتهلك » .

ونلاحظ أن الدين هنا بمعنى الحساب ، ولم يرد ذكر الحساب فى سفر المزامير كله إلا هذه المرة ، وهذه ملاحظة لها خطرها لأن فكرة الحساب فى عالم الآخرة هى من ثمرات التمدن المصرى القديم .

وهذا هو نص حكمة الحكيم المصرى القديم : « والرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد مثله كمثل شجرة نامية فى غابة ، ففى لحظة يفقد فروعه ويجد نهايته فى مرفأ الخشب وينقل بعيدا عن مكانه والنار مأواه .

والرجل الحازم حقا ينتقى لنفسه مكانا .

فإنه مثل شجرة نامية فى حديقة يزدهر ويتضاعف ثمره ويجلس فى حضرة سيده .

وثمرته حلوة وظله وارف ويجد آخرته فى الحديقة » .

وكذلك نلاحظ أن توكيد ذكر مجارى المياه فى الصور العبرانية أمر هام أيضا ، وذلك لأن النصف الجنوبى من فلسطين شبه صحراوى ، وكانت قلة الماء فيه من أسباب المتاعب الشديدة كما هو الحال هناك إلى يومنا هذا .

ونلاحظ من جهة أخرى أن العلامة . « الهيرو غليفية » الدالة على كلمة « حديقة » كانت ترسم بصورة بركة حديقة . ولذلك كان مجرد ذكر كلمة « حديقة » دلالة على الماء لاعتبار ذلك عندهم من الأشياء البدهية . ومن ثم لم تذكر كلمة « ماء » بعينها فى الوصف الذى وصفه « أمينموبى » .

ولذلك نرى أن مشابهة الصور المصرية للصور العبرانية أدق مما يبدو فى

الظاهر . هذا هو رأى هنرى برستد فى كتابه « فجر الضمير » وهو يقارن بين المزمور الأول وبين حكمة « أمينموبى » على اعتبار أن المزمور من وضع داود عليه السلام ، ولكن مما لا شك فيه أن المزامير قد وضعت فى عهد التدوين أيام أن قام عزرا ونحميا ودانيال ومردخاى بكتابة التوراة التى بين أيدينا ؛ التوراة التى كانت سجلا لتاريخ اليهودية من وجهة نظر الذين كتبوها ، وقد عاد برستيد ليؤيد هذا الرأى فقال :

« قامت بشأن الأغانى العبرانية الدينية اختلافات عريضة بين العلماء العبرانيين ومؤرخيهم من حيث تحديد تاريخ « المزامير » ، فقد كان هناك رأى فيه غلو ينسبها إلى أصل متأخر جدا حتى لقد اعتبر تاريخ وضعها كلها بعد عهد نفى العبرانيين فى بابل ، ولكننا نعرف أن الأناشيد الدينية كانت منتشرة فى عهد مبكر جدا فى كل من « بابل » و « مصر » ، ولم يكن هناك من الأسباب على ما يظهر ما يدعو أهل فلسطين — سواء أكانوا من الكنعانيين أم من العبرانيين — إلى عدم استعمال هذا النوع من الأدب قبل عهد « النفى العبرانى » بزمان طويل » .

وعندى أن ذلك الرأى الذى يرجع الأغانى العبرانية الدينية إلى ما بعد عهد نفى اليهود إلى بابل هو الرأى الصحيح وأنه لا غلو فيه ؛ فالتوراة كلها بما فى ذلك الأسفار الخمسة الأولى التى يعترف بها السامريون قد كتبت فى المنفى وبعد العودة مباشرة من المنفى إلى أورشليم ، وذلك واضح من أسفار عزرا ونحميا وإستير .

وعقد برستد مقارنة شائقة بين تعاليم أخناتون والمزامير ، فبعد أن أورد أطول أنشودة تتغنى ببهاء « آتون » وقوته العالمية ، راح يقارن بين فقراتها وبين المزامير . وهذه هى أنشودة أخناتون :

« أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء ، أنت يا « آتون » الحى الذى كنت فى أزلية الحياة .
فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى .
كنت تملأ كل البلاد بجمالك .
أنت جميل وعظيم متلألئ ومشرق فوق كل أرض ،
وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك .
أنت رع ، وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى .
وأنت توثقهم (يعنى البشر) لابنك المحبوب (الفرعون) .
ورغم أنك قصى جدا فإن أشعتك فوق الأرض .
ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفية (عنهم) .
وحينما تغيب فى أفق السماء الغربى فإن الأرض تظلم كالأموات ،
فينامون فى حجرتهم ورءوسهم ملفوفة ومعاطسهم مسدودة ،
ولا يرى إنسان الآخر .
فى حين أن أمتعتهم تسرق وهى تحت رءوسهم ،
وهم لا يشعرون بذلك .
وكل أسد يخرج من عرينه ليفترس ،
وكل الثعابين تنساب لتلدغ ،
والظلام يخيم والعالم فى صمت .
فى حين أن الذى خلقهم فى أفقه .
الأرض زاهية تشرق فى الأرض ،
وعندما تضئ بالنهار مثل « آتون » .
وحينما ترسل أشعتك .

تصير الأرضان (مصر) فى عيد ،
والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم ،
عند إيقاظك لهم .
وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم ،
ثم يرفعون أذرعتهم تعبدا لطلعتك .
ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم فى كل العا لم .
وجميع الحاشية ترتع فى مراعيها ،
والأشجار والنباتات تينع .
والطيور فى مستنقعاتها ترفرف ،
وأجنحتها منتشرة تعبدا لك .
وجميع الغزلان ترقص على أقدامها ،
وجميع المخلوقات التى تطير أو تحط ،
تحيا عندما تضئ عليها .
والسفن تقلع فى النهر صاعدة ،
أو منحدرة فيه على السواء ،
وكل فج مفتوح لأنك أشرقت ،
والسمك يثب فى النهر أمامك ،
وأشعتك تنفذ إلى وسط البحر الأخضر العظيم .
أنت خالق الجرثومة فى المرأة ،
والذى يذرأ من البذرة أناسيا ،
وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه ،
ومهدئا إياه حتى لا يبكى ،

مرضعا إياه حتى فى الرحم .
وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته .
وحينما ينزل من الرحم (أمه) فى يوم ولادته ،
فأنت تفتح فمه كلية ،
وتمنحه ضروريات الحياة .
وحينما يصير الفرخ فى لحاء البيضة ،
فأنت تعطيه نفسا ليحفظه حيا فى وسطها ،
وقد قدرت له ميقاتا فى البيضة ليخرج منها ،
وهو يخرج من البيضة فى ميقاته (الذى قدرته له) ،
فيصيح ويمشى على رجليه حينما يخرج منها .
ما أكثر تعدد أعمالك !
إنها على الناس خافية ،
يا أيها الإلٰه الأحد ،
الذى لا يوجد بجانبه إلٰه آخر ،
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك ،
وحينما كنت وحيدا (لا شىء غيرك) ،
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان ،
وجميع ما على الأرض ،
مما يمشى على رجليه ،
وما فى عليين مما يطير بأجنحته ،
وفى الأقطار العالية سوريا ،
وكوش وأرض مصر ،

فإنك تضع كل إنسان فى موضعه ،
وتمدهم بحاجاتهم ،
وكل إنسان لديه قوته ،
وأيامهمعدودات .
والآلسنة فى الكلام مختلفة ،
وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم ،
لأنك تخلق الأجانب مختلفين(١) .

وكانت المقارنة بين هذه الأنشودة والمزمور ١٠٤ :

« باركى يا نفسي الرب . يارب إلٰهى قد عظمت جدا مجدا وجلالا لبست ، اللابس النور كثوب الباسط السموات كشُقِّف المُسَقِّف علاليه بالمياه ، الجاعل السحاب مركبته ، الماشي على أجنحته الريح ، الصانع ملائكته رياحا وخدامه نارا ملتهبة ، المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد ، كسوتها الغمر كثوب ، فوق الجبال تقف المياه . من انتهارك تهرب ، من صوت رعدك تفر . تصعد إلى الجبال وتنزل إلى البقاع إلى الموضع الذى أسسته لها . وضعت لها تخما لا تتعداه ، لا يرجع لتغطى الأرض .

المفجر عيونا فى الأودية بين الجبال تجرى ، تسقى كل حيوان البر . تكسر الفراء ظمأها . فوقها طيور السماء تسكن . من بين الأغصان تُسمِّع صوتا . الساقى الجبال من علاليته . من ثمر أعمالك تشبع الأرض ، المنبت عشبا للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لإخراج خبز من الأرض . وخمر تفرِّح قلب الإنسان

---

(١) فجرالضمير : تأليف جميس هنرى برستد : ترجمة الدكتور سليم حسن . مكتبة مصر .

لإلماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الإنسان . تشبع أشجار الرب أرز لبنان الذى نصبه . حيث يعيش هناك العصافير . أما اللقلق فالسرو بيته . الجبال العالية للوعول ، الصخور ملجأ للوِبار (جمع وبْر : دويبة كالسِّنور لكنها أصغر منه) .

صنع القمر للمواقيت ، الشمس تعرف مغربها ، تجعل ظلمة فيصير ليل ، فيه يدب كل حيوان الوعر . الأشبال تزمجر لتخطف، ولتلتمس من الله طعامها . تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض . الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء . ما أعظم أعمالك يا رب . كلها بحكمة صنعت . ملآنة الأرض من غناك ، هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك دبابات بلا عدد ..صغار حيوان مع كبار . هناك تجرى السفن ، لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه ..كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه . تعطيها فتلتقط . تفتح يدك فتشبع خبزا . تنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود . ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض .

يكون مجد الرب إلى الدهر ، يفرح الرب بأعماله . الناظر إلى الأرض فترتعد . يمس الجبال فتُدخن . أغنى للرب فى حياتى ، أرنم لإلٰهى ما دمت موجودا فيلذ له نشيدى وأنا أفرح بالرب ، لتبد الخطاة من الأرض والأشرار لا يكونوا بعد . باركى يا نفس الرب . هللويا » .

تكشف لنا أنشودة أخناتون عن المنهل الذى استقى منه مؤلف المزمور العبرانى إدراكه لرحمة الله فى عون مخلوقاته حتى أصغرها ، وتبين أن كتاب التوراة قد أخذوا كثيرا من الأدب الفرعونى والأدب البابلى وادعوه لأنفسهم ، فإنه لما يثير حفيظتهم أن يكون لغيرهم من الأمم فضل أو سبق وهم الذين عبدوا أنفسهم غرورا .

حاول أخناتون فى أناشيده أن يظهر قدرة إلٰهه ، وكان هدف المزامير تمجيد يهوه على أنقاض الأغانى الدينية الفرعونية والبابلية . وقد فاض القرآن العظيم بتمجيد الله سبحانه وتعالى وإظهار قدرته فى آيات أخاذة تبده العقول وتستولى على الأفئدة وترتاح إليها النفوس : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلْق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . ضربَ لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون . »(١) «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . »(٢) . « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا

---

(١) سورة الروم الآيات (١٩ — ٢٨) .

(٢) سورة الروم الآية (٤٦) .

أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . »[١] .

« خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن يميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين . »[٢] . « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . »[٣] . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد . ولو أنَّ ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير . ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير . »[٤] .

وقد يكون فى المزامير بعض ابتهالات داود عليه السلام حفظها الخلف عن السلف ولكن لا يمكن القول بأن المزامير المائة والخمسين الآيات جميعها من نظم داود نبى الله . فالأنبياء الشعراء المغنون الذين تخرجوا فى مدارس الأنبياء لهم نصيب كبير فى تلكم المزامير ، ولم يخل الأثر من اقتباس بعض الأناشيد الدينية للمصريين القدماء والبابليين والكنعانيين فقد كانت

---

(١) سورة الروم الآية (٤٨) .

(٢) سورة لقمان الآيتان (١٠ ، ١١) .

(٣) سورة لقمان الآية (١٦) .

(٤) سورة لقمان الآيات (٢٥ ـــ ٣٠) .

الآلهة تنتقل فى ركاب القوافل وكذلك المعتقدات والأناشيد وحكمة الحكماء .

وتأتى الأمثال فى التوراة بعد المزامير . ويقول الإصحاح الأول منها : « أمثال سليمان بن داود ملك إسرائيل . لمعرفة حكمة وأدب لإدراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة . لتعطى الجهال ذكاء والشاب معرفة وتدبرا ، يسمعها الحكيم فيزداد علما والفهيم يكتسب تدبيرا . لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم . مخافة الله رأس المعرفة . أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب .

اسمع يا بنى تأدب أبيك ولا ترفض شريعة أمك . لأنهما إكليل نعمة لرأسك وقلائد لعنقك ، يا بنى إن تملقك الخطاة فلا ترض . إن قالوا لك هلم معنا لتكمن للدم لتختف للبرىء باطلا ، لتبتلعهم أحياء كالهاوية وصحاحا كالهابطين فى الجب ، فتجد كل قنية فاخرة تملأ بيوتنا غنيمة ، تلقى قرعتك وسطنا ، يكون لنا جميعا كيس واحد . يا بنى لا تسلك فى الطريق معهم ، امنع رجلك عن مسالكهم ، لأن أرجلهم تجرى إلى الشر وتسرع إلى سفك الدم ، لأن باطلا تنصب الشبكة لعينى كل ذى جناح . أما هم فيكمنون لدم أنفسهم . يختفون لأنفسهم . هكذا طريق كل مولع بكسب ، يأخذ نفس مقتنيه .

الحكمة تنادى فى الخارج . فى الشوارع تعطى صوتها ، تدعو فى رءوس الأسواق فى مداخل الأبواب . فى المدينة تبدى كلامها قائلة : إلى متى أيها الجهال تحبون الجهل والمستهزئون يسرون بالاستهزاء والحمقى يبغضون العلم ، ارجعوا عند توبيخى ، هأنذا أفيض لكم روحى أعلمكم كلماتى .

لأنى دعوت فأبيتم ومددت يدى وليس من يبالى ، بل رفضتم كل مشورتى

و لم ترضوا توبيخى . فأنا أيضا أضحك عند بليتكم ، أشمت عند مجىء خوفكم . إذا جاء خوفكم كعاصفة وأتت بليتكم كالزوبعة . إذا جاءت عليكم شدة وضيق . حينئذ يدعوننى فلا أستجيب . يبكرون إلىّ فلا يجدوننى . لأنهم أبغضوا العلم و لم يختاروا مخافة الرب . لم يرضوا مشورتى . رذلوا كل توبيخى . لذلك يأكلون من ثمر طريقهم ويشبعون من مؤامراتهم لأن ارتداد الحمقى يقتلهم وراحة الجهال تبيدهم . أما المستمع لى فيسكن آمنا ويستريح من خوف البشر » .

والمفروض أن هذه أولى حكم سليمان عليه السلام . وإن ما جاء بها لا يتفق مع أخلاق الأنبياء فهل يعقل أن نبيا يضحك عند بلية قومه ويشمت عند مجىء خوفهم ؟ أين هذا القول من قول نبى الإسلام — ﷺ — لما آذاه قومه : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ؟!

ويقول برستد فى كتابه فجر الضمير عن « الأمثال » : « الواقع أنه لا يوجد شيء فى كل مجال الأدب العبرانى كان له من التأثير العميق فى الحضارة الغربية أكثر من تأثير نصائحهم فى السلوك المستقيم عن طريق الأمثال ، وهى التى نسميها « سفر الأمثال » إذ أن ما فى هذا الكتاب من التصوير السامى للأخلاق وما احتواه من الحكمة الخلقية النافذة قد امتزج بنفس مادة تصوراتنا الحديثة للحياة الفاضلة . ونجد فى الترجمة الخلابة التى أقر بها « الملك جيمس »[(١)] من الأمثال السائرة الحاذقة وما يُتمثل به بيننا يوميا .

وقد أدت العبارة الشائعة « أمثال سليمان » إلى اعتقاد القارئ المعتاد أن

---

(١) يقصد بذلك النسخة المنقحة من كتاب العهد القديم التى عملت بأمر الملك جيمس ملك إنجلترا عام ١٦١١ بعد الميلاد .

أمثال ذلك الكتاب هى من عمل « الملك سليمان الحكيم » وفى الحق أنه يبتدىء بنسبة الكتاب إلى « سليمان » فى مطلع الفصل الأول . ثم تكررت تلك التسمية فى بداية الفصل العاشر فى شكل عنوان لمجموعة أخرى من « أمثال سليمان » . كما أنه توجد به مجموعة ثالثة تحمل اسم « سليمان » وتبتدىء بالفصل الخامس والعشرين ، فى حين أن الفصلين النهائيين من الكتاب ينسبان إلى مؤلفين آخرين مجهولى الاسم وأحدهما منسوب إلى امرأة ، فيتضح من ذلك ومما يشهد به « كتاب العهد القديم » نفسه أن كتاب الأمثال هو مجرد مؤلفة جمعت من مجموعات متفرقة . ويوجد بالكتاب فضلا عن هذه المجاميع الخمس التى كانت يوما ما متفرقة مجموعة سادسة لأننا نجد فى صلب الفصل الرابع والعشرين (حتى فى الترجمة الإنجليزية) ما يكشف لنا عن عنوان جديد بهذا النص . « هذه أيضا كلمات الحكماء » ، ويلى ذلك مباشرة جزء قصير يجوز أنه ملحق وضعه مؤلف مجهول . كما نجد مدفونا فى قلب الفصل الثانى والعشرين دون أى إشارة تعليقية من جانب المترجمين حتى فى النسخة المنقحة ، ما هو بالتأكيد بداية جزء آخر إن لم يكن عنوانا له (١٢ — ١٧) يسمى « كلمات الحكماء » مثل ما وجدناه فى الفصل الرابع والعشرين سواء بسواء . فمن هم يا ترى (هؤلاء الحكماء) المعلمون الاجتماعيون ؟ — لأن كلمة « حكايم » العبرية يدل معناها على صيغة الجمع — الذين قاموا بكتابة هذا الجزء الذى يبلغ نحو فصل ونصف فصل ؟

الواقع أن هذا السؤال قد عجز عن الإجابة عنه كل الباحثين إلى وقت قريب جدا ، غير أنه قد طبعت ورقة بردية كانت قد مكثت مدة طويلة فى المتحف البريطانى فكشفت لنا عن أن مؤلف ذلك الجزء لم يكن سوى صديقنا المصرى القديم أمينموبى ! وجميع العلماء بكتاب العهد القديم (التوراة)

الذين يعتد بآرائهم وأبحاثهم فيه ـــ يجزمون الآن بأن محتويات ذلك الجزء الذى يؤلف نحو فصل ونصف فصل « كتاب الأمثال » قد أخذ معظمه بالنص عن حكم الحكيم المصرى القديم أمينموبى ، أى أن النسخة العبرانية هى تقريبا ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفى العتيق . وكذلك صار من الواضح أيضا أن حكم « أمينموبى » شائعة فى مواضع عدة من كتاب العهد القديم حيث نراها مصدرا لتلك الأفكار والتشبيهات والمقاييس الخلقية وبخاصة لروح الشفقة الإنسانية الحارة ،لا فى كتاب الأمثال فحسب ، بل فى القوانين العبرانية وفى سفر « أيوب » .

وراح برستد يقارن بين كلمات الحكماء فى سفر « الأمثال » العبرانى وحكم أمينموبى :

أمينموبى المصرّى	سفر الأمثال العيرانى
أمل أذنيك لتسمع أقوالى واعكف قلبك على فهمها ، لأنه شيء مفيد إذا وضعتها فى قلبك ، ولكن الويل لمن يتعداها .	١٧ ـــ أمل أذنيك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتى . ١٨ ـــ لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك إن ثبتت جميعا على شفتيك . سفر الأمثال (٢٢ : ١٧ ـــ ١٨)

والمقصود من مثل تلك النصائح قد عرَّفته « الأمثال » وهو ما أشار إليه « أمينموبى » من أن المهارة العملية أصل جوهرى فى المعاملات الرسمية كما ترى فى نص كل منهما :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العيرانى
لأجل أن ترد على تقرير لمن قد	٢١ ـــ لأعلمك قسط كلام الحق

أرسله .　　　　　　لترد جواب الحق للذين أرسلوك .
(سفر الأمثال ٢٢ : ٢١)

غير أن العبارة « كلام الحق » الواردة فى « سفر الأمثال » هى بالطبع تحريف لما يقابل كلمة « تقرير » الواردة فى الأصل المصرى القديم .

وعلى أية حال فإننا نجد فى كل من سفر الأمثال وحكم « أمينموبى » أن الغرض الخلقى من تلك النصائح ظاهر فى كافة ثناياهما ، لذلك نرى أن إيراد بعض أمثلة هنا مفيد جدا . فمن ذلك :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تزحزحَنَّ علامات حدود الحقول .	١٠ ــ لا تنقل التخم القديم ولا تدخل حقول الأيتام .
... ...	
ولا تكونَنَّ شرا من أجل ذراع أرض ــ لا تتعديَنَّ على حدود أرملة .	(سفر الأمثال ٢٣ : ١٠)

ومن المهم أن نلاحظ أن قبل انكشاف النقاب عن حكم « أمينموبى » هذه أبدى نقاد « العهد القديم » أن كلمة « قديم » التى تشبه فى اللغة العبرانية كلمة « أرملة » هى بلا شك غلطة فى النسخة الخطية صحتها « أرملة » وعلى ذلك اتفقوا على جعل تلك الفقرة كالآتى :

« لا تزحزحن حدود الأرملة
ولا تدخلن فى حقول اليتامى »

وقد جاء انكشاف الأصل المصرى القديم مؤيدا لذلك التصحيح ومثبتا له . وقد يكون من أهم المشابهات العديدة البارزة التى يمكننا إيرادها هنا تلك

التحذيرات الخاصة بالثراء وهى :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تتعبن نفسك فى طلب المزيد حينما تكون حصلت بالفعل على حاجتك . وإذا جلب إليك المال بالسرقة لا يمكث معك فإنه سواد الليل .	٤ — لا تتعب لكى تصير غنيا . ...
وعندما يأتى الصباح لا يكون بعد فى منزلك .	٥ — هل تطير عينيك نحوه وليس هو ؟
بل يكون قد صنع لنفسه أجنحة كالأوز وطار إلى السماء .	لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء .
(أمينموبى ٩ ، ١٤ — ١٠ — ٥)	(سفر الأمثال ٢٣ : ٤ — ٥)

والسطر الذى حذفناه هنا من نص « الأمثال » مشوه فى الأصل العبرانى ، ومن المحتمل أنه يمكن إصلاحه بفحص الأصل المصرى القديم ، غير أن تناول مثل هذه المسائل التحليلية لا يمكن فى مثل هذا الكتاب .

وفيما قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م . كان حكماء الاجتماع المصريون قد وازنوا بين الغنى والأخلاق وفضلوا ، بصراحة ، الأخلاق على الغنى ، واعترفوا تمام الاعتراف بتفاهة الثراء المادى وأنه لا يجدى شيئا وبخاصة فى عالم الآخرة . وقد وفى المفكرون الاجتماعيون البحث فى حماقة الاتكال على الغنى فى نواح كثيرة مختلفة ، ونجد فى المواضع الكثيرة التى تناولت فيها الأمثال العبرانية هذا الموضوع ما يدل على أنها كانت واقعة بالبداهة تحت تأثير أقوال الحكماء المصريين القدماء . وقد تكون الموازنة الآتية إيضاحا آخر لذلك :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
الفقر فى يد الله خير من الغنى فى الهرى (المخزن)	١٦ — القليل مع مخافة الرب (يهوه) خير من كنز عظيم مع هم .
وأرغفة (تحصل عليها) بقلب فرح خير من ثروة (تحصل عليها) فى تعاسة .	١٧ — أكلة من البقول حيث تكون خير من ثور معلوف ومعه بغضة .
(أمينموبى ٩ : ٥ — ٨)	(سفر الأمثال ١٥ : ١٦ — ١٧)

والمثال الآتى فى نفس الموضوع أيضا :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
والثناء على الإنسان كشخص محبوب عند الناس خير من الغنى فى الهرى (المخزن) .	١ — لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام .
(أمينموبى ١٦ : ١١ — ١٢)	(سفر الأمثال ١٧ — ١) .

على أن تاريخ العبرانيين فيما يلى هذا العصر لا يترك مجالا للشك فى أنهم كانوا لا يكترثون بالقوة المالية . أو النجاح فى الأعمال ، فضلا عن أن المصنف لسفر الأمثال فى « العهد القديم » لم يتجاهل الحكمة المصرية القديمة التى من هذا القبيل كما سيأتى ذكره ، وربما لاحظ الباحث أن تلك التحذيرات التى جاءت فى سفر الأمثال بشأن الغنى والترف ليست مستقاة من « كلام الحكماء » فى التوراة .

(الأمثال ٢٢ : ١٧ ، ٣٤ ، ٢٢)

وهذه حقيقة جديرة بالاهتمام ، فإذا ما درست تلك الأمثال درسا أوفى

فإن ذلك بلا شك يكشف لنا عن أن أفكار المصنف العبرانى فى كافة موضوعات سفر الأمثال كانت تعتمد على حكم « أمينموبى » ولدينا فيما يلى مثال آخر ، لا يدخل فى حدود « كلمات الحكماء » يحذر من الحقد والانتقام .

(الأمثال ٢٠ : ٢٢)

ويهتم « أمينموبى » كثيرا بتحذير الشباب من الحماقة أو مخالطة رجال ذلك الطراز ، كما ترى المصنف العبرانى أيضا يحذر من ذلك حيث قالا :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تصاحبن رجلا حاد الطبع ولا تلحن فى محادثته .	٢٤ — لا تستصحب غضوبا ، ومع رجل ساخط لا تجىء .
(أمينموبى ١١ ، ١٣ — ١٤)	(سفر الأمثال ١٢ : ٢٤)

ونجد أن الكلمة العادية التى تعبر عن الرجل الطائش صاحب الطبع الحار فى حكم « أمينموبى » هى بكل بساطة « الشخص الحاد » ، ومن المهم أن نلاحظ هنا أن الأصل العبرانى لتلك الفقرة إذا ترجم حرفيا يكون معناه « الرجل ذو الحرارة » وهى عبارة لا توجد قط فى أية جهة أخرى من كتاب « العهد القديم » ، وهى بالبداهة محاولة من المصنف لنقل التعبير المصرى القديم إلى العبرانية . وعلى كل حال نجد أن الغضب الطائش والانتقام مذمومان فى كل من « سفر الأمثال العبرانى » وفى حكم « أمينموبى المصرى » ، وإليك ما قالاه فى شأن ذلك :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تقولن قد وجدت حاميا والآن	لا تقل إنى أجازى شرا .انتظر الرب

يمكننى أن أهاجم الرجل الممقوت .
ضع نفسك فى ذراعى الإلـٰه يهزمهم
صمتك (يعنى الأعداء) .
(أمينموبى ٢٢ ، ١ ــ ٨)

(يهوه) فيخلصك .
(لا تقل أجزى على الشر بل انتظر
الرب فيخلصك) .
(سفر الأمثال ٢٠ : ٢٢)

وقد كان « أمينموبى » ينصح ابنه بنفس هذه الطريقة الشديدة ناهيا إياه عن مشاحنة الشخص الحاد الفم « لأن الإلـٰه يعرف كيف يجيبه على عمله (٥ ، ١٠ ــ ١٧)» . وذلك يشبه أيضا ما جاء فى سفر الأمثال وهو : انتظر الرب (يهوه) فيخلصك » .

وتتفق نصائح « أمينموبى » فيما يختص بالسلوك فى حضرة أصحاب المقامات العالية مع الحياة المصرية أكثر بكثير مما تتفق مع الحياة العبرانية ، ذلك لأن مراعاة السلوك اللائق فى مصر من جانب الموظف المصرى الشاب كان لا مناص منه لمن كان يريد مستقبلا ناجحا . فكما أن آداب اللياقة الرشيقة المرعية فى البلاط الباريسى فى عهد اللوايسة المتأخرين من ملوك فرنسا قد انتشرت فى كل العواصم الأوربية التى كانت أقل ثقافة من باريس ، كذلك كانت تلك الآداب العالية ورسميات القصور فى المعاملات الرسمية المستحدثة فى أخلاق شعب فى أصوله خشونة الصحراوية البدوية ، فى عهد الملكية العبرانية الفتية ، متأثرة أيما تأثر بآداب اللياقة التليدة المرعية فى بلاط الفرعون الذى قبض موظفوه على زمام الحكم فى فلسطين مدة قرون عديدة . ومن أجل ذلك لم يتردد مصنف « سفر الأمثال » العبرانى فى توصية الإسرائيليين المعاصرين له باتباع آداب اللياقة المصرية الرسمية ، وإليك ما ذكر فى ذلك فى

كل من النص المصرى والنص العبرانى :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تأكل الخبز فى حضرة رجل عظيم. ولا تعرض نفسك من حضرته . وإذا أشبعت نفسك من طعام محرم فإن ذلك ليس إلا لذة ريقك . وانظر فقط (وأنت على المائدة) إلى الوعاء الذى أمامك وكن مكتفيا بما فيه .	١ — إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك تأملا. ٢ — وضع سكينا لحنجرتك إن كنت شرها . ٣ — لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب .
(أمينموبى ٢٣ : ١٣ — ١٨)	(سفر الأمثال ٢٣ : ١ — ٢)

وكان المترجمون للرواية المنقحة من « كتاب العهد القديم » غير متأكدين مما إذا كانوا يترجمون النص العبرى بقولهم « ما هو أمامك » أو يترجمونها « بالشخص الذى أمامك » ، وقد حل تلك المسألة ما جاء عن الحكيم المصرى « أمينموبى » حيث قال ما ترجمته « الوعاء الذى أمامك » ، وقد غير المصنف العبرانى ترتيب الأفكار فنقل العبارة « خبز أكاذيب » التى توازى فى الأصل (المصرى القديم « طعام محرم » وحرفيا : طعام خطأ) إلى السطر الأخير .

على أن نصيحة « أمينموبى » المصرى هذه قديمة جدا ، لأنها مستقاة من حكم « بتاح حتب » فكان عمرها فى زمن « أمينموبى » قد بلغ حوالى ألفى سنة . ولذلك نجد نص النصيحة بالكلمات

الأصلية التى فاه بها الحكيم « بتاح حتب » أكثر وضوحا . قال :

« إذا كنت امرأ من الذين يجلسون (على المائدة)
فى حضرة رجل أعظم منك فخذ منه حينما يعطيك
ما يضعه أمامك ، ولا تنظر إلى ما هو أمامه
بل انظر (فقط) إلى ما هو أمامك ، ولا تقذفنه (حرفيا ترمينه) بنظرات عديدة (لا تحملقن إليه) .
واخفض من وجهك إلى أسفل إلى أن يخاطبك
وتكلم فقط حينما يوجه إليك بكلام »(١) .

فنجد هنا إذن حكيما عبرانيا يفرض على الشباب الإسرائيلى نصائح فى آداب اللياقة كانت هى بنفسها المرشد الهادى للموظفين المصريين القدماء فى البلاط الفرعونى فى العهد الذى ظهرت فيه الأهرام ، أى قبل ذلك العهد العبرانى بألفى سنة ، وعلى ذلك يحتمل أن تكون تلك الفقرة أقدم مادة فى كتاب العهد القديم . ونجد فى ذلك مثالا رائعا على أن الحياة العبرانية فى فلسطين كانت تتطور تحت تأثير خبرة آلاف السنين من التجارب الاجتماعية التى قد صارت تعد تاريخا قديما حينما ظهرت الأمة الإسرائيلية فى عالم الوجود .

وقد لا يوجد فى كتاب « العهد القديم » مثل من الأمثال كثر اقتباسه فى عصرنا الحالى الذى ساد فيه الاهتمام بالمعاملات أكثر من ذلك المثل الذى

(١) توجد بينات أخرى كثيرة تدل على اعتماد « أمينموبى » على حكم « بتاح حتب » ويتضح منها أن « أمينموبى » كان يستعمل الأدب المصرى القديم السابق لعهده فى تأليف كتابه المكون من ٣٠ فصلا . وهذه حقيقة لأنها تناقض ما يحاوله بعض علماء الكتاب المقدس من إرجاع عصر « أمينموبى » إلى زمن متأخر وبذلك يعتبرون حكمه مستعارة من الأمثال العبرانية .

يطرى من يحسن عمله ، وهو : « هل ترى رجلا ماهرا فى عمله ، إنه سيقف أمام الملوك » .

والترجمة السبعينية (وهى الترجمة الإغريقية القديمة) لكتاب « العهد القديم » لا تحتوى على الفعل « ترى » بل كانت تبتدئ بكلمة « رجل » ، وقد أوضح الأستاذ « جِرِم » أن الفعل الذى تبتدئ به الجملة تابع للفقرة السابقة من الأصل العبرانى(١) ، ولذلك نجد أنه بعد إصلاح ذلك الخطأ تصير الموازنة هكذا :

سفر الأمثال العبرانى	أمينموبى المصرى
٢٩ — أرأيت رجلا مجتهدا فى عمله ، أمام الملوك يقف .	الكاتب الماهر فى وظيفته سيجد نفسه كفوا لأن يكون من رجال البلاط
(سفر الأمثال ٢٢ : ٢٩)	(أمينموبى ٢٧، ١٦—١٧)

ولا حصر لما نستطيع إيراده من أمثال تلك المماثلات المتشابهة ، ولكن ما أوردناه من الأمثلة التى ذكرت يكفى بلا شك للدلالة على أن « سفر الأمثال » العبرانى يحمل فى ثناياه جزءا جوهريا من كتاب حكم لمصرى قديم سابق له .

وقد جرى ذلك النقل عن حِكم المصريين القدماء دون ذكر الأوان ، غير أنه من الأمور الهامة أننا عثرنا فى كتاب « سفر الأمثال » على إشارة تدل بلا شك على الاقتباس من كتاب « أمينموبى » المصرى القديم ، ولو أن هذه الإشارة لم تكن بطبيعة الحال على شكل عنوان أو بذكر اسم ذلك الحكيم

(١) راجع : Weiteres Zu Amen - em - ope Proverbien in Orientalische Literaturzeitung, Vol. 28 (1925) Col 59.

الحكيم المصرى الذى عاش فى مثل ذلك العصر البعيد . ذلك بأننا نجد فى المقدمة « لكلمات الحكماء » السؤال الغريب الآتى ، وهو الذى قد حار فى ترجمته مصنفو الترجمة المنقحة لكتاب العهد القديم ، وهاك نص السؤال :

« ألم أكتب لك أمورا شريفة
من جهة مؤامرة ومعرفة ؟ »

(سفر الأمثال ٢٢ : ٢٠)

وقد وضعت لجنة التنقيح ملاحظة فى الهامش خاصة بعبارة « أمور شريفة » لفتوا بها النظر إلى أن « تلك العبارة مشكوك فيها » . والواقع أن المصنفين العبرانيين الأقدمين كانوا أنفسهم يشكون فيها بعض الشك أيضا ، وذلك لأنهم وضعوا هجاء آخر لتلك الكلمة على هامش النسخة العبرانية فصارت الكلمة بحسب هجاء المصنفين العبرانيين القدامى تعنى « ثلاثين » . فإذا ارتضينا هذه الكلمة يصير السؤال هكذا : « ألم أكتب لك أمورا ثلاثين من جهة مؤامرة ومعرفة » . ويبدو لنا الأول وهلة أن صيرورة السؤال بهذه الصيغة يحدثنا بشىء لا معنى له ، ولكننا عندما نلاحظ كما لاحظ الأستاذ « آرمان » أن « أمينموبى » قد قسم كتابه المذكور إلى ثلاثين فصلا ورقمها ، فإن كل شىء بعد ذلك يصير واضحا .

ولا بد أن لفافة البردى المصرية الحاوية لهذا الكتاب كانت تسمى فى فلسطين باسم « ثلاثون فصلا فى الحكمة » أو ما يشبه ذلك ، ثم اختصر الاسم بعد ذلك على ما يظهر إلى عنوان بسيط أطلق عليها وهو « الثلاثون » .

وعلى ذلك تعطينا تلك الترجمة الحقيقية التى وصلنا إليها عن طريق اقتراح العالم « جِرم » وبدون أى تغيير فى أصل المتن العبرانى الموازنة التالية :

سفر الأمثال العبرانى	أمينموبى المصرى
٢٠ ـــ ألم أكتب لك ثلاثين فصلا .	تبصر لنفسك فى هذه الفصول الثلاثين . حتى تكون مسرة (لك) وتعليما. من جهة مؤامرة ومعرفة.
(سفر الأمثال (٢٢ : ٢٠)	(أمينموبى ٢٧ : ٧ ــ ٨)

وإن ذكر أحد مؤلفى « العهد القديم » ـــ على غير المألوف ـــ لكتاب أجنبى عن العبرانية ، كان ينقل عنه من غير تحفظ ، يؤكد لنا أنه كان تحت يده ترجمة عبرانية كاملة للكتاب الذى وضعه « أمينموبى » المصرى ، بمعنى أن تلك الترجمة كانت تحتوى على جميع الثلاثين فصلا التى حواها الأصل المصرى الهيروغليفى ، والا كانت كلمة « ثلاثين » بعد وضعها فى كتاب الأمثال لا تدل على أى معنى . ولكى يحافظ الناقل العبرانى على هذا المعنى نراه ، مع عدم نقله للثلاثين فصلا التى يحويها الأصل المصرى القديم برمتها ، قد استغل بالضبط « ثلاثين » مثلا فى نسخته العبرية المختصرة .

(الأمثال ٢٢ : ١٧ ـــ ٢٤ : ٢٢)

ولا شك أن القارئ قد كون لنفسه ملاحظة ذات أهمية بارزة بعد أن تأمل تلك الفقرات من كتاب الحكمة العبرية القديم ووضعها جنبا لجنب مع الأصل المصرى القديم الذى اقتبست منه . على أنه يتضح لنا ، خلافا للأجزاء التى ترجمت ترجمة حقيقية ، أن مصنف « كتاب الأمثال » لم يكن مستسلما ولا آلة جامدة فى نقل تلك الحكم المصرية القديمة عن الترجمة الفلسطينية .

وليس لدينا أمل كبير فى العثور يوما ما على تلك الترجمة ، ولعله من الجائز أن يكون المترجم الفلسطينى نفسه قد أخرج الترجمة غير المقيدة التى وجدناها فى « سفر الأمثال » ، وعلى ذلك كان مصنف الأمثال ينقل عن تلك الترجمة

كما هى .

ومهما يكن من الأمر فإن الحقيقة الناصعة هى أن الصورة التى ظهرت بها حكم « أمينموبى » مرارا فى « سفر الأمثال » توضح لنا بجلاء أن المترجم أو المصنف العبرانى قد اقتبس فى الغالب مجرد الأفكار المصرية القديمة ونشرها بتصرف ، بما له من نظر ثاقب فى الحياة ، وبما له من المهارة الأدبية السامية والدراسة باللغة التى ينقل إليها وهى عادة لغته ، ويتضح ذلك تماما من إيراد بعض الأمثلة الواضحة القاطعة ، فنجد مثلا أن « الغنى » يتخذ له أجنحة فى كل من مصر وفلسطين ، غير أن الأجنحة المصرية كانت أجنحة « أوز » ، وأما الأجنحة فى فلسطين ، حيث لم تكن هناك مستنقعات زاخرة بالأوز البرى ، فقد أبدل المترجم بها أجنحة النسر .

وكذلك نجد فى مصر أن رجل الأعمال الناجح كان فى العادة « كاتبا » ، أما فى فلسطين حيث لم تكن الأحوال كذلك فإن المترجم العبرانى قد سماه « رجلا » فقط ثم أردف ذلك بوصفه « بالمهارة فى عمله » ليتم تحديد صفته .

ونجد فى مصر أيضا أن أهم دَين كان يدان به الإنسان لإلـٰـه الشمس قبل ظهور « سفر الأمثال » بأكثر من ألف سنة هو هبة الماء ، وقد اتخذ من شمولها لكل العالم دليلا على المساواة بين جميع الناس ، وأما فى فلسطين حيث يندر الماء ويكثر القحط . فإننا نجد أن خلق يهوه لجميع العالم هو الذى اتخذ سببا للمساواة بين جميع الناس بالرغم مما يوجد من الفرق بين الغنى والفقر ، وهاك ما جاء من التشابه فى ذلك بين متون التوابيت المصرية القديمة وبين « سفر الأمثال » العبرانى :

متون التوابيت المصرية	سفر الأمثال العبرانى
لقد خلقت المياه العظيمة حتى يتمكن الفقير من استعمالها مثل الغنى .	الغنى والفقير يتلاقيان صانعهما كليهما الرب (يهوه) . (سفر الأمثال ٢٢ : ٢)

وقد أشرنا من قبل إشارة خفيفة إلى أن وجود روح الاتكال على المشيئة الإلـٰهية فى حكم « أمينموبى » قد أثرت تأثيرا دينيا عميقا لا شك فيه فى حكماء فلسطين وأنبيائها ، ففى نصيحة « أمينموبى » الجميلة القائلة : « ضع نفسك بين ذراعى الله » لا يكاد يخفى علينا أن المصدر الذى نجد صداه فى الكلمات التى يسميها الناس « بركات موسى » وهى :

« إن الله الأبدى مكان سكن
وتحته ذراعاه الأبديتان . »

فالرجل الأمثل فى نظر الحكيم « أمينموبى » هو الذى يتكل على الله ويصبر على تحمل الظلم فى صمت ، واثقا من نزول الانتقام الإلـٰهى على الظالم . فهل كان من باب الصدفة أن نجد الصيغة العبرانية . التى ظهرت فيما بعد ، تقول عن أخلاق « موسى » ما يأتى :

« وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من
جميع الناس الذين على وجه الأرض »

(سفر العدد ١٢ : ٣)

على حين أن « موسى » قد مثل فى الصيغة القديمة بالرجل القوى المعتمد على نفسه وأنه رجل عمل مهاجم لا يحتمل وقوع أى ظلم على نفسه أو على قومه ؟ ولقد لفت الأستاذ « سلن » (Sellin) النظر إلى أن المثل الأعلى فى الأخلاق عند العبرانيين القدامى كان يتمثل فى رجل العمل والقوة والحكمة

ذى المال والبنين العديدين ، ولكن ظهرت بعد منتصف القرن الثامن ق . م . . فكرة مخالفة لهذه بالمرة تصور الرجل المثالى بأنه هو الحليم المتواضع المهذب الصامت المجرد من الممتلكات المادية ، ونرى هذا المثل الأعلى فى ذروته متمثلا فى صورة الخادم المتألم الذى يوصف بأنه :

« لن يصيح أو يرفع صوته أو يجعله يسمع فى الشارع »

(أشعيا ٤٢ : ٢)

وأقوى من ذلك ما نجده فى تصور « أشعيا » السامى عندما يقول :

« وكان مضطهدا ، ومع ذلك فإنه حينما عذب لم يفتح فاه كالحمل الوديع الذى يساق إلى المجزرة .

وكالنعجة الصامتة أمام من يجزها ، فهكذا هو لم يفتح فاه » .

(أشعيا ٥٣ : ٧)

وكان الحكيم « أمينموبى » يجد دائما مثله الأعلى فى الرجل الصامت الذى يترك أمره لله .

والآن وقد علمنا أن كتابه كان يقرأ فى « أورشليم » وأن الحكماء والأنبياء العبرانيين كانوا ينتخبون منه المختارات ويقتبسون الاقتباسات ، فإنه يجدر بنا أن نتساءل عما إذا كانت فكرة المتألم الصامت عند بنى إسرائيل لا ترجع فى أصلها إلى الاجتماعيين المصريين وعلى أية حال فإنه صار من الواضح الآن أن المثالية الاجتماعية التى قامت على سمو التقدير للأخلاق ، والتى هى أقدم ما عرف لنا من مذاهب تفويض الأمر للأقدار ، بل كانت فى ذلك العصر المذهب الوحيد من نوعه ، قد ظهرت فى مصر قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م . وكانت نفس الكتب التى تحتوى عليها يقرؤها فى « أورشليم » أولئك الرجال الذين أنتجوا تلك الكتابات التى نسميها الآن « العهد القديم » .

وكيف كان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟ فكما أننا نجد الآداب الأوروبية الحديثة قد نمت مشبعة بما ورثناه من قديم أدب الإغريق والرومان ، كذلك كان محتما أن يتأثر العبرانيون فى فلسطين كل التأثر فى أفكارهم وكتاباتهم بآداب تلك الأمة العظيمة التى قبضت على زمام فلسطين ووضعتها تحت سيطرتها الثقافية والسياسية مدة تفوق مدة نفوذ « روما » فى بلاد الغال (فرنسا القديمة) .

وعلى ذلك فإن تراثنا الخلقى الدينى العظيم الملهم الذى انحدر إلينا من العبرانيين يمكن التسليم بصفة قاطعة بأنه ميراث مزدوج .

فهو أولا : قد تكوَّن من خبرة بضعة آلاف من الستين مارسها الشرق الأدنى القديم ، وبخاصة مصر ، قبل ظهور الأمة العبرانية .

وثانيا : أن تلك الخبرة قد رسخت قدمها بشكل مدهش وزيد عليها بما اكتسبه العبرانيون أنفسهم من التجارب الاجتماعية المتواصلة ، على يد أولئك الأنبياء والحكماء الإسرائيليين .

وقد كان تبادل عوامل الثقافة بين فلسطين وجيرانها من كل الجهات واضحا منذ زمن بعيد على أساس ما لدينا من الكتابات العبرانية فقط . فهذه الكتابات تكشف لنا عن دوام مرور قوافل التجارة الأجنبية بهذه الأنحاء ، فحينما كان العبرانيون فى حاجة إلى الحدادين فإنهم كانوا يجلبونهم من المدن الفلسطينية ، واقتبس مهندسو « سليمان » تصميم معبده فى « أورشليم » من تصميم معبد مصرى ، وكذلك مهرة الصناع الذين قاموا ببنائه فقد أرسلهم « هرام » ملك « صيدا » إلى صديقه « سليمان » ، وتزوج « إهاب » ملك بنى إسرائيل من أميرة فينيقية وتولى حمايتها فى إحضار آلهة لها أجنبية من العبرانيين ، وغيره من تلك الأمثلة التى لا حصر لها .

ويجب علينا الآن أن نضيف إلى هذه الأدلة المبينة المستقاة من « كتاب العهد القديم » تلك الأدلة التى أسفرت عنها الأبحاث الأثرية الحديثة ، فقد أماطت لنا الحفائر الفلسطينية اللثام عن قائمة طويلة من البضائع الأجنبية التى اشتريت هناك ومعها عدد عظيم من الرسوم الزخرفية الأجنبية التى اجتلبت مع تلك البضائع ، فضلا عن أدلة أخرى لا حصر لها تنطق بتأثير العوامل الأجنبية ، فالأثاث الذى عثر عليه فى قصر الملك « إهاب » فى « سامرا » كان محلى بقطع من العاج نقشت عليها صور آلهة أجنبية وبخاصة من آلهة مصر القديمة . والواقع أنه يمكن كتابة مجلد بأكمله عن العناصر الثقافية الأجنبية التى انتشرت فى فلسطين قبل أن يستوطنها العبرانيون وظل أثرها يزداد بعد ظهور الملكية العبرانية ، فى عالم الوجود ، وربما كان من الواضح أيضا منذ زمن بعيد أن الأدب العبرانى ، بصفته معبرا عن الحياة العبرانية ، لا بد أنه كان بطبيعة الحال ـ مطعما مثل تلك الحياة نفسها ، بالمؤثرات الثقافية المنحدرة من الخارج ، سواء أكانت فى القانون أم فى الأساطير أم فى الدين بوجه عام . ولا يقل عن ذلك كله المبادئ الخلقية . وقد رأينا فيما سبق أن العبرانيين أخذوا الكثير من قوانينهم وأساطيرهم عن المدنية البابلية ، أما فى الأخلاق والدين والتفكير الاجتماعى بوجه عام ـــ الذى هو أول نواحي اهتمامنا فى هذا الكتاب ـــ فإننا نجدهم قد بنوا حياتهم على الأسس المصرية القديمة . فالإسرائيليون بعد استيطانهم فلسطين كانوا فى الواقع يسكنون أرضا من الأملاك المصرية مضت عليها فى هذه الحال قرون بأكملها .. وقد استمرت بلادنا مصرية عدة قرون بعد استطيان العبرانيين لها ، وحتى فى عهد متأخر كعهد حكم « سليمان » نجد أن الفرعون المصرى أهدى إلى الملك العبرانى مدينة « جزر » وهى بلدة حصينة من بلدان فلسطين كانت تقع على وجه التقريب فى كنف « بيت

المقدس » .

هذا إلى أن النتائج الأساسية التى قامت وستقوم عليها دعامة المبادىء الخلقية فى الحياة المتحضرة فى أيامنا ، كانت قد اهتدت إليها الحياة المصرية قبل الوقت الذى ابتدأ فيه العبرانيون تجاريبهم الاجتماعية فى فلسطين بزمن طويل ، كما كانت تلك المبادىء الخلقية المصرية موجودة فعلا فى فلسطين بصورة مدونة منذ قرون عدة حينما استوطنها العبرانيون .

حقا إن التوسع الذى أدخل على تلك التعاليم كثمرة من ثمرات الفكر والحياة العبرانية ، يعد ذا قيمة عظيمة للإنسانية لا تقاس بأى مقياس كان ، غير أننا عندما نعترف بهذه الحقيقة يجب ألا يفوتنا أن تلك المشاعر الخلقية التى تسود المجتمع المتمدين الآن ترجع فى أصلها إلى عصر أقدم بكثير من « عصر النبوات » المعترف به من زمن بعيد ، وأنها قد انحدرت إلينا نحن أهل هذا العصر الحاضر من عهد لم تكن فيه الكتابات العبرانية قد وجدت بعد . وعلى ذلك تكون مصادر تراثنا من التقاليد الخلقية بعيدة كل البعد عن انحصارها فى فلسطين وحدها ، وأنه يجب اعتبارها مشتملة كذلك على الحضارة المصرية ، على أن السبيل الذى وصل منه هذا التراث المجيد إلى العالم الغربى هو على وجه خاص ما بقى لنا من الأدب العبرانى وحفظه لنا « كتاب العهد القديم » .

فإن زوال مدنيات الشرق القديم التى بنيت على أسسها المدنية العبرانية ، وما نتج عن ذلك من حرمان العالم الغربى من فهم كل كتابة وكل لغة لتلك المدنيات البائدة حتى ظلت فى عالم صمت مدة ألفى سنة . قد ترك الأدب العبرانى يضىء لنا وحده كأنه شعلة وحيدة من النور تحيط بها الظلمة الدامسة من جميع جهاتها ، وعلى ذلك يكون ما رد إلينا حديثا بالوسائل العلمية من بعض المعلومات عن المدنيات الشرقية المفقودة بمثابة قبس يضىء تلك

الظلمة ويحيط بنى إسرائيل بنور يرجع إلى ما قبل عهدهم ببضعة آلاف من السنين . ولو أن العالم الغربى لم يفقد قط كل علم بأصول المدنية وتطورها لما كان يخطر ببال أى باحث قط أن يجعل للعبرانيين أى منزلة فى التاريخ فوق أنهم بلغوا ذروة ذلك التطور الطويل السابق فى الأخلاق والدين . وأول ما كان يحصل بالتأكيد هو عدم ظهور ذلك المذهب اللاهوتى القائل بانفراد شعب واحد بالتمتع بالوحى الإلـٰهى ، وهو المذهب الذى أعمى أبصارنا عدة قرون عن تعرف ذلك التراث الخلقى الجليل الذى ورثناه عن تأملات وإلهامات العالم بأسره ، لا عن تاريخ أو تجاريب أى أمة من البشر بعينها .

وعلى ذلك فإن أعظم فائدة إنشائية نجنيها من وراء الاهتداء إلى حقيقة تلك المدنيات الشرقية القديمة المفقودة هى أنها ردت إلينا تراثا عرضه عرض الأفق — وهو التراث الذى قد خلفته لنا حياة بنى الإنسان أجمعين . ففيه نجد أعظم وحى يخطر لنا ، وبه يمكننا الآن أن نستدل على أن انبثاق إدراك الإنسان للمميزات التى تفرق بين السلوك الطيب والخاطئ إنما هو خطوة من خطى التاريخ ونتيجة للخبرة الاجتماعية ، وأن قيمة هذا الإدراك فوق كل تقدير لأنه إدراك نام لم تكمل به تطوراته التاريخية . فإن استردادنا لتلك المدنيات المفقودة هو الذى أمكننا به إقامة البراهين على أننا لم نقطع مرحلة تذكر بعد خروجنا من عهد الظلمة الحالكة السابق لظهور القيم الخلقية ، وأن « فجر الضمير » لا يزال خلفنا بالضبط لم نكن نبتعد عنه شيئا ، وأننا ما زلنا للآن نقف عند مطلع شمس عصر القيم الخلقية .

وإنى أعتقد أن الأستاذ « لويس أجاسيز » (Louis Agassiz) هو الذى (بعد أن فحص التزعزع الدائم فى الجبال الثلجية السويسرية ، وراقب انحدار كتل الصخر الكبيرة والصغيرة وهى فى قبضة الثلج ، ثم انفصالها عنه بتأثير

شمس الصيف الحار فتستحيل بذلك إلى سور من الصخور المتراكمة يحف بفوهة الوادى) ـــ أدرك فى نهاية الأمر أن هذه الحركة الجليدية كانت دائبة على عملها هذا منذ أزمان بعيدة ، ثم أشرقت على عقله فجأة تلك الحقيقة الرائعة وهى أن تلك العمليات الجيولوجية التى جرت فى أزمنة سحيقة وأفضت إلى تكون الأرض لا تزال دائبة مستمرة فى طريقها إلى يومنا هذا ، وأنها لم تنقطع ولن تنقطع عن عملها قط . وبعد هذه النظرة القصيرة التى ألقيناها على أدوار التطور الخلقى ، قد نكون محقين إذا قررنا من باب الموازنة والقياس أنَّ ما ذكر عن فعل الثلوج ينطبق كل الانطباق على ما نحن بصدده من التطور الخلقى فى بنى الإنسان .

كفانا جيمس هنرى برستد مؤونة مناقشة سفر الأمثال وبرهن بما لا يدع مجالا للشك إلى أن حكماء العبرانيين قد اعتمدوا كل الاعتماد على أمينموبى الحكيم المصرى القديم وكان ذلك شأن الذين كتبوا التوراة فى المنفى . لم يدعوا أسطورة من الأساطير المعروفة فى الأدب الفرعونى أو البابلى إلا استعانوا بها فى كتابة توراتهم ؛ فرموا بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة ، بل التى قد تدفع الناس إلى اقتراف المعاصى والانغماس فى الشر وتنكب الصراط المستقيم » .

ويأتى بعد سفر « الأمثال » سفر « الجامعة » وهو الجامعة بن داود وكان شعاره : باطل الأباطيل الكل باطل .. إنه يسأل : ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودر يجىء والأرض قائمة إلى الأبد . والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى وضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال . تذهب دائرة دورانا وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن .

إلى المكان الذى جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة . كل الكلام يقصر . لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئ من السمع ، ما كان فهو ما يكون والذى صُنع فهو الذى يصنع فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شىء يقال عنه انظر هذا جديد ، فهو منذ زمان كان فى الدهور التى كانت قبلنا . ليس ذكر للأولين . والآخرون أيضا سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم .

أنا الجامعة كنت ملكا على إسرائيل فى أورشليم ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات هو عناء ردىء جعلها الله لبنى البشر ليعنوا فيه . رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح . الأعوج لا يمكن أن يقوم والنقص لا يمكن أن يجبر . أنا ناجيت قلبى قائلا ها أنا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلى على أورشليم ، وقد رأى قلبى كثيرا من الحكمة والمعرفة ووجهت قلبى لمعرفة الحكمة ومعرفة الحماقة والجهل فعرفت أن هذا أيضا قبض الريح ؛ لأن فى كثرة الغم ، والذى يريد علما يريد حزنا .

ويستمر سفر الجامعة يقطر يأسا ومرارة ، وكاتب هذا السفر معذور ما دام يدين باليهودية التى لا تعرف غير الحياة الدنيا ، فلو كان قد عرف أن الدنيا دار ممر وأن الآخرة دار مقر لما فزع لانقضاء الحياة ولما خطر له على قلب أن الكل باطل وقبض الريح .

كان يحسب أن السعادة فى جمع المال فجمع ذهبا وفضة ولكنه لم يشعر بالسعادة . غرس الحدائق وزينها ببرك الماء وأقام التماثيل هنا وهناك ولكنه لم يحس سعادة تغمر قلبه . اتخذ لنفسه مغنين ومغنيات وإذا بالكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس ، حتى الحكمة لم يجد فيها سعادة .

إنه لا يستطيع أن يفرق بين نفسه وبين البهيمة . فكلاهما من التراب وإلى التراب يعود . إنه يبحث عن السعادة فى الماديات ولو عرف أن صالح الأعمال يقود فى الآخرة إلى جنات النعيم لعثر على ضالته ، على الفوز الأكبر . على جوهر السعادة الذى أعماه عنه إيمانه بأن الدنيا هى الحياة : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم »(١) .

قد يكون فى مزامير داود بعض ابتهالات نبى الله عليه السلام إلى ربه : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب . »(٢) . وقد يكون فى سفر « الجامعة » بعض خطرات من ذهن الجامعة بن داود . أما نشيد الأنشاد الذى ينسب إلى سليمان الحكيم فلا يمكن أن يكون من نظم رجل عرف الله واصطفاه الله . إنه نشيد يفيض بالصور الجنسية التى لا يقدم على نظمها حتى أنبياء بنى إسرائيل الذين تلقوا أصول الغناء فى معاهد الأنبياء بالرامة وبيت إيل والجلجال .

إن بعض الأمثال فى سفر الأمثال كانت من وضع امرأة ، فلماذا لا يكون هذا النشيد من وضع يهودية كانت تحسن نظم الشعر فنظمته على لسان سليمان . ورؤى أن تكرّم كما كرمت إستير من قبل فوضع شعرها فى الكتاب المقدس الذى تحول إلى سجل للأعمال الأدبية العبرانية ؟ إن الذى لا شك فيه أن سليمان لا صلة بينه وبين ذلك النشيد الذى نظم فى أيام المنفى .

---

(١) سورة لقمان الآيتان (٨ ، ٩) .

(٢) سورة ص الآيات (١٧ — ٢٠) .

وها هو ذا النشيد الذى نُسب إلى سليمان عليه السلام ظلما وعدوانا ، وقد ظلموه من قبل وقالوا إنه كفر بعد أن بنى هيكل الرب فى أورشليم ، وإن نسبة ذلك النشيد إليه أهون من نسبة الكفر إلى رجل وضع كل جهوده وأمواله لبناء بيت الله .

« ليقبلنى بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر . لرائحة أدهانك الطيبة . اسمك دهن مهراق لذلك أحبتك العذارى . اجذبنى وراءك فنجرى . أدخلنى الملك إلى حجالة ، نبتهج ونفرح بك . نذكر حبك أكثر من الخمر . بالحق يحبونك .

أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم كخيام قيدار ، كشقق سليمان ، لا تنظرن إلىَّ لكونى سوداء لأن الشمس قد لوحتنى . بنو أمى غضبوا علىَّ . جعلونى ناطورة الكروم .أما كرمى فلم أنظره . أخبرونى يا من تحبه نفسى أين ترعى ؟ أين تربض عند الظهيرة ؟ لماذا أنا أكون كمقنعة عند أصحابك ؟

إن لم تعرفى أيتها الجميلة بين النساء فاخرجى على آثار الغنم وارعى جداءك عند مساكن الرعاة .

لقد شبهتك يا حبيبتى بفرس فى مركبات فرعون — ما أجمل خديك بسموط وعنقك بقلائد . تصنع لك سلاسل من ذهب مع جمان من فضة .

ما دام الملك فى مجلسه أفاح ناردينى رائحته ، صرة المر حبيبى لى ، بين ثدييَّ يبيت .

ها أنت جميلة يا حبيبتى .. ها أنت جميلة . عيناك حمامتان .

ها أنت جميلة يا حبيبتى وحلوة وسريرنا أخضر . جوائز بيتنا أرز وروافدنا سرو .

أنا نرجس شارون سوسنة الأودية .

كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيتى بين البنات .

كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبى بين البنين ، أدخلنى إلى بيت الخمر وعلمه فوقى محبة . أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة جدا . شماله تحت رأسى ويمينه تعانقنى . أحلفكن بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء » .

ويستمر النشيد يشبه الحبيب تارة بالظبى وتارة بغفر الأيائل ويدعو الحبيب حبيبته للخروج فقد ولى الشتاء ، حتى إذا جاء الليل تقول الحبيبة : « فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى . طلبته فما وجدته . إنى أقوم وأطوف فى المدينة فى الأسواق وفى الشوارع أطلب من تحبه نفسى . طلبته فما وجدته . وجدنى الحرس الطائف بالمدينة فقلت : أرأيتم من تحبه نفسى ؟ فما جاوزتهم إلا قليلا حتى وجدت من تحبه نفسى فأمسكته و لم أرخه حتى أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بى . وأحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقل ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء » .

هل يتصور إنسان أن سليمان الحكيم ولا أقول نبى الله سليمان ينظم مثل هذه الأشعار على لسان امرأة متهتكة لم تكتف بالبحث عن حبيبها بالليل ، بل أدخلته إلى غرفة أمها التى حبلت بها ! . وما علاقة سليمان بهذا الغزل الفاضح المكشوف ؟ « هو ذا تخت سليمان حوله ستون جبارا من جبابرة إسرائيل وكلهم قابضون سيوفا ومتعلمون الحرب . كل رجل سيفه على فخذه من هول الليل .

الملك سليمان عمل لنفسه تختا من خشب لبنان . على أعمدته فضة وروافده ذهبا ومقعده أرجوانا ووسطه مرصوفا محبة من بنات أورشليم .

اخرجن يا بنات صهيون وانظرن الملك سليمان بالتاج الذى توجته به أمه

فى يوم عرسه وفى يوم فرح قلبه .

ويعود النشيد ليتحدث عن جمال الحبيبة ، وعن سواد شعرها ، وعن شفتيها اللتين كسلكة من القرمز ، وعن خدها الذى كفلقة رمانة ، وعن عنقها الذى كبرج داود ، وعن ثدييها ، وعن دوران فخذيها ، وعن سرتها . غزل مكشوف لا يليق برجل وقور بله حكيم ، وما كان ينبغى أن يكون بين دفتى كتاب مقدس . ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى أبوا إلا أن تكون كتاب تاريخ وأدب وحكمة وأدب مكشوف .

لقد أساءوا إلى سليمان ، ولولا القرآن لظلت صورة سليمان مهزوزة فى أذهان البشر . فقد أعاد القرآن المجيد إلى سليمان عليه السلام وإلى جميع الأنبياء والرسل كرامة النبوة والرسالة ونفى عنهم المعاصى والشرور التى ألصقها بهم كتاب العهد القديم . « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . »(١) .

كان المؤرخون المسلمون يعتمدون على توراة المنفى بعد أن ترجمت إلى العربية فى القرن الثانى الهجرى ، فكانوا يروون أساطير اليهود على أنها وحى

---

(١) سورة النمل الآيات (١٥ — ١٩) .

من السماء ، وكانوا ينطقون بعض أنبيائهم الذين تخرجوا فى معاهد الأنبياء بالرامة وبيت إيل والجلجال بآيات من القرآن الكريم ؛ فماجت كتب التاريخ بل كتب الدين بالإسرائيليات . وقد انبرى كثير من المؤرخين الإسلاميين للدفاع عن الأخذ بالتوراة .

وقد أفرد ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية) بابا عن « بيان الإذن فى الرواية والتحدث عن أخبار بنى إسرائيل » ، وساق أحاديث نبوية تصرح بالتحديث عن بنى إسرائيل : « حدثوا عنى ولا تكذبوا علىَّ ومن كذب علىَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » . « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » ، « وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون . »(١).

وقد أورد ابن كثير ما كان بين رسول الله — ﷺ — وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « أتى عمر النبى — ﷺ — بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى — ﷺ — فغضب وقال : أمتهدكون فيها يا بن الخطاب ؟ والذى نفسى به لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به . والذى نفسى به لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » .

وصدق رسول الله — ﷺ — فقد جاء بالشريعة السمحة بيضاء نقية ، فأدخل عليها المؤرخون والمفسرون إسرائيليات شابت الشريعة الناصعة البياض ، ومن عجب أن ابن كثير قال فى ذلك الباب بعد أن أورد أحاديث تنهى عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم : فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٦) .

بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ، وعلى سيما مع ما يبدونه من المعربات التى لم يحيطوا بها علما وهى بلغتهم . فكيف يعبرون عنها بغيرها ؟ ولأجل هذا وقع فى تعريبهم خطأ كبير ووهم كثير مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة ، وهذا يتحققه من نظر فى كتبهم التى بأيديهم وتأمل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التدبير والتغيير .

وهذه التوراة التى يبدونها ويخفون منها الكثير فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير ، يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه ، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب باطلة من حيث معناها وألفاظها .

وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم ، قد أسلم زمن عمر وكان ينقل شيئا عن أهل الكتاب فكان عمر رضى الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق وتأليفا لقلبه ، فتوسع كثير من الناس فى أخذ ما عنده ، وبالغ أيضا هو فى نقل تلك الأشياء التى كثير منها ما يساوى مراده ، ومنها ما هو باطل ولا محالة ، ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذى بأيدينا .

قال ابن عباس : « كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذى أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرءونه محضا لم يُشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ؛ إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا

بباطل » .

هذا هو رأى ابن كثير فى توراة المنفى ، ومع ذلك فقد اعتمد عليها فى سرد قصص أنبياء بنى إسرائيل بنى إسرائيل و لم يفرق بين أنبياء الله وأنبياء معاهد الأنبياء الذين كانوا يدرسون الشريعة ونظم الشعر والموسيقى . وقد رصع سيرهم بآيات من القرآن العظيم ، وأجرى على لسانهم حكما إسلامية وابتهالات الصالحين من المسلمين لله رب العالمين .

جاء فى كتاب « العهد القديم » سفر أشعياء عقب سفر نشيد الإنشاد ، وقبل أن نناقش هذا السفر سأروى ما كتبه ابن كثير عن أشعيا كنموذج للمؤرخين المسلمين الذين نهلوا من توراة المنفى دون حرص أو تدقيق :

« باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين إلا أنهم بعد داود وسليمان عليهما السلام وقبل زكريا ويحيى عليهما السلام .

منهم شعيا بن أمصيا . قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكان فى زمانه ملك اسمه حزقيا على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعا مطيعا لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحة . وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب ، قال ابن إسحاق : فى ستمائة ألف راية ، وفزع الناس فزعا شديدا وقال الملك للنبى شعيا : ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده ؟ قال : لم يوح إلىَّ فيهم شىء بعد ، ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء فإنه قد اقترب أجله ، فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكى

ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر :

ــ اللهم رب الأرباب وإلٰه الآلهة ، يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل ، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به من نفسي ، سري وإعلاني لك .

فاستجاب الله له ورحمه وأوحى إلى شعيا بأن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب . فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجدا وقال في سجوده :

ــ اللهم أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين .

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ . ففعل ذلك فشفى ، وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر . فأرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم فى البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوما ، ويطعم كل واحد منهم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن .

وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبره بما قد كان من أمرهم ، فقال له السحرة والكهنة :

ــ إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهى أمة لا يستطيعها أحد من ربهم .

فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين ، ثم لما مات حزقيا ملك بنى إسرائيل مرج (فسد) أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله ، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه . فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ، فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاءوا بمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

هذه رواية ابن إسحاق عن شعيا وقد نقلها عنه ابن كثير ، وهو قد قرأ التوراة ولا شك . ولكنه لم يتعمق فى دراستها ، إنه جعل حزقيا يدعو الله بآيات من القرآن العظيم وجعل الله يمد فى عمره خمس عشرة سنة ، وهذا لا يتفق مع ما جاء فى القرآن المجيد من أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . وجعل شعيا فى دعائه يصف رب إسرائيل بأنه عالم الغيب والشهادة ، ولو درس التوراة لعرف أن « يهوه » لم يكن يعلم الغيب فهو يسأل الشيطان كلما مثل بين يديه : أين كنت ؟ فيقول له : كنت أتجول فى الأرض . ولعل عذر ابن إسحاق أنه قاس النبوة فى التوراة على النبوة فى القرآن الكريم ، ولم يفرق بين أنبياء يوحى إليهم وأنبياء يتلقون النبوة فى معاهد الأنبياء فى الرامة وبيت إيل والجلجال .

وإن قصة انفلاق الشجرة للأنبياء لإخفائهم من أعدائهم وأخذ الشيطان بهدب أثوابهم ونشر الشجرة بمن فيها قد استهوت المؤرخين الإسلاميين وكتّاب السير فنسبوها مرة إلى أشعيا ومرة إلى زكريا ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وضعوا أحاديث نبوية نسبوها إلى نبى الإسلام ـــ صلوات الله وسلامه

عليه — وهو منها برىء .

إن سفر أشعيا يعتمد على الرؤى التى رآها فهى وحى منام ، وكانت فى أيام عُزيَّا ويوتام وآخار وحزقيا ملوك يهوذا فى أيام حكم الأشوريين للعراق ، وكانت العداوة مشبوبة بين الأشوريين واليهود . حتى إن الأشوريين كانوا يصنعون أهراما من رءوس قتلى الحرب والأسرى وكانوا يسلخون الأسرى وهم أحياء فى احتفالات رسمية يشهدها الشعب الأشورى المتعطش إلى دماء اليهود .

وأهم ما يلاحظ فى هذا السفر أنه لم يذكر موسى عليه السلام ، وسبب ذلك أن كاتب هذا السفر من اليهود المتعصبين ليهوديتهم ، فلم يذكر موسى عليه السلام لأن موسى كان من نسل لاوى بن يعقوب (إسرائيل) ولم يكن من نسل يهوذا ، فكان لا بد أن يخرج من رحمة كاتب السفر اليهودى . فقد بلغ الغرور باليهود أن حرموا حتى بنى إسرائيل الذين هبطوا من نسل أسباط غير سبط يهوذا من رحمة الله وألحقوهم بالأمم ، فأصبحوا هم والأمم فى نظر اليهود سواء بسواء .

وقد أخذ المتسرعون المتلهفون على إنكار كل شىء من هذا السفر دليلا على أن موسى عليه السلام إن هو إلا شخصية خرافية لم توجد على ظهر الأرض ، فلو أنها كانت حقيقة واقعة لما أهمل ذكرها سفر أشعيا وهو سفر متأخر كتب بعد أيام داود وسليمان عليهما السلام .

وإن أشعيا رأى أمورا من جهة يهوذا وأورشليم ، ورأى وحيا من جهة بابل ، ووحيا من جهة مؤاب ، ووحيا من جهة دمشق ، ووحيا من جهة مصر ، ووحيا من جهة برية البحر ، ووحيا من جهة دومة ، ووحيا من جهة بلاد العرب . وقد رأى المؤرخون الإسلاميون وكتَّاب السيرة فى هذا الوحى

تنبؤا بهجرة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إلى يثرب فأطلقوا على أشعيا النبى الصالح .

ويأتى بعد سفر أشعيا سفر أرميا ، ويبدأ يصور أرميا كيف أن الله أوحى إليه وكيف أرسله نبيا للشعوب : « كلام أرميا بن حلقيا من الكهنة الذين فى عناثوت فى أرض بنيامين ، الذين كانت كلمة الرب إليه يوشينا بن آمون ملك يهوذا فى السنة الثالثة عشرة من ملكه ، وكانت فى أيام يهوياقيم بن يوشينا ملك يهوذا إلى تمام السنة الحادية عشرة لصدقيا بن يوشينا ملك يهوذا إلى سبى أورشليم فى الشهر الخامس » .

فزمن وجوده معروف فقد كان فى أيام الأزمة التى نشبت بين بابل وأورشليم وانتهت بأن شن نبوخذنصر (بختنصر) هجومه على إسرائيل واليهودية وحرق الهيكل وحمل اليهود إلى عاصمة ملكه سبايا ليمضوا سبعين سنة فى ذل الأسر المهين .

وأشعيا وأرميا قبل عزرا ونحميا ، ولكن لما كان عزرا ونحميا ممن كتبوا التوراة فى المنفى فقد جعلا سفريهما قبل سفرى أشعياء وأرمياء متجاهلين التسلسل التاريخى لكتاب أدباء اليهود الذى تقدس وأصبح « العهد القديم » .

ويلاحظ أن ملك اليهود كان اسمه يوشينا بن آمون وآمون كان إلـٰها لقدماء المصريين ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تعلق حكام اليهود بالفراعين ذلك التعلق الذى جر عليهم غضب بختنصر ملك الكلدانيين . وهو يؤكد ما ذهب إليه برستد من أن حكماء اليهود والذين كتبوا التوراة كانوا يعتمدون على الأدب الفرعونى القديم وعلى أقوال المصلحين الاجتماعيين من قدماء المصريين .

ويرى برستد أن كاتب سفر أرميا قد اعتمد أيضا على أقوال أمينموبى

الحكيم المصرى القديم ، ويسوق للتدليل على ذلك قول أرميا فى الإصحاح (١٧ : ٥ — ٨) « ملعون ذلك الرجل الذى يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه ، ومن الرب يهوه يحيد قلبه ويكون مثل العرعر فى البادية ولا يرى إذا جاء بالخير .

بل يسكن الحرة فى البرية أرضا سبخة وغير مسكونة .

ومبارك ذلك الرجل الذى يتكل على الرب « يهوه » وكان الرب متكله .

— فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياه وعلى نهر تمد أصولها ولا تخشى إذا جاء الحر ويكون ورقها أخضر ، وفى سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الإثمار » .

وقارن هذا القول بقول أمينموبى الحكيم المصرى القديم : « والرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد مثله كمثل شجرة نامية فى غابة ، ففى لحظة يفقد فروعه ويجد نهايته فى مرفأ الخشب وينقل بعيدا عن مكانه .

ومأواه النار .

والرجل الحازم حقا ينتقى لنفسه مكانا .

فإنه مثل شجرة نامية فى حديقة يزدهر ويتضاعف ثمره ويجلس فى حضرة سيده ، وثمرته حلوة وظله وارف ، ويجد آخرته فى الحديقة » .

قد تأثر الأنبياء العبرانيون أيما تأثر بالمقابلة بين الرجل المستقيم والرجل الخبيث بما كتبه أمينموبى ، وقد اقتبسوا منه تلك الصورة الهامة للشجرتين اللتين تصورهما .

ولا يكاد سفر من أسفار العهد القديم يخلو من أثر الأدب المصرى القديم ، فقد عاش بنو إسرائيل فى مصر وظلت الصلة متصلة بين اليهود وبين مصر القديمة يتأثرون بآدابها وتيارات الإصلاح فيها منذ الخروج حتى انقراض مملكة

أورشليم .

ويستمر الإصحاح الأول من سفر إرميا يروى كيف أوحى الله إليه :
« فكانت كلمة الرب إلىّ قائلا : قبلما صورتك فى البطن عرفتك ، وقبلما خرجت من الرحم قدستك ، جعلتك نبيا للشعوب ، فقلت : آه يا سيد الرب ، إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد . فقال الرب لى : لا تقل إنى ولد لأنى إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به ، لا تخف من وجوههم لأنى أنا معك لأنقذك ، يقول الرب ، ومد الرب يده ولمس فمي وقال الرب لى : ها قد جعلت كلامى فى فمك ، انظر ، قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب لتقلع وتهدم وتنقض وتبنى وتهدم وتغرس .

ثم صارت كلمة الرب إلى قائلا : ماذا أنت راء يا أرميا ؟ فقلت : أنا راء قضيب لوز . فقال الرب لى : أحسنت الرؤية لأنى أنا ساهر على كلمتى لأجريها . ثم صارت كلمة الرب إلى قائلا : ماذا أنت راء ؟ فقلت : إنى راء قدرا منفوخة ووجها من جهة الشمال . فقال الرب لى : من الشمال ينتفخ الشر على كل سكان الأرض ، لأنى هأنذا داع كل عشائر الشمال ، يقول الربب : فيأتون ويضعون كل واحد كرسيه فى مدخل أبواب أورشليم وعلى كل أسوارها حواليها وعلى كل من يهوذا ، وأقيم دعواى على كل شرهم لأنهم تركونى ونحروا لآلهة أخرى وسجدوا لأعمال أيديهم .

أما أنت فنطّق حقويك وقم وكلمهم بكل ما آمرك به ، ولا ترتع من وجوههم لئلا أريعك أمامهم . هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض ، لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض ، فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأنى أنا معك ، يقول الرب لأنقذنك » .

ويتذلل إلـه إسرائيل لشعب إسرائيل ويحاول أن يخطب ودهم بأسلوب لا يليق بإلـه ، ثم يخاطب إسرائيل خطاب الزانية حتى يقول لأرميا : « هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل ؟ انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك ، فقلت بعدما فعلت كل هذه :ارجعى إلى فلم ترجع . فرأت أختها الخائنة يهوذا فرأيت أنه لأجل كل الأسباب إذا زنت العاصية إسرائيل فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها . لم تخف الخائنة يهوذا أختها بل مضت وزنت هى أيضا ، وكان من هوان زناها أنها نجست الأرض وزنت مع الحجر ومع الشجر ، وفى كل هذا أيضا لم ترجع إلى أختها الخائنة يهوذا بكل قلبها بل الكذب يقول الرب ، فقال الرب لى : قد بررت نفسها العاصية إسرائيل أكثر من الخائنة يهوذا » .

كان العهد المقدس منتشرا فى أرض ما بين النهرين ، وقد انتشر البغاء فى أرض إسرائيل ويهوذا . أخذ عن الأشوريين الأقوياء فكانت أغلب تشبيهات سفر أرميا مأخوذة عن الزنا والزناة . فإسرائيل زانية ويهوذا زانية أيضا ، فقد تركتا يهوه إلـه إسرائيل وارتمتا فى أحضان آلهة أخرى ... عملية زنا فكرى ثار لها أرميا .

وكانت جميع إصحاحات هذا السفر محاولات لإعادة العاصية إسرائيل إلى بيت الطاعة ، وإلى حظيرة الإيمان بيهوه إلـه إسرائيل « لأنه هكذا قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم : احرثوا لأنفسكم حرثا ولا تزرعوا فى الأشواك . اختتنوا للرب وانزعوا غرل قلوبكم يا رجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج كنار غضبى فيحرق وليس من يطفئ بسبب شر أعمالكم . أخبروا فى يهوذا وسمّعوا فى أورشليم وقولوا : اضربوا بالبوق فى الأرض ، نادوا بصوت عال وقولوا : اجتمعوا فلندخل المدن الحصينة ، ارفعوا الراية نحو صهيون . .

احتموا . لا تقفوا . لأننى آت بشر من الشمال وكسر عظيم . قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأمم . خرج من مكانك ليجعل أرضك خرابا ، تخرب مدنك فلا ساكن . من ذلك تنطقوا بمسوح . الطموا وولولوا لأنه لم يرتد حمو غضب الرب عنا . ويكون ذلك اليوم يقوم الرب : إن قلب الملك يعدم وقلوب الرؤساء وتتحير الكهنة وتتعجب الأنبياء » .

كان الختان عند بنى إسرائيل ماديا ، كان علامة عهد بين ربهم وبينهم ، أما فى هذا الإصحاح فقد استعمل لفظ الختان للدلالة على فطام النفس عن الشهوات وغلق الأفئدة فى وجه الشر ، وهو استعمال جديد لم يسبق أن استعمل فى كل أسفار التوراة .

أنذر يهوه إلٰه إسرائيل نبيه أرميا بما سينزل بإسرائيل من عقاب ، فماذا كان رد نبى يهوه ؟ إنه اتهم ربه بالخداع : « فقلت : آه يا سيد الرب ! حقا إنك خداعا خادعت هذا الشعب وأورشليم قائلا : يكون لكم سلام وقد بلغ السيف النفس فى ذلك الزمان يقال لهذا الشعب ولأورشليم : ريح لائحة من الهضاب فى البرية نحو بيت شعبى ، لا للتذرية ولا للتنقية . ريح أشد تأتى لى من هذه . الآن أنا أيضا أحاكمكم » .

ويستمر سفر أرميا يتوجع على أورشليم ويهوذا ويتنبأ بما سينزل بالشعب من هوان . وقارئ هذا السفر المحايد يهتدى على الفور إلى أنه قد كتب بعد أن وقعت الأحداث التى يتنبأ بها ، فالنبوءات التى وردت فيه تطابق الواقع مطابقة تامة تبعدها عن أن تكون مجرد نبوءات .

أحداث وقعت قبل عصر تدوين التوراة فدونت على أنها نبوءات على لسان نبى من أنبياء بنى إسرائيل لتخويف الذين عادوا من المنفى إلى بيت المقدس ، ولإنذارهم بأن مصيرهم سيكون نفس مصير أجدادهم لو عادوا لعبادة آلهة

الشعوب أو اتخذوا لهم أزواجا من الأمم .

ومما يثير دهشة القارئ أن عزرا ونحميا وأشعياء وأرميا لم يرتكبوا الحماقات التى نسبت ظلما لداود وسليمان ولوط وكل أنبياء بنى إسرائيل ، والسبب أن توراة المنفى قد كتبها عزرا ونحميا وغيرهما من أنبياء التوراة الذين برءوا من كل عيب ، فلا يعقل أن الكاتب ينسب إلى نفسه النقائص والدنايا . ولعل كتّاب التوارة أرادوا أن يثبتوا فى الأذهان أنهم كانوا أطهر من جميع أنبياء بنى إسرائيل ، ولا غرو فهم من نسل يهوذا وقد جعلت توراة المنفى اليهود فوق كل أسباط إسرائيل .

ودارس التوراة لا يسعه إلا أن ينكر كل أقوال يهوه وأفعاله ، فلا يعقل أن شعبا يسخِّر إلـٰهه لتحقيق مآربه وأن يحمده إذا حقق له أهدافه وأن يتهمه بكل النقائص من غش وخداع ونفاق إذا جاءت أفعاله على غير هوى شعبه المختار . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا أول طبقة فى حكماء صهيون ، وهم الذين رسموا سياسة الوعد الإلـٰهى بأرض المعاد أرض فلسطين ليكون لهم حق فى أرض اغتصبوها من أصحابها بقرار من رب العالمين ، ومن سوء الحظ أن المسيحيين قد اتخذوا توراة المنفى ـــ العهد القديم ـــ كتابا مقدسا مكملا للإنجيل ، فكان حماسهم الدينى دافعا لتصديق كل افتراءات اليهود ، وقد قام أناس أحرار من المسيحيين بتفنيد مزاعم توراة المنفى ورفعوا النقاب عن زيفها ، وأعادوا أقوال أنبياء اليهود الذين تلقوا النبوة فى معاهد الأنبياء فى الرامة وبيت إيل وأريحا والجلجال إلى مصادرها الفرعونية والبابلية ، فما من شيء فى إسرائيل أصيل ، وكل ما بها من لغة وحكمة ومعتقدات دينية قد سلبت من الكنعانيين والمصريين والبابليين ، فوثائق المعاملات المكتوبة بالخط المسمارى متداولة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م فى آسيا الصغرى ، وكان استعمال تلك

الكتابة المسمارية فى فلسطين أمرا مألوفا ذائعا عند حلول القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد سرت بجانب هذه المعاملات البابلية التقاليد والقوانين التجارية التى كان التجار البابليون يسيرون على مقتضاها .

وبعض هذه القوانين نفسها مما انحدر إلى البشرية عن طريق قانون حمورابى كانت متداولة الاستعمال كذلك فى فلسطين قبل عهد العبرانيين ، ثم وصلت عن طريق « العهد القديم » إلى الحضارة الغربية .

ولا شك فى أن مثل نظام عطلة السبت قد دب إلى الحياة الفلسطينية عن طريق مثل هذه الاتصالات العملية التى كانت تستند عليها المعاملات التجارية ، فإنه سواء أراد رجل الأعمال الغربى الذى يعيش اليوم فى الشرق الأدنى أم لم يرد ، فإنه يتحتم عليه مراعاة السير فى المعاملات التجارية حسب التقويم المتبع فيما يختص بالأيام المقدسة التى لا يجرى فيها بيع ولا شراء ، ولا بد أن مثل هذه الحال هى ما كان يسير عليه التجار الفلسطينيون حينما كانوا يتعاملون مع التجار البابليين .

أخذوا تقديس السبت عن البابليين ، وأخذوا عنهم « الأرض التى لا رجعة منها » عوضا عن يوم الدين ، وأخذوا الحكمة عن حكماء المصريين القدامى ، فلم يكونوا أكثر من جسر انتقلت عليه حضارة البابليين والفراعين والكنعانيين إلى الغربيين عن طريق « العهد القديم » .

ويأتى بعد سفر أرميا وهو كله مراثٍ سفر حزقيال ، والمفروض أن الذى كتبه حزقيال نفسه ، فالإصحاح الأول من السفر يبدأ بتحديد اليوم الذى أوحى إليه فيه : « كان فى السنة الثلاثين فى الشهر الرابع فى الخامس من الشهر وأنا بين المسبيين عند نهر خابور أن السماوات انفتحت فرأيت رؤى الله . فى الخامس من الشهر وفى السنة الخامسة من سبى يوياكين الملك صار كلام الرب

إلى حزقيال الكاهن ابن بوزى فى أرض الكلدانيين عند نهر خابور ، وكانت عليه هناك يد الرب ، فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال ، سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار ، ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها : لها شبه إنسان ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة . وأرجلها أرجل قائمة ، وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول ، وأيدى إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة ، ووجوهها وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه ، لم تدُر عند سيرها كل واحد يسير إلى جهة وجهه . أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها ، فهذه أوجهها ، أما أجنحتها فمبسوطة من فوق . لكل واحد اثنان متصلان أحدهما بأخيه ، واثنان يغطيان أجسامهما ، وكل واحد كان يسير إلى وجهة وجهه ، إلى حيث تكون الروح لتسير تسير ؛ لم تدُر عند سيرها . أما شبه الحيوانات فمنظرها كجمر نار متقدة كمنظر مصابيح هى سالكة بين الحيوانات ، وللنار لمعان ومن النار كان يخرج برق . الحيوانات راكضة وراجعة كمنظر البرق .

فنظرت الحيوانات وإذا بَكرةٌ واحدة على الأرض بجانب الحيوانات بأوجهها الأربعة . منظر البكرات وصنعتها كمنظر الزبرجد ، وللأربع شكل واحد ، ومنظرها وصنعتها كأنها بكرة وسط بكرة ، لما سارت سارت على جوانبها الأربعة ، لم تدر عند سيرها ، أما أطُرُها فعالية ومخيفة ، وأطرها ملآنة عيونا حواليها للأربع ، فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها ، وإذا ارتفعت الحيوانات عن الأرض ارتفعت البكرات ، إلى حيث تكون الروح لتسير يسيرون إلى حيث الروح تسير ، والبكرات ترتفع معها ؛ لأن روح الحيوانات فى البكرات ، فإذا سارت تلك سارت هذه ، وإذا وقفت تلك

وقفت ، وإذا ارتفعت تلك عن الأرض ارتفعت البكرات معها ، لأن روح الحيوانات كانت فى البكرات ، وعلى رءوس الحيوانات شبه مقبب لمنظر البلور الهائل منتشرا على رؤوسها من فوق ، وتحت المقبب أجنحتها مستقيمة الواحد نحو أخيه ، لكل واحد اثنان يغطيان من هنا ، ولكل واحد اثنان يغطيان من هناك أجسامها . فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة كصوت القدير صوت ضجة كصوت جيش . ولما وقفت أرخت أجنحتها فكان صوت من فوق المقبب الذى على رؤوسها إذا وقفت أرخت أجنحتها ، وفوق المقبب الذى على رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق ، وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق . ورأيت مثل منظر النحاس اللامع كمنظر نار داخلة من حوله من منظر حقويه إلى فوق ، ومن منظر حقويه إلى تحت . رأيت مثل منظر نار ولها لمعان من حولها ، كمنظر القوس التى فى السحاب يوم مطر ، هكذا منظر اللمعان من حوله . هذا منظر شبه مجد الرب ، ولما رأيته خررت على وجهى ، وسمعت صوت متكلم » .

ويثور فى نفسى سؤال ، لماذا كثير أنبياء بنى إسرائيل فى أيام السبى ؟ لعل الأزمة الطاحنة التى كان يعيش فيها اليهود حركت ضمائر بعض السبايا فراحوا يتصورون أن يهوه قد اصطفاهم ليؤنبوا اليهود على ما اقترفوه فى حقه ، أو لعلهم نصبوا من أنفسهم أنبياء ليعيدوا الشعب الضال إلى حظيرة الإيمان . وإن كاتب سفر حزقيال لم يشذ عن تصور أن الرب يأتى فى ظلل السحاب وفى النار ، وقد صور موكب الرب كما صور البابليون إلٰههم مردوخ . إنه محاط بأسود أشورية مجنحة وبعجول مجنحة ، وإن الصورة التى صورها حزقيال لمجد الرب لا تفترق فى كثير ولا قليل عن تمثال لمردوخ رب بابل ، وقد عاش

حزقيال فى الأسر مدة طويلة ورأى تماثيل آلهة الكلدانيين فى العراق فتأثر بها لما وصف كيف ظهر له يهوه !

إن النظرية الإسلامية فى الوحى تقول إن الله لم يكلم من اصطفاهم إلا وحيا أو من وراء حجاب ، ولما أراد موسى عليه السلام أن يرى الله جهرة أمره الله أن ينظر إلى الجبل ، فلما تجلى الله سبحانه وتعالى للجبل اندك وخر موسى صعقا ، فكيف استطاع حزقيال أن يفتح عينيه ليرى موكب مجد الله ولا يخر على وجهه إلا بعد أن يرى فى وضوح كل الموكب بأدق تفاصيله ، إنه كان ولا شك يقف أمام تمثال لأحد الآلهة البابلية ، وكان يصفه وهو هادئ النفس مستريح البال !.

ولنصغ الآن إلى الحوار الذى كان بين يهوه وبين حزقيال : « فقال لى : يا بن آدم قم على قدميك فأتكلم معك . فدخل فىّ روح لما تكلم معى وأقامنى على قدمى ، فسمعت المتكلم معى وقال لى : يا بن آدم أنا مرسلك إلى بنى إسرائيل ، إلى أمة متمردة قد تمردت علىّ . هم وآباؤهم عصوا على إلى ذات هذا اليوم . والبنون القساة الوجوه الصلاب القلوب أنا مرسلك إليهم فتقول لهم : هكذا قال السيد الرب ، وهم من سمعوا وإن امتنعوا لأنهم بيت متمرد ، لأنهم يعلمون أن نبيا كان بينهم . أما أنت يا بن آدم فلا تخف منهم ومن كلامهم لا تخف لأنهم فريس وسلاء لديك ، وأنت ساكن بين العقارب ، من كلامهم لا تخف ومن وجوههم لا ترتعب لأنهم بيت متمرد ، وتتكلم معهم بكلامى إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم متمردون » .

ويستمر حزقيال يذكر الشعب المتمرد وعصيان الآباء والأنبياء اليهود ، فكيف يقبل يهوه أن يكون مثل هذا الشعب الملىء بالآثام والذى يتمرغ فى الخطايا شعبه المختار ؟! إن يهوه لم يصطف ذلك الشعب الذى ارتكب

كل مايحط من كرامة الإنسان ، ولكن كهان بنى إسرائيل فى المنفى كتبوا التوراة بأيديهم وعبدوا أنفسهم غرورا فادعوا أنهم وحدهم الناس وأن يهوه إلـٰههم وحدهم وسخروه لخدمة مآربهم وجعلوه يتذلل إليهم عوضا عن أن يتهلوا إليه ، لكأنما يعلم أنه ليس له وجود إلا بهم .

وضعوا على لسانه عهودا تخدم قضاياهم الدنيوية ، وجعلوه فظا غليظ القلب يبيح لعباده — إن كانوا يعبدونه — أن يقتلوا أعداءهم بلا تمييز بين محارب ومسالم ولا شاب ولا شيخ ولا طفل ولا امرأة ، وإنه يقابل الفاحشة بالفاحشة فيهدد داود عليه السلام لما زعموا أنه أخذ بتشبع زوجة قائده أوريا الحثى بأن يزنى فى بيته فى عين الشمس ، أى على الملأ على رؤوس الأشهاد !

وجعلوه نهما يتلذذ برائحة الشواء ، وأنه لذلك يعفو عن الذنوب جميعا إذا قدمت له القرابين على النار ، وجعلوه يصف للبرء من الأمراض ما يصفه الكهنة والسحرة (وكوديا) الزار ، إنه إلـٰه من صنع عقولهم ، وإنى أعذر الذين تربوا على التوراة ثم كفروا بها وقالوا إن الرب من صنع الإنسان ؛ فتوراة المنفى لا يمكن أن توحى بشىء أكثر من هذا ، وهى المسئولة عن كل الأفكار الخاطئة التى يروج لها رجال الدين فى الغرب وعلماء المقارنة بين الأديان .

إن الذين تخرجوا فى مدرسة التوراة لهم عذرهم إن كفروا بالدين ، فالأسفار بأقلام بشر يصيبون مرة ويخطئون مرارا ، وهم فى منأى عن جوهر الدين فى أغلب الأحايين . فما بال المقلدين من المسلمين يكفرون بالدين وما فى قرآنهم العظيم شىء يتعارض مع الفطرة والمنطق والعقل السليم !

إن إنسان العصر الحديث فى الغرب قد تفتحت عيناه عن زيف « عهده القديم » فلم يجهد نفسه فى أن يبحث عن الحق المبين ، بل أغلق قلبه دون كل دين ، وجعل من نفسه إلـٰها كاملا بعد أن زعم أن الله قد مات على لسان شترنو

ونيتشه وسارتر . وعبد الإنسان نفسه ولا جرم فقد اعتاد أن يعبد ما يخلق من أصنام .

ويذهب حزقيال إلى المسبيين ويمكث بينهم سبعة أيام ، ثم يقول له يهوه فيما يقول : « وأنت يا بن آدم فخذ لنفسك لبنة وضعها أمامك وارسم عليها مدينة أورشليم واجعل عليها حصارا وابن عليها برجا وأقم عليها مترسة واجعل عليها جيوشا وأقم عليها مجانق حولها ، وخذ أنت لنفسك صاجا من حديد وانصبه سورا من حديد بينك وبين المدينة وثبت وجهك عليها فتكون فى حصار تحاصرها . تلك آية لبيت إسرائيل » .

أرأيت ! إن حزقيال مثّال بارع ، فلا غرو أنه وصف موكب مجد الله وصفا يليق بمثال يتخيل تمثالا أو يجمع فى ذهنه صور التماثيل التى رآها فى أرضى السبى فى مشهد واحد يليق بمجد الرب .

كيف لم يبهر نور يهوه عينى المثال الماهر ؟ إنه قادر على أن يفتح عينيه فى ذلك النور ويرى أدق تفاصيل الموكب ثم يخر بعد ذلك ساجدا لمجد الرب . إنها خيالات كاتب هذا السفر وهى خيالات فنان قد فسد ذوقه ببعض معتقدات الكهان . ولنستمع إلى ما زعم الكاتب أنه وحى الرب : « واتكئ أنت على جنبك اليسار وضع عليه إثم بنى إسرائيل . على عدد الأيام التى فيها تتكئ عليه تحمل إثمهم . وأنا قد جعلت لك سنى إثمهم حسب عدد الأيام ثلاثمائة يوم وتسعين يوما فتحمل إثم بيت إسرائيل ، فإذا أتممتها فاتكئ على جنبك الأيمن أيضا فتحمل إثم بيت يهوذا أربعين يوما ، فقد جعلت لك كل يوم عوضا عن سنة ، فثبت وجهك على حصار أورشليم وذراعك مكشوفة وتنبأ عليها ، وهأنذا أجعل عليك رُبطا فلا تقلب من جنب إلى جنب حتى تتم أيام حصارك » .

ألا يعذر الذين كفروا بمثل هذا الوحى ؟ أيكفى أن ينام شخص أيا كانت مكانته على جنبه الأيسر ويكشف ذراعه ليحمل أوزار شعب عاش طول حياته يلعق معاصيه ؟ وهل هذا عدل إلٰهى ؟ « ولا تزو وازرة وزر أخرى »(١) . « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا . »(٢) . « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . »(٣) . « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون . »(٤) .

عدل لا عدل بعده ، أمر ربى بالقسط « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير . »(٥) .

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »(٦) .

---

(١) سورة الإسراء الآية (١٥) .
(٢) سورة النساء الآيات (١١٠ — ١١٢) .
(٣) سورة الأنعام الآية (١٣٢) .
(٤) سورة الأنعام الآية (١٦٠) .
(٥) سورة فاطر الآية (١٨) .
(٦) سورة البقرة الآية (٢٨٦) .

ويستمر سفر حزقيال فى الحديث عن خطايا بنى إسرائيل وعن تذلل يهوه إليهم ليعودوا إليه . ولا ينسى ذلك السفر أن يؤكد أن رب إسرائيل قد وعد شعبه بأرض فلسطين : فذلك الوعد هو الشيء الذى لا يخلو منه سفر من أسفار العهد القديم .

وفى ذلك السفر حديث عن الأنبياء الذين يتنبأون من تلقاء ذواتهم وما أكثرهم فى إسرائيل : « وكان إلىّ كلام الرب قائلا : يا بن آدم تنبأ على أنبياء إسرائيل الذين يتنبأون ، وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب ، هكذا قال السيد الرب : ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا . أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب فى الخرب . لم تصعدوا إلى الثُّغَر ولم تبنوا جدارا لبيت إسرائيل للوقوف فى الحرب يوم الرب ، رأوا باطلا وعرافة كاذبة ، القائلين وحى الرب والرب لم يرسلهم ، وانتظروا إثبات الكلمة ، ألم تروا رؤيا باطلة وتكلمتم بعرافة كاذبة قائلين وحى الرب وأنا لم أتكلم ؟ لذلك هكذا قال السيد الرب : لأنكم تكلمتم بالباطل ورأيتم كذبا فلذلك ما أنا عليكم يقول السيد الرب . وتكون يدى على الأنبياء الذين يرون الباطل والذين يعرفون بالكذب ، فى مجلس شعبى لا يكونون وفى كتاب بيت إسرائيل لا يكتبون وإلى أرض إسرائيل لا يدخلون فتعلمون أنى أنا السيد الرب ... » .

وكان فى إسرائيل إلى جوار الأنبياء الكذبة مدعيات للنبوة من النساء ، ولعل إحداهن هى التى كتبت على لسان سليمان الحكيم « نشيد الأنشاد » . وقد تسلل ذلك النشيد إلى كتاب بيت إسرائيل ليكون سفرا مقدسا عند اليهود والنصارى على السواء : « وأنت يا بن آدم فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن وتنبأ عليهن . وقل هكذا قال السيد الرب .

ويلى للواتى يخطن وسائد لكل أوصال الأيدى ويصنعن مخدات لرأس كل قامة لاصطياد النفوس . أفتصطدن نفوس شعبى وتستحيين أنفسكن وتنجسنني عند شعبى لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز ؟ لإماتة نفوس لا تنبغى أن تموت واستحياء نفوس لا ينبغى أن تحيا بكذبكن على شعبى السامعين للكذب » .

ويخاطب حزقيال إسرائيل كما خاطبها أرميا من قبل وينعتها بالزانية ومدينة الدماء ويصفها بأقبح الصفات ، فكيف رضى الرب أن يكون مسكنه الدائم فى تلكم المدينة التى يمور فيها الفجور مورا ؟ « الله لا إلـٰه إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السمـٰوات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم . »(١) .

ويتنبأ نبى آخر فى أيام السبى ويصبح ما كتبه سفرا مقدسا فى التوراة ، إنه النبى دانيال ، ويبدأ سفره بوصف حصار نبوخذناصر لأورشليم : « فى السنة الثالثة من ملك يهوياقيم ملك يهوذا ذهب نبوخذناصر ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها وسلم الرب بيده يهوياقيم ملك يهوذا مع بعض آنية بيت الله ، فجاء بها إلى أرض شنعار إلى بيت إلـٰهه وأدخل الآنية إلى خزانة بيت إلـٰهه ، وأمر الملك أشفُتر رئيس خصيانه بأن يحضر من بنى إسرائيل ومن نسل الملك ومن الشرفاء فتيانا لا عيب فيهم حسان المنظر ، حاذقين فى كل حكمة وعارفين معرفة وذوى فهم بالعلم والذين فيهم قوة على الوقـوف فى قصر الملك

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم ، وعين لهم الملك وظيفة كل يوم بيومه من أطايب الملك ومن خمر مشروبه لتربيتهم ثلاث سنين ، وعند نهايتها يقفون أمام الملك ، وكان بينهم من بنى يهوذا دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا ، فجعل لهم رئيس الخصيان أسماء فسمى دانيال بلطشاصَّر ، وحننيا شدرُخ وميشائيل ميتخ ، وعزريا عبدتغُو .

أما دانيال فجعل فى قلبه أنه لا يتنجس بأطايب الملك ولا بخمر مشروبه ، فطلب من رئيس الخصيان أن لا يتنجس ، وأعطى الله دانيال نعمة ورحمة عند رئيس الخصيان . فقال رئيس الخصيان لدانيال : إنى أخاف سيدى الملك الذى عين طعامكم وشرابكم، فلماذا يرى وجوهكم أهزل من الفتيات الذين من جيلكم فتدينون رأسى الملك ؟ فقال دانيال لرئيس السقاة الذى ولاه رئيس الخصيان على دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا : جرب عبيدك عشرة أيام فليعطونا القطانى لنأكل وماء لنشرب . ولينظروا إلى مناظرنا أمام الملك وإلى مناظر الفتيان الذين يأكلون من أطايب الملك ، ثم اصنع بعبيدك ما ترى . فسمع لهم هذا الكلام وجربهم عشرة أيام . وعند نهاية العشرة الأيام ظهرت مناظرهم أحسن وأسمن لحما من كل الفتيان الآكلين من أطايب الملك ، فكان رئيس السقاة يرفع أطايبهم وخمر مشروبهم ويعطيهم قطانى » .

نوادر لا يمكن أن ترقى إلى مستوى وحى الله ، وتضارب فى أقوال أنبياء بنى إسرائيل حتى ليخيل إلى القارئ أن كاتب هذا السفر لا علم له بما سبقه من أسفار أو أن مردخاى وإستير لم يطلعا على هذا السفر ، والمفروض أنه قد كتب قبل سفرهما المقدس ، فدانيال أبى أن يتنجس بشراب الملك ومأكله، بينما إستير لم تجد حرجا فى شراب الملك ومأكله ، ومردخاى لم يتردد لحظة فى أن يقدم ابنة عمه الجميلة محظية للملك ، ولولا دهاء اليهود ودسائسهم لظلت

إستير محظية ولما ارتفعت إلى مرتبة ملكة . المهم أن قارئ التوراة لا يدرى أشرب الخمر حلال أم حرام فما أكثر أنبياء التوراة الذين شربوا الخمر وما أكثر الذين تغزلوا فيها ، ولا يدرى حدود الزنا فقد زعم كتاب التوراة أن جميع أنبيائهم تقريبا قد زنوا دون أن يقام عليهم الحد ، بل إن يهوذا نفسه الذى ينسب إليه اليهود قد زنى بزوجة ابنه وجاء منها بجيل من اليهود . أساطير لا يمكن أن ترقى إلى الحقيقة ، وإنها لجرأة بغيضة على الله أن يظن إنسان أن ما كتبه كتَّاب التوراة فى المنفى يمكن أن يكون وحيا من لدن أحكم الحاكمين .

إن دانيال هو كاتب هذا السفر وقد يكون الفتيان الأربعة قد اشتركوا فيه ، أو أن دانيال وصف رفقاءه بالحكمة والفهم ليصدقوه فى كل ما يقول : « أما هؤلاء الفتيان الأربعة فأعطاهم الله معرفة وعقلا فى كل كتابة وحكمة ، وكان دانيال فهيما بكل الرؤى والأحلام . وعند نهاية الأيام التى قال الملك أن يدخلوهم بعدها أتى بهم رئيس الخصيان إلى أمام نبوخذناصر وكلمهم الملك فلم يوجد بينهم مثل دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا ، فوقفوا أمام الملك وفى كل أمر حكمة فهم الذى سألهم عند الملك وجدهم عشرة أضعاف فوق كل المجوس والسحرة الذين فى كل مملكته ، وكان دانيال إلى السنة الأولى لكورش الملك .

كان دانيال يجيد تأويل الأحاديث وتفسير الرؤى ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يجيد تفسير الأحلام ، فهل إجادته لتفسير الأحلام تعطيه الحق فى أن يكتب سورة من سور القرآن ؟ إن كل ما فعله دانيال أنه فسر لنبوخذناصر رؤيا رآها فأصبح لذلك نبيا من أنبياء بنى إسرائيل وأصبح من حقه أن يضيف إلى العهد القديم كتابا كتبه بيده ، صار يقرأ فى بيوت عبادة اليهود والمسيحيين على السواء.

« وفى السنة الثانية من ملك نبوخذنصر حلم نبوخذنصر أحلاما فانزعجت روحه وطار عنه نومه ، فأمر الملك بأن يستدعى المجوس والسحرة والعرافون والكلدانيون ليخبروا الملك بأحلامه ، فأتوا ووقفوا أمام الملك فقال لهم الملك : قد حلمت حلما وانزعجت روحى لمعرفة الحلم ، فكلم الكلدانيون الملك بالأرامية : عش أيها الملك إلى الأبد ؛ أخبر عبيدك بالحلم فنبين تعبيره ، فأجاب الملك وقال للكلدانيين : قد خرج منى القول إن لم تنبئونى بالحلم وبتعبيره تصيرون إربا إربا وتجعل بيوتكم مزبلة ، وإن بينتم الحلم وتعبيره تنالون من قبلى هدايا وحلاوين وإكراما عظيما ، فبينوا لى الحلم وتعبيره . فأجابوا ثانية وقالوا : ليخبر الملك عبيده بالحلم فنبين تعبيره ، أجاب الملك وقال إنى أعلم يقينا أنكم تكسبون وقتا إذ رأيتم أن القول قد خرج منى بأنه إن لم تنبئونى بالحلم فقضاؤكم واحد ، لأنكم قد اتفقتم على كلام كذب وفاسد لتتكلموا به قدامى إلى أن يتحول الوقت . فأخبرونى بالحلم فأعلم أنكم تبينون لى تعبيره . أجاب الكلدانيون قدام الملك : ليس على الأرض إنسان يستطيع أن يبين أمر الملك . لذلك ليس ملك عظيم ذو سلطان سأل أمرا مثل هذا من مجوس أو ساحر أو كلدانى ، والأمر الذى يطلبه الملك عسر وليس آخر يبينه قدام الملك غير الآلهة الذين ليست سكناهم مع البشر » .

ماذا يفعل كاتب القصة أو كاتب السيناريو عندما يصل الموقف إلى هذا الحد ؟ إنه يدفع ببطله إلى ساحة المعركة المحتدمة ليحل المعضلة ويضع الكاتب على رأسه أكاليل النصر ، وهذا ما فعله دانيال عندما كتب هذا السفر . وأحب أن أشير هنا إلى أن كل كتاب القصة قد ساروا على نهج كتاب التوراة إلى عهد قريب ، إطالة فى التفاصيل وتكرار للأحداث وعقدة للقصة ، ثم حل العقدة وانتصار البطل بعد أن يعجز غيره عن تحقيق ما استطاع هو تحقيقه :

« لأجل ذلك غضب الملك واغتاظ جدا وأمر بإبادة كل حكماء بابل ، فخرج الأمر وكاد الحكماء يقتلون ، فطلبوا دانيال وأصحابه ليقتلوهم (كما يحدث فى السينما تماما) ، حينئذ أجاب دانيال بحكمة وعقل لأريوخ رئيس شرطة الملك الذى خرج ليقتل حكماء بابل . أجاب وقال لآريوخ قائد الملك : لماذا اشتد الأمر من قبل الملك ؟ حينئذ أخبر أريوخ دانيال بالأمر . فدخل دانيال وطلب من الملك أن يعطيه وقتا فيبين للملك التعبير ، حينئذ مضى دانيال إلى بيته وأعلم حننيا وميشائيل وعزريا وأصحابه بالأمر ليطلبوا المراحم من قبل إلـٰه السموات من جهة هذا السر ، لكى لا يهلك دانيال وأصحابه مع سائر حكماء بابل .

حينئذ كان لدانيال كشف السر فى رؤيا الليل ، فبارك دانيال إلـٰه السموات ، أجاب دانيال وقال : ليكن اسم الله مباركا من الأزل وإلى الأبد لأن له الحكمة والجبروت ، وهو يغير الأوقات والأزمنة يعزل ملوكا ويَنصِّب ملوكا ، يعطى الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهما ، وهو يكشف العمالقة والأسرار . يعلم ما هو فى الظلمة وعنده يسكن النور . إياك يا إلـٰه آبائى أحمد وأسبح ، الذى أعطانى الحكمة والقوة وأعلمنى الآن ما طلبناه منك ، لأنك أعلمتنا أمر الملك ، فمن أجل ذلك دخل دانيال إلى آريوخ الذى عينه الملك لإبادة حكماء بابل .. مضى وقال له هكذا : لا تبد حكماء بابل . أدخلنى إلى قدام الملك فأبين للملك التعبير .

حينئذ دخل أريوخ بدانيال إلى قدام الملك مسرعا وقال له هكذا ، قد وجدت رجلا من بنى سبى يهوذا الذى يعرِّف الملك بالتعبير ، أجاب الملك وقال لدانيال الذى اسمه بالطشاصر : هل تستطيع أنت على أن تعرفنى بالحلم الذى رأيت وبتعبيره . أجاب دانيال قدام الملك وقال : السر الذى طلبه الملك

لا تقدر الحكماء ولا السحرة ولا المجوس ولا المنجمون على أن يبينوه للملك لكن يوجد إلٰه فى السموات كاشف الأسرار وقد عرّف الملك نبوخذنصر ما يكون فى الأيام الأخيرة . حلمك ورؤيا رأسك على فراشك هو هذا : أنت يأيها الملك أفكارك على فراشك صعدت إلى ما يكون من بعد هذا ، وكاشف الأسرار يعرفك بما يكون أما أنا فلم يكشف لى هذا السر لحكمة فىّ أكثر من كل الأحياء ، ولكن لكى يُعرِّف الملك بالتعبير ولكى تعلم أفكار قلبك .

أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم ، هذا التمثال العظيم البهى جدا وقف قبالتك ومنظره هائل ، رأس هذا التمثال من ذهب جيد ، صدره وذراعاه من فضة ، بطنه وفخذاه من نحاس ، ساقاه من حديد ، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف ، كنت تنظر إلى أن انقطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما ، فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف ، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان ، أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها . هذا هو الحلم ، فنخبر بتعبيره قدام الملك .

أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إلٰه السموات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها إليك وسلطك عليها جميعا ، فأنت هذا الرأس من ذهب ، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة أخرى من نحاس فتسلط على كل الأرض ، وتكون مملكة رابعة صلبة الحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شىء ، وكالحديد الذى يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء ، وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف الفخار والبعض من حديد فالمملكة تكون

منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين ، وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصيما ، وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ، ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف . وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إلـٰه السموات مملكة تنقرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر ، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد ، لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . الله العظيم قد عرَّف الملك ما سيأتى بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين .

حينئذ خر نبوخذنصر على وجهه وسجد لدانيال وأمر بأن يقدموا له تقدمة وروائح سرور (هل يا ترى دانيال مثل إلـٰه يحب رائحة الشواء ؟). فأجاب الملك دانيال وقال : حقا إن إلـٰهكم إلـٰه الآلهة ورب الملك وكاشف الأسرار إذ استطعت على كشف هذا السر . حينئذ عظم للملك دانيال وأعطاه عطايا كثيرة وسلطه على كل ولاية بابل وجعله رئيس الشحن على جميع حكماء بابل ، فطلب دانيال من الملك فولى شدوخ ومشيح وعبدتغو على أعمال ولاية بابل . أما دانيال فكان فى باب الملك .

وتلقف كتاب السيرة المسلمون والمفسرون الذين قرءوا التوراة هذه الرؤيا وقالوا إن الحجر الذى قطع من الجبل من غير يدين وحطم التمثال العظيم هو محمد رسول الله — ﷺ — خاتم المرسلين ، وراحوا ينقبون فى التوراة عن بشارات عن النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ولم يدر بخلدهم أن توراة المنفى قد أصبحت غير صالحة للتنقيب فقد اندثرت توراة الله وكتب عزرا ونحميا ودانيال وأرميا وأشعياء وغيرهم التوراة

بأيديهم .

وكان أكثر الباحثين عن البشارات فى الكتب المقدسة القديمة الهنود الذين أسلموا والفرس والباكستانيون والعراقيون ، ولكن المسلمين فى فجر الإسلام لم يهتموا لا كثيرا ولا قليلا بالبحث عن البشارات فى الكتب السابقة ، فقد جاءهم نبيهم — ﷺ — بكتاب من الله . إنه آية الآيات ومعجزة المعجزات ونور أضاء الأفئدة بإيمان مبين ، وكشف لعقولهم أسرار الوجود ، وجاءهم بعقيدة تنهى عن اتباع الهوى وتحض على التقوى وتدعو إلى مكارم الأخلاق ، ونزع ما فى الصدور من غل وما فى الأفئدة من جهل ، والقضاء على الظلم ومحق الفساد ، فلم يكن أمامهم إلا أن يدخلوا فى دين الله أفواجا مسلمين وجوههم لله رب العالمين .

ولم يكد مداد الإصحاح الثانى من سفر دانيال يجف حتى نجد الذى كتب ذلك السفر يروى أحداثا لا تتفق مع منطق الأحداث ، فقد رأينا نبوخذنصر فى الإصحاح الثانى يسجد لدانيال ويقول له : حقا إن إلـٰهكم إلـٰه الآلهة ، أى أنه فضل رب إسرائيل على مردوخ إلـٰهه ، فماذا ننتظر من مثل ذلك الملك ؟ إما أن يؤمن بإلـٰه إسرائيل أو على الأقل يحترم إلـٰه إسرائيل ويعلم أن هناك إلـٰها فوق آلهته فيتواضع وتتقاصر نفسه . وإلا فما هى الحكمة من الرؤيا التى رآها والتى فسرها له دانيال دون أن يقصها عليه ؟ إما أن كاتب السفر قد نسى ما كتبه فى إصحاح التفسير وإما أن هناك أكثر من كاتب لذلك السفر : « نبوخذنصر الملك صنع تمثالا من ذهب طوله ستون ذراعا وعرضه ست أذرع ونصبه فى بقعة دورا فى ولاية بابل ، ثم أرسل نبوخذنصر الملك ليجمع المرازبة والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والمفتين وكل حكام الولايات لتدشين التمثال الذى نصبه نبوخذنصر الملك . ووقفوا أمام التمثال

الذى نصبه نبوخذنصر ونادى مناد بشدة : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة ، عندما تسمعون صوت القرن والناى والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب الذى نصبه نبوخذنصر الملك . ومن لا يخر ويسجد ففى تلك الساعة يلقى فى وسط أتون نار متقدة . لأجل ذلك وقتما سمع كل الشعوب صوت القرن والناى والعود والرباب والسنطير وكل أنواع العزف خر كل الشعوب والأمم والألسنة وسجدوا لتمثال الذهب الذى نصبه نبوخذناصر الملك .

لأجل ذلك تقدم حينئذ رجال كلدانيون واشتكوا على اليهود أجابوا وقالوا للملك نبوخذنصر : أيها الملك عش إلى الأبد ، أنت أيها الملك قد أصدرت أمرا بأن كل إنسان يسمع صوت القرن والناى والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف يخر ويسجد لتمثال الذهب ، ومن لا يخر ويسجد فإنه يلقى فى وسط أتون نار متقدة . يوجد رجال يهود الذين وكلتهم على أعمال ولاية بابل » .

وأرسل نبوخذنصر إلى حننيا وميشائيل وعزريا وسألهم أن يسجدوا للتمثال فأبوا ، فامتلأ غيظا وألقى بهم فى النار بعد أن أوثقهم بالحبال ، فإذا به يراهم يمشون فى النار مطمئنين ، فقد أرسل إلـه إسرائيل ملكا فك وثاقهم وأمر النار أن تكون بردا وسلاما عليهم ، فأخرجهم نبوخذنصر من النار ، وقال : « تبارك إلـه شدرخ ومشيخ وعبدتغو الذى أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتكلوا عليه » .

ولم يذكر هذا الإصحاح ماذا فعل دانيال لما أمر الملك بالسجود للتمثال ؟ وإذا كان لم يسجد فلماذا لم يوثق ويلقى به فى النار كما فعل بأصحابه ؟ الظاهر أن دانيال كتب الإصحاح الثانى من السفر وأن الثلاثة الآخرين كتبوا

الإصحاح الثالث دون أن يقرءوا الإصحاح الثانى ، وأن الهدف من الإصحاحين هو تمجيد إلٰه إسرائيل وإظهار أن نبوخذنصر قد اعترف بمجد يهوه .

ويزعم الإصحاح الرابع أن نبوخذنصر قد كتب إلى كل الشعوب بحلم آخر فسره له دانيال ، لكأنما كانت حياة نبوخذنصر أحلام وتأويل الأحاديث . ويموت نبوخذنصر ويتولى الملك بعده ابنه بيلشاصر ويصنع وليمة عظيمة لعظمائه الألف « وشرب خمرا قدام الألف وإذ كان بيلشاصر يذوق الخمر أمر بإحضار آنية من الذهب والفضة التى أخرجها نبوخذنصر أبوه من الهيكل الذى فى أورشليم ..

أظن أنك تذكرت بيلشاصر هو دانيال وأن الإصحاح الأول من هذا السفر قد جاء فيه أن دانيال لم يذق خمرا ، وجاء فى الإصحاح الخامس أنه كان يذوق الخمر ، فأى الإصحاحين نصدق ؟ ومن أين جاء هذا التضارب ؟ لا شك أن السفر الواحد كان يكتبه أكثر من كاتب دون أن يطلع على ما قد كتب ، فجاءت أقوالهم متعارضة وكثر فى التوراة التكرار الذى لا مبرر له .

ويستمر سفر دانيال يصف معجزات يهوه : « .. ظهرت أصابع يد إنسان وكتب بإزاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك والملك ينظر طرف اليد الكاتبة ، حينئذ تغيرت هيئة الملك وأفزعته أفكاره وانحلت خرز حقويه واصطكت ركبتاه ، فصرخ الملك بشدة لإدخال السحرة والكلدانيين والمنجمين ، فأجاب الملك وقال لحكماء بابل : أى رجل يقرأ هذه الكتابة ويبين لى تفسيرها فإنه يلبس الأرجوان وقلادة من ذهب فى عنقه ويتسلط ثالثا فى المملكة ، ثم دخل كل حكماء الملك فلم يستطيعوا أن يقرأوا الكتابة ولا أن يعرفوا الملك بتفسيرها ، ففزع الملك بيلشاصر جدا وتغيرت فيه هيئته

واضطرب عظماؤه ، أما الملكة فلسبب كلام الملك وعظمائه دخلت بيت الوليمة ، فأجابت الملكة وقالت : أيها الملك عش إلى الأبد ، لا تفزعك أفكارك ولا تتغير هيئتك ، يوجد فى مملكتك رجل فيه روح الآلهة القدوسين ، وفى أيام أبيك وجدت فيه نيرة وفطنة وحكمة كحكمة الآلهة ، والملك نبوخذنصر أبوك جعله كبير المجوس والسحرة والكلدانيين والمنجمين . أبوك الملك من حيث إن روحا فاضلة ومعرفة وفطنة وتعبير الأحلام وتبيين ألغاز وحل وعقد وجدت فى دانيال هذا الذى سماه الملك بلطشاصر ، فليدع الآن دانيال فيبين التفسير » .

قبل دانيال نبى اليهود أن يكون كبير كهنة مردوخ وكبير السحرة وكبير المنجمين وهذا باعتراف دانيال نفسه ، فهل النبوة تتواكب مع الكهانة لصنم والسحر والتنجيم ؟ وهل يقبل نبى أن يبدل ملك مهما كان له من الجبروت اسمه ويطلق عليه اسما يلحقه بصنم ؟ إن وظيفة أنبياء بنى إسرائيل فى بلاط نبوخذنصر وابنه كانت وظيفة سياسية ، إنهم كانوا جواسيس الملوك الساسانيين . فلما انتصر قورش مؤسس الدولة الساسانية الإيرانية على بابل وقضى على بيت نبوخذنصر كافأ جواسيسه اليهود بأن سمح لهم بالعودة إلى بيت المقدس ، ولكن الدسائس السياسية لا تظهر عادة فى الكتب المقدسة .

« حينئذ أدخل دانيال إلى قدام الملك ، فأجاب الملك وقال لدانيال : أأنت هو دانيال من بنى سبى يهوذا الذى جلبه أبى الملك من يهوذا ؟ قد سمعت عنك أن فيك روح الآلهة نيرة وفطنة وحكمة فاضلة ، والآن أدخل قدامى الحكماء والسحرة ليقرأوا هذه الكتابة ويعرفونى بتفسيرها فلم يستطيعوا أن يبينوا تفسير الكلام . وأنا قد سمعت عنك أنك تستطيع أن تفسر تفسيرا وتحل عقدا ، فإن استطعت الآن أن تقرأ الكتابة وتعرفنى بتفسيرها فتلبس الأرجوان

وقلادة الذهب فى عنقك وتتسلط ثالثا فى المملكة .

فأجاب دانيال وقال قدام الملك : لتكن عطاياك لنفسك وهب هباتك لغيرى . لكننى أقرأ الكتابة للملك وأعرفه — بالتفسير ، أنت أيها الملك فالله العلى أعطى أباك نبوخذنصر ملكوتا وعظمة وجلالا وبهاء . وللعظمة التى أعطاها كانت ترتعد وتفزع قدامه جميع الشعوب والأمم والألسنة ، فأيا شاء قتل وأيا شاء استحيا وأيا شاء رفع وأيا شاء وضع . فلما ارتفع قلبه وقست روحه تجبر انحط عن كرسى ملكه ونزعوا عنه جلاله وطرد من بين الناس وتساوى قلبه بالحيوان وكانت سكناه مع الحمير الوحشية فأطعموه العشب كالثيران ، وابتل جسمه بندى السماء حتى علم أن الله العلى سلطان فى مملكة الناس ، وأنه يقيم عليها من يشاء ، وأنت يا بيلشاصر ابنه لم تضع قلبك مع أنك عرفت كل هذا — بل تعظمت على رب السماء ، فأحضروا قدامك آنية بيته وأنت وعظماؤك وزوجاتك وسراريك شربتم بها الخمر ، وسبّحت آلهة الفضة والذهب والنحاس والحديد والخشب والحجر التى لا تبصر ولا تسمع ولا تعرف . أما الله الذى بيده نسمتك وله كل طرقك فلم تمجده ، حينئذ أرسل من قبله طرف اليد فكتبت هذه الكتابة ، وهذه هى الكتابة التى سطرت : مَنا مَنا تقْبل وفِرسين . وهذا تفسير الكلام . منا : أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، تقبل : وزنت بالموازين فوجدت ناقصا . فرسين : قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس » .

ما هو جزاء من سب نبوخذنصر وتنبأ بزوال ملك ابنه ؟ القتل أو الصلب أليس كذلك ؟ ولكن اسمعوا ما يقول كاتب هذا السفر « حينئذ أمر بيلشاصر أن يلبسوا دانيال الأرجوان وقلادة من ذهب فى عنقه وينادوا عليه أن يكون متسلطا ثالثا فى المملكة .. ».

هذا الكلام قد كتب فى المنفى ، فإما أنه لم يحدث وقد كتب إرضاء لأكاسرة فارس الذين صار لهم الملك بعد تلك الليلة مباشرة ، وإما أن دانيال قد قاله لما علم أن الفرس على أبواب القصر فهو يقول صراحة فى سفره : « فى تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين فأخذ المملكة داريوس المادى وهو ابن اثنتين وستين سنة » .

إن دسائس اليهود فى قصور الكلدانيين والساسانيين لم تخمد ، وإن توراة المنفى وإن اتخذت لنفسها ثوبا دينيا إلا أنها تخفى ما كان يحيكه فى الظلام سقاة الملك اليهود : عزرا ونحميا ودانيال ومردخاى ومحظيات الأكاسرة من أمثال القديسة إستير .

ولم تنته عجائب دانيال بقتل ابن نبوخذنصر الذى قتل اليهود وشردهم وحملهم سبايا إلى بابل والقضاء على ملكه ، بل لا بد أن تستمر فى عهد الماديين ملوك فارس مادام دانيال هو الذى يكتب مغامراته ومعجزاته : « حسن عند داريوس أن يولى على المملكة مائة وعشرين مرزبانا يكونون على المملكة كلها ، وعلى هؤلاء ثلاثة وزراء أحدهم دانيال (طبعا) لتؤدى المرازبة إليهم الحساب فلا تصيب الملك خسارة . ففاق دانيال هذا على الوزراء والمرازبة لأن فيه روحا فاضلة ، وفكر الملك فى أن يوليه على المملكة كلها . ثم إن الوزراء والمرازبة كانوا يطلبون علة يجدونها على دانيال من جهة المملكة فلم يقدروا أن يجدوا علة ولا ذنبا لأنه كان أمينا ولم يوجد فيه خطأ ولا ذنب . فقال هؤلاء الرجال لا نجد على دانيال هذا علة إلا أن نجدها من جهة شريعة إلـٰهه ، حينئذ اجتمع هؤلاء الوزراء والمرازبة عند الملك وقالوا له هكذا : أيها الملك داريوس عش إلى الأبد ، إن جميع وزراء الملكة والشحن والمرازبة والمشيرين والولاة قد تشاوروا على أن يضعوا أمرا ملكيا ويشددوا نهيا بأن كل

من يطلب طلبة حتى ثلاثين يوما من إلـٰه أو إنسان إلا منك أيها الملك يطرح فى جب الأسود . فثبت الآن النهى أيها الملك ، وأمض الكتابة لكى لا تتغير كشريعة مادى وفارس التى لا تنسخ ، لأجل ذلك أمضى الملك داريوس الكتابة والنهى » .

ألا يذكرك ذلك القول بأقاصيص جدتك ؟ ملك قام ملكه على أساس دينى بعد أن قام زرادشت فى فارس يدعو إلى عبادة أهورا مزدا يوقع وثيقة تقضى بعقاب كل من يطلب طلبا من ربه ؟! إن ملوك الإيرانيين الساسانيين كانوا متدينين وكانوا يصلون لربهم ويدعونه ، فكيف يريد كاتب هذا السفر أن نصدق أن ملكا مهما بلغ به الجنون يوقع مرسوما ملكيا يقول فيه إن كل من يتوجه إلى ربه خلال ثلاثين يوما ولا يتوجه إلى الملك يلقى به فى الجب مع الأسود ؟ لو أن الدولة كانت دولة لا دينية لأمكن أن يفهم مثل ذلك الأمر ولما كان هناك ضرورة لتحديد مدة المنع بثلاثين يوما ، أما والدولة الساسانية دولة متدينة فإن ذلك الأمر لم يتجاوز عقل كاتب هذا السفر ، وقد لجأ إلى ذلك الزعم المتهافت ليلقى بدانيال مع الأسود وليزعم أنها فى وداعة الحمل . معجزة أخرى لدانيال وما أكثر معجزاته المادية التى لا يمكن أن يقوم عليها دليل : « فلما علم دانيال بإمضاء الكتابة ذهب إلى بيته وكواه مفتوحة فى علية نحو أورشليم ، فجثا على ركبتيه ثلاث مرات فى اليوم وصلى وحمد قدام إلـٰهه كما كان يفعل قبل ذلك ، فاجتمع حينئذ هؤلاء الرجال فوجدوا دانيال يطلب ويتضرع قدام إلـٰهه . فتقدموا وتكلموا قدام الملك فى نهى الملك ، ألم تمض أيها الملك نهيا بأن كل إنسان يطلب من أمه أو إنسان حتى ثلاثين يوما إلا منك أيها الملك يطرح فى جب الأسود ؟ فأجاب الملك وقال : الأمر صحيح كشريعة مادى وفارس التى لا تنسخ . حينئذ أجابوا وقالوا قدام الملك : إن دانيال

الذى من بنى سبى يهوذا لم يجعل لك أيها الملك اعتبارا ولا للنهى الذى أمضيته ، بل ثلاث مرات فى اليوم يطلب طلبته ، فلما سمع الملك هذا الكلام اغتاظ على نفسه جدا وجعل قلبه على دانيال لينجيه واجتهد إلى غروب الشمس لينقذه . فاجتمع أولئك الرجال . إلى الملك وقالوا للملك : اعلم أيها الملك أن شريعة مادى وفارس هى أن كل نهى أو أمر يضعه الملك لا يتغير . حينئذ أمر الملك فأحضروا دانيال وطرحوه فى جب الأسود ، أجاب الملك وقال لدانيال : إن إلهك الذى تعبده دائما هو ينجيك ، وأتى بحجر ووضع على فم الجب وختمه الملك بخاتمه وخاتم عظمائه لئلا يتغير العض فى دانيال » .

أهذا ملك أو ألعوبة فى أيدى عظماء مملكته ؟ وكيف يقبل الملك أن يلقى بكبير وزرائه فى جب مع الأسود لمجرد أنه ابتهل إلى إلـٰهه؟ إنه من الظلم للملك أن نشك فيه أو فى عقله بل من العدل أن نبرئه من مثل هذه الصبيانيات وأن نتهم كاتب هذا السفر بسقم التفكير والتهافت القصصى ، فقصته التى يرويها متداعية الأركان . « حينئذ مضى الملك إلى قصره وبات صائما ، ولم يؤت قدامه بمرازبة وطار عنه النوم ، ثم قام الملك باكرا عند الفجر وذهب مسرعا إلى جب الأسود . فلما اقترب إلى الجب نادى دانيال بصوت أسيف وقال لدانيال : يا دانيال عبد الله الحى ، هل إلهك الذى تعبده دائما قدر على أن ينجيك من الأسود ؟ فتكلم دانيال مع الملك : يأيها الملك عش إلى الأبد ، إلهى أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود فلم تضرنى لأنى وجدت بريئا قدامه وقدامك أيضا أيها الملك لم أصنع ذنبا ، حينئذ فرح الملك به وأمر بأن يصعد دانيال من الجب ، فأصعد دانيال من الجب ولم يوجد فيه ضرر لأنه آمن بإلـٰهه ، فأمر الملك فأحضروا أولئك الرجال الذين اشتكوا على دانيال وطرحوهم فى جب الأسود وأولادهم ونساءهم ، ولم يصلوا إلى أسفل الجب

حتى بطشت بهم الأسود وسحقت كل عظامهم » .

هذه ليست أخلاق ملك ، إنها تصورات كاتب يهودى وانتقام يهودى لا يشفى له غليل إلا بقتل النساء والأطفال الأبرياء انتقاما من الآباء . ولنسمع الآن الحكمة من هذه الرواية ، الموعظة التى نخرج بها من كل أقاصيص كتّاب المنفى : « ثم كتب الملك داريوس إلى كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين فى الأرض كلها : ليكثر سلامكم ! من قبلى صدر أمر بأنه فى كل سلطان يرتعدون ويخافون قدام إلٰه دانيال لأنه هو الإلٰه الحى القيوم إلى الأبد ، وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى ، هو ينجى ويعمل الآيات والعجائب فى السموات وفى الأرض ، هو الذى نجّى دانيال من يد الأسود » .

وأهورامزدا إلٰهك يا داريوس ماذا تقول فيه ؟ أليس إلٰه النور بحى ولا قيوم ؟ هل سيزول ملكوته ، وما دمت يا داريوس قد شهدت بعظمة إلٰه دانيال فهل يا ترى اعتنقت اليهودية ؟ لقد ظلمك داريوس كاتب هذا السفر وتسلق على أكتافك لينال مأربه ، وهى سياسة اليهود فى كل عصر وزمان . إنها سياستهم فى عصر نبوخذنصر وكورش وداريوس وأرتحشستا وأخشوريوش ، وهى نفس السياسة فى عصر ترومان وجونسون ونيكسون ، وستستمر نفس السياسة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ويأتى بعد سفر دانيال سفر هوشع ، ويبدأ ذلك السفر بداية غريبة تصور مكر يهوه فى صورة تقشعر منها الأبدان « أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى ؛ لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب . فذهب أوخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابنا ، فقال له الرب ادع اسمه يزرعيل لأننى بعد قليل أعاقب بيت يا هو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل ويكون فى ذلك اليوم أنى أكسر قوس إسرائيل فى وادى يزرعيل .

ثم حبلت أيضا وولدت بنتا فقال له : ادع اسمها لورحامة لأنى لا أعود أرحم بيت إسرائيل أيضا بل أنزعهم نزعا . أما بيت يهوذا فأرحمهم وأخلصهم بالرب إلٰههم ولا أخلصهم بقوس وبسيف وبحرب وبخيل وبفرسان » .

ثم فطمت لورحامة ، وحبلت فولدت ابنا فقال : ادع اسمه لو عُمى لأنكم لست شعبى وأنا لا أكون لكم . لكن يكون عدد بنى إسرائيل كرمل البحر الذى لا يكال ولا يعد ويكون عوضا عن أن يقال لهم لستم شعبى يقال لهم أبناء الله الحى ، ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معا ويجعلون لأنفسهم رأسا واحدا ويصعدون من الأرض لأن يوم يزرعيل عظيم .

قولوا لإخواتكم عمى لأخواتكم رحُامة ، حاكموا أمكم ، حاكموها لأنها ليست امرأتى وأنا لست رجلها لكى تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها لكيلا أجردها عريانة وأقفها كيوم ولادتها وأجعلها كقفر وأصيرها كأرض يابسة وأميتها بالعطش ، ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى » .

ويستمر سفر هوشع فى سب إسرائيل واليهود والدعوة إلى الرجوع إلى الرب ، ثم ينتهى السفر بحنين الرب إلى شعبه والقول بأن طرق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها وأما المنافقون فيعثرون فيها .

وفى الفترة بين السبى وبين داريوس تكثر الأسفار ، فكل من حاول إصلاح حال اليهود قد كتب مذكراته ووصاياه فتقدس ودخلت التوراة من أوسع أبوابها ، فقد كانوا جميعا فى عصر التدوين وكان لكل منهم أن يزعم أن الله قد كلمه أو أوحى إليه ، فيصبح ما كتبه هؤلاء الناصحون أو الثائرون على أوضاع إسرائيل الاجتماعية مقدسا يتلى فى المجامع والكنائس وفى الصلوات .

ويأتى بعد سفر هوشع أسفار يوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وناحوم وصفنيا وحجى وزكريا وملاخى . ولا جديد فى هذه الأسفار يناقش ، إنها

ثورة على أوضاع إسرائيل ودعوة إلى العودة إلى الرب ، وإن كل الدلائل كانت تشير إلى أن دولة إسرائيل كانت فى سبيلها إلى الزوال فقد كثر فيها الفساد ، وقد قضت الدولة الرومانية على إسرائيل وقوضت هيكل سليمان فى أيام تيتس بعد المسيح بسنوات قليلة .

وقد جاء ذكر التوراة فى القرآن ثمانى عشرة مرة ، ويقصد بالتوراة فى القرآن التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام ، وقد نزلت التوراة بلسان القوم الذين نزلت لهدايتهم ، وقد كان موسى عليه السلام يتكلم بلسان فرعون وكذلك كان بنو إسرائيل الذين كانوا يعملون فى مزارع فرعون ، فكانت توراة الله باللغة المصرية القديمة ، ولما خرج بنو إسرائيل من مصر ظلوا فى التيه أربعين سنة فكان لسانهمَ فرعونيا ، ثم دخلوا على يد يوشع بن نون أرض فلسطين واختلطوا لمئات السنين بالكنعانيين فأخذوا عن الكنعانيين اللغة العبرية ، وكانت حروب بين الكنعانيين وبنى إسرائيل .

وبعد حكم داود وسليمان عليهما السلام وكانا من نسل يهوذا اشتد ساعد اليهوذيين ، فانقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين إسرائيل واليهوذية ، وفى أيام نبوخذنصر أغار على فلسطين وقتل من بنى إسرائيل واليهود خلقا كثيرا وحمل منهم أسرى إلى بابل وقوض الهيكل وحرق ما وجد من نسخ التوراة ، وهذه النسخ التى حرقت لا صلة بينها وبين التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام ، فقد ترجمت التوراة من اللغة المصرية القديمة إلى العبرية لسان الكنعانيين وقد أضيف إليها واعتورها التحوير .

وفى أرض السبى وفى أوائل أيام قورش مؤسس الدولة الساسانية كتب عزرا الكاتب التوراة وعاونه نحميا ودانيال ومردخاى ، ثم أضيفت أسفار إلى التوراة الجديدة حتى أصبح العهد القديم سجلا لتاريخ اليهودية .

وقد ثار خلاف بين السامريين واليهود حول التوراة ، فقد اعترف السامريون بالأسفار الخمسة التى تتحدث عن الخلق وآدم وحواء ونوح وإبراهيم واللاويين سبط موسى عليه السلام ، وقالوا ما دامت التوراة قد نزلت على موسى فمن أين جاءت الأسفار التى تروى أحداث بنى إسرائيل واليهود بعد موسى ؟ ولو أن ذلك الاعتراض وجيه إلا أنه يجب أن نناقشه فى عمق ، فقد سبق أن قلنا إن التوراة نزلت على موسى عليه السلام فى مصر بلسان فرعونى والأسفار الخمسة الأولى فى التوراة قد كتبت بلسان عبرى وهى لا تخلو من أساطير . فبناء على ذلك فالأسفار الخمسة الأولى لا تختلف فى كثير ولا قليل عن باقى الأسفار ، فهى من وضع كهان اليهود فى المنفى ولا يجوز للمفسرين المسلمين ولا لكتاب السير أن يعتمدوا عليها . وإن الأخذ عن التوراة التى بين أيدينا فيه تفريط فى حق المسلمين ، فليس فيها إلا ما يساعد على إشاعة الفساد بين الناس ، فأنبياء الله يكذبون ويفجرون ، بل إن الله سبحانه وتعالى عما يصفون يندم لأنه لما خلق البشر لم يكن يدرى أنهم سينافسونه فى ملكه ! وقد دس كهان اليهود فى توراتهم آراء سياستهم لتحقيق مآربهم ألبسوها ثوب الدين ، فكل نقل عن التوراة فيه ترويج لمزاعم اليهود وفيه زعزعة لإيمان المؤمنين ، فهى تموج بادعاءات لا يقبلها عقل ولا يستريح إليها ضمير .

لقد كفر بالتوراة كثير من المفكرين ، وإنى أحترم عقول الذين لم يصدقوا ما فيها من زيف ، ولكننى فى نفس الوقت أسخر من المقلدين الذين كفروا بدينهم لأن بعض مفكرى العرب قد كفروا ، فشتان بين كتاب لا يستقيم مع منطق وبين كتاب يرضى العقل والفطرة والضمير ، ولكنه التقليد : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم

الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين . قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . »[1] .

---

(١) سورة الجمعة الآيات (٥ ــ ٨) .

المراجـــع

القرآن الكريم ـــ الكتاب المقدس ـــ صحيح البخارى

السيرة النبوية	لابن هشام
إنسان العيون (السيرة الحلبية)	لعلى بن برهان الدين الحلبى
بلوغ الأرب	للألوسى
نهاية الأرب	للنويرى
إيران فى عهد الساسانيين	لكريستينسن ـــ ترجمة د . يحيى الخشاب
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار	للشيخ الشبلنجى
إحياء علوم الدين	للغزالى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى
حقوق الإنسان فى الإسلام	للدكتور على عبد الواحد وافى
محمد رسول الله	مولاى محمد على .
الرسول . حياة محمد	ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار
الإسلام والنظام العالمى الجديد	مولاى محمد على ـــ ترجمة أحمد جوده السحار
الدين القيم	لأبى الأعلى المودودى
المستشرقون والإسلام	للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبى	للدكتورة بنت الشاطئ
عبقرية محمد	لعباس محمود العقاد
الروض الأنف	للسهيلى
تاريخ الطبرى	
مشكلة الحرية	للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون	لعباس محمود العقاد
أسباب النزول	للواحدى
شرح نهج البلاغة	لابن أبى الحديد
الملل والنحل	للشهرستانى
فجر الضمير	جيمس هنرى برستد ـــ ترجمة الدكتور سليم حسن
تفصيل آيات القرآن الحكيم	جول لابوم ـــ ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى
الوحى المحمدى	السيد محمد رشيد رضا
سلم الواعظين	عبد الله بن الشيخ حسن الفارسى الكرهجى

رقم الإيداع : ٥٩٥٩

الترقيم الدولى : ١ ـــ ٣٢٦ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه